غومة

فارس الصحراء

علي مصطفى المصراتي

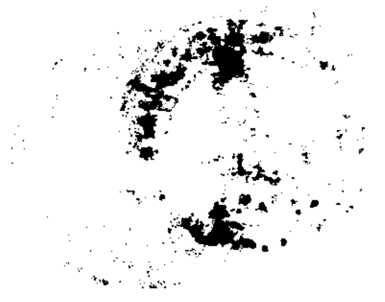
الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

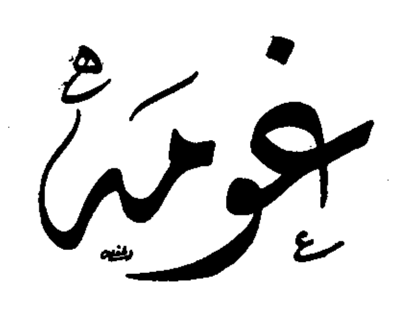


غومة

فارس الصحراء



علي مصطفى المصراتي



غومة

فارس الصحراء



صفحة من تاريخ ليبيا

1795 - 1856

حسين يوسف اللويثي



الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان
مصراتة – الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى
ص.ب 17459 مبرق (تلكس) 30098 مطبوعات

الطبعة الثالثة 1402 و. ر ـ 1992 م

الكمية المطبوعة 3000 نسخة

رقم الإيداع 784 ـ 1989ـ دار الكتب الوطنية ـ بنغازي

الإهـــدَاء

إلى الفرسان الأبطال الذين دافعوا عن الوطن.
إلى الفرسان الذين وهبوا حياتهم من أجل حرية بلادهم
وإلى كل من يقدس حرية الوطن العزيز.. أهدي هذا الكتاب.

علي مصطفى المصراتي



غومة في سطور

- ولد حوالي 1210هـ ـ 1795م.
- والده خليفة بن عون.
- أجرى اتفاق الصلح مع الأصوال ل 1250 هـ ـ 1834م.
- استلم رئاسة المحاميد 1247هـ ـ 1831م.
- له أخ أكبر منه اسمه أبو القاسم.
- قاوم في حركاته..
- نفي مدة ثم عاد من المنفى سنة 1856م.
- اسم زوجته «نجمة» بنت عبد الرحمن بن عبد الجليل المحمودي.
- بناته.. «برنية» و«فجرة».
- له أولاد منهم.. خليفة، ومات له ولد في معركة غريان.
- ومن الغريب أن تشير الوثائق إلى أن له ابناً كان ملازماً في الجيش العثماني، ولم يسمح له بالعودة من استانبول.
- عاش حوالي 64 عاما.



مقدّمة

تاريخ الفروسية في ليبيا حافل بالروائع.. زاخر بالحيوية.. مفعم بايات المجد والاستبسال.. مشرق بالتضحية والفداء.

وفي هذا الكتاب نحاول أن نلقي ظلالاً على فترة من حياة ليبيا وآونة كانت مضطربة قلقة. فيها جوانب من تاريخ هذا الشعب الأبي. صور وضاءة.. وآيات خوالد نواطق.

وقد قام فرسان ليبيا لصد كل غاز أجنبي.. ورد كل اعتداء أثيم.. ومصاولة كل ظالم معتدٍ.

فحمى الفرسان الديار وصانوا شرف الأهل وكرامة الموطن، وذادوا عن الحياض رغم الهزات والأعاصير.. وتتابع الزوابع وحلكة الظلمات في العهود السواحق والآماد الغوابر.

تصدى الفرسان المغاوير لقراصنة البحر ولصوص الشواطىء ومستعمري الشعوب، وردت بطولاتهم الإسبان والمالطيين والنورمانديين والفرنسيين والطليان. فكانت معارك الفرسان حافلة بالبطولة. وظهرت عبر الزمان وعلى مسرح التاريخ الطويل وفوق أديم هذه الأرض وجنبات الصحراء الصامتة اللاهبة بطولات صورتها المعارك والملاحم التي سجلها أبطال أباة الضير.. وانطلقوا من معاقلهم كالجن من قماقمه.

فلهجت باسم الوطن في أهازيج من لهب النار.. وقبس النور.. ومن

شحنة الإيمان ومن نبض العروبة. ومن نبع الحق فكانت بحق وصدق آيات زاخرات..

من هؤلاء «غومه المحمودي»، «وسيف النصر»، في العهد العثماني الأخير.. و«ابن مطروح» وآخرون في العهود السوابق.. وآخرون طويت حياتهم كطي السجل للكتاب.

وهذه الصفحات تتناول حياة فارس من فرسان ليبيا ولد حوالي سنة 1795 م وانتهت حياته سنة 1856 م. عاش حياته في الميدان بين كر وفر.. ونصر وهزيمة.. فارس غذته الأحداث.. وعلمته الصحراء وألهمته النظرة ووخزة الظلم، فأحس وثار وغضب لقومه وناضل من أجل وطنه، دفعه الواجب فاندفع وقاوم ودافع.

ذاق سراديب السّجن وآلام النفي ومشاق الغربة. وطالب بالإصلاح في القرن التاسع عشر..

قاد حركة من حركات التحرير، وطالب بحق المواطن الليبي في تلك الفترة البعيدة التي كانت تعتبر فيها مثل هذه المطالب وتلك المناداة نوعاً من الخروج عن المألوف وضرباً من ضروب التمرد. وكانت صرخة «غومه» في القرن التاسع عشر تعتبر نشازاً في جوقة النفاق ودنيا التزلف.. وعند أرباب الخوف.. وتمرداً عند الطامعين وتهوراً عند الرعاديد.. وجنوناً عند العبيد القاعدين على باب الجور..

ولكن غومه ـ فارس جريء ومواطن ذكي يقظ.. وبطل من أبطال الصحراء؛ وهو رغم بعض المآخذ والهنات لبنة في تاريخ الحركات التحررية التي يتكون منها تاريخنا الشامخ..

ومع أن شخصية هذا الفارس متعددة الجوانب إلا أن الدارسين أهملوه، والخصوم شوهوا حركته. وتكاد رمال النسيان أن تجرفه.. ويكاد غومه يغدو أسطورة من الأساطير.

بينما أهملته الدراسات والبحوث التاريخية تلقفه الأدب الشعبي وسارت معاركه مادة دسمة للأسمار والأقاصيص.

وكنا نسمع من جداتنا وأمهاتنا ألواناً من الأقاصيص المثيرة والأسمار الحلوة حول ـ غومه ـ وفروسية أصحابه.. ونتطلع بشغف إلى المزيد من الاستماع إلى مغامراته، وللإنصات إلى ضروب معاركه.. وأشعاره.. وتفننه في القتال الذي تتمثل فيه فروسية الفارس العربي وهو يقابل جحافل خصمه. كنا نستمع في شغف ولهفة، ولا ندرك من حقيقة هذا الفارس إلا أن حياته كانت مليئة بالمعارك.. وجسمه مثخناً بالجراح.. وجدتنا ذاكرتها مليئة بالذكريات والأقاصيص والحوادث، تسردها في لهجة حلوة وأسلوب مغرٍ..!

أحاديث وحكايات وقصائد عن الفارس المغامر...

وما أحب حديث المغامرات إلى قلوب الصبية المتطلعة..

وهنا في هذه الصفحات الموجزات نحاول أن نبرز معالم هذه الشخصية، وملابسات الحركة التي قام بها هذا الفارس وظروف تكوينها.. نلقي الضوء على جوانب من الأجواء السياسية والاجتماعية.. والدوافع والحوافز.. ثم الآثار والنتائج المباشرة وغير المباشرة..

نود أن نزيح تراب الإهمال الذي غطى على هذا الفارس.. ومن بين الأنقاض وأكوام التقارير وأكداس المراسلات، من بين عشرات الوثائق المهترئة التي أنهكها الإهمال ودفنت في قاع سحيق.. واستنطقنا وقرأنا السطور.. وترجمنا من لغة خصمه وأخذنا نضم الحزازات ونلم المعلومات.. ونجمع الحقائق ونخرجها من أقبيتها. ومن بين الأنقاض والركام وزحام المبالغات وتجني بعض التقارير والمراسلات والوثائق، من بين هذا كله نبرز هذه الترجمة الدراسية ونقدم هذه المحاولة.. وإنه لمجهود شاق وعمل غير يسير. فالمراجع مبعثرة موزعة.. والوثائق متناثرة.. وإنه لعمل شاق ولكنه شيق.

وتكونت مادة هذه الدراسة.. فمادتها التاريخ.. ولحمتها الحقيقة...

وغايتها الإنصاف.. فلم نلجأ إلا للوثائق المعتمدة.. والمصادر الوثيقة للكشف عن الحقيقة وإبانة الوقائع وتصوير المعارك وحوافزها. لم نلجأ إلى الجناية أو التجني، ومن ناحية أخرى لم نأخذ أو نعتمد في دراستنا هذه على ما يدور في الأفواه.. وأحاديث الجلاس والسمار... لأن ذلك موضوعه الدراسات الأدبية الشعبية لا الدراسات التارخيية المحضة.. وإن كانت الدراسات للآداب الشعبية تكون سنداً وعوناً للدارس في رحاب التاريخ والمتجوّل في جنباته، ولم نحاول الاطناب.. بل الإيجاز بمقدار، لأنها الدراسة الأولى من نوعها عن الفارس «غومه المحمودي» المجهول لدى القارىء العربي في شتى بلدان أمة العرب.

من أجل توضيح الصورة التي شوهت.. وإبراز حقيقة طويت وتقديم فكرة صادقة عن الفارس الذي تكاد تلتهمه أودية النسيان وتغمره أكداس الأساطير.. سطر القلم بضع مقالات سنة 1955 ونشرت ثم حالت أسباب وشواغل دون مواصلة البحث.

وسمعت بالمقالات دارسة انجليزية هي السيدة أوليفر بروجان «Oliver Brogan» وهي مساعدة أستاذة محاضرات في جامعة كامبردج ببريطانيا.. وجاءت ترغب في ترجمة المقالات لأنها مشغولة بدراسة هذه الفترة من حلقات التاريخ الليبي، وتقوم بجانب هذا بالتنقيب والدراسة في آثارنا بالصحراء وخاصة آثار وإطلال «قرزة» ونقوش كهوف الأودية والجبال..

ومن العجيب أن الأستاذة «أوليفر بروجان» لها جولات في تاريخنا وشغف بحركات الفرسان في الصحراء الليبية في القرن التاسع عشر ونشرت في الصحف الانجليزية بضع مقالات..

فهل انطوى تاريخ الفارس؟..

.. رب الدار أولى بما فيها.. لا بأس أن نشمر عن ساعدنا..

غومه شخصية مثيرة..

وحياته طويلة عريضة.. فيها إضاءة.. وحيوية.. وبها حركة ووثوب.. وإن اختلفت بعض المقاييس والمفاهيم والنظريات حسب الأجواء والتطور الاجتماعي أو السياسي؛ إلا أن الجوهر والفكرة لفرسان الصحراء كانت في مضمونها وحافزها ذات معنى كريم من أجل الحرية.. والمطالبة بالإصلاح.. والدفاع عن حق المواطن في أرض آبائه وأجداده.. واقتصرنا في هذا الكتاب على الحقائق واعتمدنا على تاريخ الوقائع والأيام والمعارك والأرقام...

ومع هذا فحياة «غومه» تصلح من جوانب أخرى أن تكون مادة قصصية لمعالجي فن القصة.. ويمكن استغلالها للمسرح للمهتمين بشؤون المسرح..

بل تصلح أن تكون رواية سينمائية ذات إثارة وتشويق.. وبالتالي تصلح أيضاً أن تتكون منها موضوعات لدراسة الشعر الملحون والأدب الشعبي.. ولا سيما أن «غومه» كان أديباً مبرزاً من أدباء الشعر الملحون والملاحم الشعرية..

وتصلح أيضاً حياة غومه أن تكون موضوعات لدراسة الأجواء السياسية التي كانت محيطة بتلك الفترة القلقة في القرن التاسع عشر..

إن حياة غومه وفرسان الصحراء في الواقع هي مادة دسمة لدراسة التاريخ والأدب والفن الشعبي في ليبيا...

وغومه شخصية بطولية ذات خصوبة وأبعاد مترامية وجوانب مثمرة.

نقدم اليوم للقارىء العربي هذا الكتاب الذي يتناول حياته ويصور معاركه وحركاته..

وعسى أن نكون بهذا قد أسهمنا في إحياء المكتبة الليبية التي ما زالت في مسيس الحاجة إلى مجهودات متواصلة وأقلام مخلصة..

علي مصطفى المصراتي



حركة غومه

دوافعها - أجواؤها - آثار ونتائج - ملاحظات وملابسات

عند عودة الحكم العثماني إلى طرابلس يوم 27 محرم 1251 هـ. الموافق 1834 م. بأسطول يصحبه الفريق «نجيب» باشا الذي صحب معه فرمان بتعيينه حاكماً لطرابلس الغرب. . . وأمراً بتهدئة الأحوال التي أخذت تضطرب في الفترة التي زالت فيها معالم دولة «القره مالليّ». .

من الإنصاف أن نشير أن الأسطول والجيش والوالي العثماني الجديد كانوا قد صحبوا معهم وفداً من طرابلس. . كان قد قدم عريضة إلى السلطان يطلب منه ضم البلاد إلى ظله ورعايته. . ولكن من الإنصاف أيضاً أن نؤكد أن إرسال الوفود في تلك الفترة القلقة كان أمراً سهلاً. .

وقد يكون أمراً مدبراً وحيلة من حيل السياسة، ولوناً من ألوان المظاهر المبررة لتلك الخطوة.

وشتان بين الوفد الذي أُرسل من طرف الشعب أثناء هجوم الإسبان على البلاد سنة 916 هـ الموافق 1510 م وسارعت تركيا آنذاك بإرسال رجل غيور يكتب تاريخه بمداد الذهب بل كتبه هو بمداد الشهداء. . «طرغود» وأرسلت قبله القائد الحازم «مراد» الذي عمل مع الشعب لطرد قوات الإسبان المعتدين.

إن أمثال هؤلاء الأبرار يعتبرون في تاريخ البطولات الإسلامية من القمم العالية ومن مفاخر آيات الوطنية والبطولة. .

شتان بين عهد هؤلاء الأبطال المغاوير. . وبين عهد الولاة الباشوات

الذين بدأوا بنجيب باشا وعشقر وغيرهم من الذين امتاز عهدهم بالقلاقل والانتفاضات الشعبية.. وتوالي الحركات.

فهناك عهدان:

العهد العثماني الأول.. فيه رجال قاتلوا وجاهدوا في سبيل الله والوطن الإسلامي.

والعهد الثاني... فيه شدة وضغط وإرهاب... وضرائب تجلب من الشعب بالسوط ورشوة مؤلمة وكبرياء مزيفة.

وشتان مرة أخرى ومراراً عديدة.. بين الأساطيل التي جاءت بأمثال مراد وطرغود.. والأساطيل التي جاءت بمصطفى نجيب وعشقر وأمثالهم... ولمس الشعب.. وشهد التاريخ.. ودلت الحقائق والوقائع، على الفرق الكبير، بل فرق النقيض.. بين حملة الدفاع الأولى التي أنقذت طرابلس من استعمار وهجمات الإسبان.. وأطماع فرسان القديس يوحنا.. وبين حملة العهد العثماني الثاني الذي اشتهر بالشدة ومظاهر العنف.

- الإدارة والمكاتب والدواوين غاصة بالعثمانيين.
- الوظائف والمراكز لا ينالها عرب مواطنون.
- تأخرت وكادت أن تضمحل الثقافة العربية.. فاللسان العثماني إجباري.
- عنصرية ظهرت في إعفاء جنس دون جنس في الضرائب والجبايات..
- استعمال الشدة ومعاملة الشعب بعنجهية.

فكان من الطبيعي أن تبدو من الشعب علامات التململ والاستياء ثم تظهر بعد ذلك في شكل حركات للمقاومة والتمرد في الصحراء والجبال وأطراف الولاية.. ومن هنا برزت شخصيات مقاومة، وظهر على مسرح الصحراء «غومه» و «سيف النصر»..

ووجدت حركة المقاومة والتمرد تجاوباً وتأييداً في مضارب العرب ومناخ عشائرهم.. فهم مواطنون يطالبون إنصاف المواطن العربي ويريدون المساهمة في

الإدارة.. وتخفيف الضرائب الباهظة التي كانت تمتص ثروة البلاد.. وتلهب ظهر الشعب.

وثار غومه وسيف النصر في وجه الضغط والعنف.

وهناك ملاحظة يجب أن نشير إليها ولا نغفل أثرها ونحن نستعرض حركة غومه.

لو كان غومه اصطدم في حركته المنظمة مع حكام أجانب، بكل ما تحمل الكلمة من معنى، لكانت حركته تمتد على نطاق أوسع وتشتد أكثر.. وتستفحل في شتى أنحاء البلاد..

ولكن صدام غومه كان مع الولاة الباشوات الذين كانوا يمثلون السلطان ـ أمير المؤمنين ـ فكان بمقدار ما يدل على جرأته وفروسيته وسلامة مقصده.. ووطنيته العربية. فهو أيضاً يفسر لنا سبب نطاقها المحدد.. ودائرتها التي لم تشمل مناطق أخرى من البلاد.

ويفسر لنا أيضاً مدى الصعوبات التي واجهها «غومه»، والمشاكل التي جابهته طوال أيام حركته الطويلة، لأن الرأي العام في القرن التاسع عشر كان يرى أن السلطان مسلم، بل شخصية لها هيبتها وقدسيتها.. فهو حامي المسلمين.. وطليعة المؤمنين، والدعاء له فوق كل منبر وجمعة.

وكان الحاكم الباشا يمثله فكيف يصطدم «غومه» معه ويعلن الحرب عليه.

وهنا أيضاً تبدو لنا ملاحظة أخرى تكشف بعض الحقائق وتفسر شيئاً من ملابسات حركة «غومه».

كان «غومه» في رسائله كثيراً ما يحاول أن يثبت ولاءه وإخلاصه.. للسلطان.. وطاعته لأمير المؤمنين وكثرة الدعاء له، وهو يفعل هذا في كل رسالة حررها إلى الجهات الرسمية وفي كل طلب قدمه، لأن ـ الظروف ـ والجو ـ كان لا يسمح بأكثر من هذا... فهو يعادي.. ويصطدم مع الولاة

والحكام والباشوات.. ويشن عليهم الغارة تلو الغارة ويقود الهجوم إثر الهجوم. وفي مطلع القرن التاسع عشر ما كان غومه يقدر على المجاهرة بعدوانه للسلطان العثماني..

وحتى إن صنع ذاك.. وأقدم عليه.. لما وجد أنصاراً وأتباعاً كثيرة، لهذا كان نضال وكفاح «غومه» مسلطاً على حرب الولاة وموجهاً في تعبئته ضد الفساد الإداري.. وضغط التجبر الإداري.

وجدت الدولة ـ من هنا ـ الميدان الفسيح أمامها لتشويه شخصية «غومه» والحط من قيمة حركته.. وهي آنذاك تجند إمكانياتها لتؤلب الناس عليه.. وتراها حركة عصيان وتمرد، وتصور حركته بصورة الشقي الطامع في النهب والسلب.. وحشدت الإدارة كل مجهوداتها المالية والعسكرية والسياسية من أجل تضييق الخناق عليه.. والضرب على أيدي مؤيديه، واستعملت في ذلك أعنف الوسائل.. السجن والنفي.. والتشريد والإعدام.. ومصادرة الأملاك.. وتوزيعها على العساكر.. واستعملت ـ الإدارة ـ أيضاً الإغراء بالمطامع.. وبث الفرقة بين أنصار «غومه» ولجأت إلى سلاح أدبي آخر.. وذخيرة من الذخائر المعنوية فاستعملت في تأليب الناس على «غومه» هذا السلاح: مركز السلطان وما كان يتمتع به من نفوذ أدبي وهالة بين سائر الطبقات.. فأخذت الإدارة تصور الثائر «غومه» بصورة الخارج على السلطان.. أمير المؤمنين، وكان لهذه الإثارة فعل في بعض النفوس.. إما من الخوف.. أو من الاعتقاد الراسخ حسب التفكير السياسي في تلك الآونة.. في مطلع القرن التاسع عشر.

وعندما قام «غومه» بحركته قاصداً الإصلاح، هادفاً إلى رد اعتبار المواطن العربي في بلده.. والمساهمة في تسيير دفة الإدارة، كانت على ما يبدو ـ في طورها الأول ـ تشوبها بعض الشوائب وأحاطت بها تفسيرات وتأويلات..

كان الكثير يظنها حركة دافعها الثأر الفردي..

أو هي مجرد حركة من فارس جريء.. ولد على ظهور الخيل.. ولكن

هل يمكن للثأر الفردي أن يجد تأييد القبائل المتنوعة.. حتى القبائل التي كانت في الماضي تخاصمه.. انضمت معه، وهل يمكن لحركة المطلب الفردي.. أو المأرب الشخصي المحدود أن تستمر حركة منظمة سنوات طويلة.. مهما أوتي من فروسية.. حقاً.. في شوطها الأول.. لم تكن حركة غومه واضحة الهدف، حتى عند المثقفين داخل البلاد ـ على قلتهم في تلك الآونة.. ولكن يلاحظ بعد أن قطعت حركة «غومه» مرحلة هامة وقفزت أشواطاً.. واستطاع الرجل البدوي أن يصمد في ميدان المقاومة، من هنا بدأ المثقفون، وعلماء البلد يفهمونها ويقدرونها.. ويظهر هذا الفهم لا في التأييد السلبي، بل في محاولة ـ وفود العلماء والوجهاء ـ أكثر من مرة في إجراء صلح.. أو الوصول إلى حل وسط..

أو القيام بسفارة بين غومه والوالي الحاكم..

فلو كان العلماء والمثقفون والأعيان يعتبرون «غومه» مجرماً شقياً أو ينظرون إلى حركته على أنها مجرد مطلب فردي ومأرب شخصي، لو رأوا هذا.. أو ظنوه، لما أخذ هؤلاء يقومون بدور الوسيط والباحث عن حل وسط..

بل مما يؤكد تفهم هؤلاء لهدف «غومه» أنه لم يقم عالم واحد أو شيخ من الشيوخ بشن حملة دعائية ضد «غومه». ولو كان صف المشائخ والعلماء واثقين من ـ ضلاله ـ أو فساد هدفه لما ترددوا في تأليب الرأي العام.. وعامة الشعب عليه.. وهذه نقطة هامة يجب أن تلاحظ، وخاصة في فترة كانت كلمة واحدة من العلماء لها وزن وخطورة، في تأليب الناس وخروجهم من دائرة الطاعة ودخولهم في دائرة الطاعة.

وجد الشجعان والفرسان في تحركات غومه متنفساً ومسرحاً لإظهار ما وهبتهم الطبيعة من بأس.. واستماتة في سبيل الدفاع، ولا نكران.. إن مثل هذه التحركات لا تخلو أحياناً من فرسان يحبون المغامرة لذاتها، وقد صحب «غومه» بعض من الذين دفعهم حب المصاولة واللقاء.. كفارس يتلمس ميداناً.. أو شجاع يبحث عن معامرة.

وليس من المعقول أن يكون جميع المساهمين في الحركة على مستوى واحد، وأي حركة مقاومة ـ مهما كان الزمان والمكان ـ يكون جميع المساهمين فيها بمستوى ونمط واحد. . .

ولهذا قد تجد في صفوف «غومه» وفي بعض المعارك بعضاً من الذين قصدهم غنيمة. . أو بدافع كراهية الحاكم. .

أو لمجرد إظهار البطولة والتزيي بزي الفرسان.

ومن بعض النواحي النفسية نلاحظ أن هذه الصرخة والانطلاقة التي قام بها غومه قد وافقت مزاج العربي. . الصولان. . والجولان. . وابن الصحراء بفطرته مغامر. . عاشق للفروسية، تواق إلى الحرية والانطلاق الفسيح.

ومع الأخطاء. . أو المآخذ والعيوب التي قد تلمسها في بعض الجوانب وأنت تستعرض حركة غومه فإنها حركة تحررية. . وصرخة إصلاحية. ودعوة في سبيل إنصاف العربي. .

وعندما ننظر إليها بعين الإنصاف، مقدرين عدة عوامل، ملاحظين الظرف والوقت اللذين قامت فيهما في القرن التاسع عشر في مطلعه. . في رقعة بعيدة من الصحراء. . والعالم العربي كله بلا استثناء هامد ساكن جامد. . كالعير والوتد يرضخ هذا للضرب. . وذاك للدق.

ولو ألقينا نظرة عابرة سريعة على الحالة الاجتماعية والسياسية والمستوى الفكري والاقتصادي ومدى بلوغ درجة الوعي لدى الشعب آنذاك لأكبرنا حركة تقوم في تلك الحالة مطالبة بحق المواطن العربي. . لأكبرنا مقاومة «غومه» في حركته التحررية الإصلاحية.

فلم تكن هناك ثقافة منتشرة بين طبقات الشعب.

ولم تكن هناك صحافة في البلاد تؤيده وتنشر وقائعه.

بل لم تكن صحافة أوروبا تهتم به كثيراً سوى نتف يسيرة، أو من خلال تقارير القناصل المشبعة باتجهات مختلفة حسب أهواء القنصل الـذي يمثل

دولته.. هذه نافذة كانت تخرج منها أخبار حركة غومه، ولا تصل إلى الخارج إلا مبهمة مقتضبة.

ولم تكن هناك إذاعة في العالم.. بل إن السنيور ماركوني مخترع الراديو لم يولد ولم يتزوج أبوه بأم ماركوني.

وبالتالي لا محافل.. ولا منظمات دولية.. ولا أحزاب.. ولا هيئات منظمة.

وحركة غومه رغم كل هذا تلتهب في الصحراء.. تنادي في هدفها ومضمونها برد اعتبار المواطن العربي في بلده..

متى؟.. في القرن التاسع عشر وفي أوائله!.

لهذا انحصرت مقاومته وصداها داخل البلاد.. وإن كان بالطبع لها صدى قوي آخر في طرف آسيا.. في عاصمة الخلافة بالآستانة.. وفي مسارب بمكاتب الصدر الأعظم..

أو صدى آخر في مسارب وملفات وزارات الخارجية.. بأوروبا.. وأمريكا.. حيث يزود قناصل الدول الغربية وزاراتهم بالمعلومات عن حركة التمرد في جوف الصحراء.. وكان أنشط التقارير ما يقوم بتسجيله موظفو قناصل.. بريطانيا.. وأمريكا.. وفرنسا.. وإيطاليا.. عن طريق قنصلياتهم.. وجواسيسهم ومراسليهم.

حركة غومه عرفتها أوروبا في أضيق الحدود.. وبمنظار قناصلها.. فلم تصل الحركة إلى رجل الشارع في أوروبا.. ولا إلى أقلام الكتاب وصحافة الغرب، حيث كانت معركة يقودها فارس في الصحراء.. ويدرسنا القناصل.. وتتربص دولهم بالبلاد..

عرفتها أوروبا وأمريكا في نطاق الاتصال السياسي القنصلي ليس غير، وعن طريق التقارير والملابسات الخاصة...

وفي نطاق بلاد العرب.. لم يعرفها الشرق العربي بالمرة.. وما كانوا يعلمون عن «حركة غومه» شيئاً..

إنما عرفها الشمال الإفريقي لقربه من أرض المصاولة.. ولاتصال «غومه» بتلك الأنحاء، ولاتصال صحراء المغرب بصحراء ليبيا وكثرة التنقل ومرور القوافل بشكل منظم؛ ثم لهجرة «غومه» أو لجوئه فترة من الزمن في تلك الأصقاع...

ثم ما زالت إلى الآن وبعد مرور هذه الأجيال ـ قصص «غومه» وأشعار «غومه» تتردد في البادية المغربية.. وخاصة في أطراف تونس والجزائر. وليس من عجب عندما نعثر في نشرة فرنسية في حوليات ما أسموه ـ الجامعة الجزائرية ـ التي تصدرها فرنسا.. على بحث وصورة من الشعر الشعبي في الجزائر.. ثم نرى مقتطفات من شعر غومه في الحولية التي تصدرها فرنسا.. عن هذا الطريق.. طريق المغرب وصحرائه عرفت حركة «غومه» في هذا النطاق.. وبذلك المنظار.

تداخلت الإشاعات.. وعناصر الأسطورة.. والإعجاب الفطري بالبطولة، وأثّر كل هذا عند السمار والقصاص الشعبي لنقل «غومه» إلى أفق تكاد أن تبعده عن دنيا الحقيقة.. وتضيفه إلى خوارق العادات.. وناهيك بفروسية في الصحراء.. وبطولة نادرة.. ومقاومة عنيفة يتناقلها الرواة المعجبون.. ولا تزال مورداً خصباً.. وحديث الكبار والصغار.. ومضرباً للأمثال الشعبية في تلك المناطق التي شهدت معاركه..

وعند تخطيطنا لهذه الدراسة الموجزة.. لم نعتمد على الروايات ولا الأقاصيص التي امتلأت بها جعبة سمار الليالي في الصحراء. بل كان اعتمادنا على الحقائق التاريخية.. ومصدرنا الوقائع التي سجلها.. أو تناقلها الثقاة بشرط أن تؤيدها الوثائق.

لم نعتمد في هذه الدراسة الصغيرة على حديث الأسمار وكلام المشافهة فقط.. فوحده لا يكفي في تمحيص حقيقة.

إنما كنا مع الأرقام.. والوقائع.. والأشخاص الذين سجلوا هذه التقارير في سطور التاريخ.. ومن أراد أن يدرس «غومه» وحركته من ناحية الأدب الشعبي يجد كثيراً من المواد التي قد لا تهم الدارس المؤرخ.. بمقدار ما تهم أهل الفن والأدب، قد يستعين الدارس المؤرخ ويجد فيها صوراً وظلالاً.. ولكنها في رحاب الفن والأدب أكثر بضاعة وأكثر جدوى..

والمهم أن المستمع لبطولات غومه من أفواه الناس يجد الرجل الفارس قد اكتنفته أسطورات.. وأحاطت به مبالغات.. شأن كل بطل تتناوله الألسنة بالإعجاب.. ويحوطه الأدب الشعبي بالإكبار..

من هنا ومن أجل ذلك.. يجب أن نضع خيطاً دقيقاً فاصلاً بين الأسطورة والحقيقة..

وهذا ما حاولناه جادين، فلزمنا في هذه الصفحات جادة التاريخ واستنطقنا الوثائق.. والوقائع.. وما كتبناه هنا وجمعناه حقيقة تاريخية سداها ولحمتها الحقيقة، وليس للخيال أو الأسطورة دخل فيه..

إننا نسطر ترجمة ونصور حركة مقاومة، ولا نكتب هنا قصة. أو ظلالاً من بعيد..

وعلى هذا يمكن أن تشغل حياة «غومه» حيزاً هاماً في الفن القصصي.. وفي شاشة السينما.. وعلى خشبة المسرح.. وما أظن ذلك اليوم ببعيد الذي يلتفت فيه الفنانون إلى هذه الحقائق التي يجد فيها الفن غايته.. وهوايته.

وعندما نؤكد أن حركة غومه كان دافعها تفشي الفساد الإداري.. وتسلط الضرائب والجبايات.. ونؤكد هدفها الإصلاحي في نطاق عام لسنا في هذا نتجنى على الحقيقة.. أو نفتئت على الواقع، أو نحاول أن نجعل من الحبة قبة.. كلا..

فما كان هدفه في لقب.. أو مشيخة.. أو برنس.

فقد كان شيخاً لقبائله قبل أن يعود الحكم العثماني بثلاث سنوات أو

يزيد.. وحاز «برنوساً» أكثر من مرة.. وأعطي لقب «باش توبجي».

ولكن قد تلاحظ في بعض رسائله.. طلب وظيفة..

حقاً هذا موجود في بعض الرسائل.. ولكن.. لماذا؟. وكيف، ومتى؟.. كان ذلك في أواخر الشوط.. كي يفتح طريقاً للمفاهمة.. وعندما يكون ـ وهو العربي المواطن ـ في الإدارة قد يصل إلى تحقيق طلباته بأقرب وسيلة.. وأسهل من الميدان..

هذا من ناحية..

ثم هو عندما طلب مركزاً كان يرى ذلك حقاً من حقوقه المسلوبة منه، فقد زج به في السجن عندما كان في مركزه الإداري وكان في عضوية مجلس الإدارة..

فكان من الطبيعي والحالة هذه ـ أن يوضح في رسائله حقه الفردي المسلوب منه.. بجانب حق المجموع ومطالب الشعب التي دافع عنها، وهو في كل رسالة يشير إلى حق المجموع ويختم بمثل هذه العبارة: «ما أريد إلا الإصلاح».

وعندما تتاح لك فرصة الاطلاع على مجموعة من رسائله فإن طلب الوظيفة يفهم عند ذاك لماذا سجله بجانب الطلبات الإصلاحية الأخرى.

فهو في مكان المقارعة بالحجة.. وإعطاء الدليل على هضم حقوق العرب أهل البلاد.

ومن الجدير بالإشارة ـ وما أكثر الجدير بالإشارة في حركة غومه ـ اعتزاز الرجل بلغة بلاده.. واعتزازه بمقوم من مقومات عروبته؛ فهو يحرر كتاباته ورسائله التي يوجهها إلى الوالي العثماني بطرابلس بل حتى الرسائل التي يوجهها إلى السلطان باستانبول يحرر كل ذلك باللغة العربية..

مع أن اللغة الرسمية للمكاتبات والمخاطبات والدواوين والمراسلات كانت في تلك الأعصر هي اللغة التركية..

وإصرار «غومه» على التحرير والكتابة بلغة بلاده يعتبر صورة صادقة من صور اعتزازه بقوميته..

وذلك ليس بالشيء اليسير في تلك الآونة..

وعندما نستعرض حركات فرسان الصحراء.. ومقاومة غومه نلقي بسؤال يبحث عن جواب..

وما أكثر الأسئلة.

وما أكثر الأجوبة التائهة!.

سؤال لعلنا نجد في الجواب عليه ظلالاً توضح تلك الفترة في القرن التاس عشر:

ترى هل كان يضير المسؤولين من حكام ذلك العهد لو فكروا في حركة «غومه» و«سيف النصر» ومطالب الإصلاح تفكيراً جدياً بعيداً عن عوامل الغطرسة والسيطرة، والتقوا مع هؤلاء المقاومين ولو في منتصف الطريق؟... أو وجدوا حلاً عن طريق الاستقلال الذاتي مثلاً، كما فكر قبلاً ومنذ قرون العباسيون حيث سمحوا للأغالبة بتكوين كيان في الشمال الإفريقي.. مع ربطهم بدار الخلافة في بغداد.. وممارسة أهل البلاد لشؤونهم الداخلية..

كان حلاً سياسياً عملياً يوفر كثيراً من المتاعب.. أو كما شاهدنا في التاريخ السياسي القريب.. في القرن العشرين وفي مطلعه.. بعض الدول الكبرى التي تميل إلى السيطرة والاستعمار تربط بعض الشعوب بعجلاتها عن طريق الاستقلال الذاتي.. أو الحرية المحلية..

وقد تنتج هذه الخطوات.. أو المراحل إلى حد ما.. حتى ينضج الوعي.. وتتضح معالم الطريق.. وخطوط النهضة.

ترى لو فعل المسؤولون في ذلك العهد العثماني شيئاً مما فعلته بغداد مع الأغالبة... أو فعلته عواصم أوروبا مع بعض البلدان في آسيا وإفريقيا في فترة من فترات التطور السياسي.

أما كان هذا الصنيع أوفر للدماء.. وادعى لبث الأمن.. وروح التفاهم والتقارب..

لو صنع المسؤولون في الآستانة ذلك.. أو نزل حضرة الصدر الأعظم من عظمته قليلاً... أو لو انخفض «الباب العالي» قليلاً.. لوفر كثيراً من ضحايا الصحراء.. ولكسبوا في صفهم «غومه» و«سيف النصر» وغيرهم بدل الشدة.. والحدة..

ولكن الولاة في طرابلس الغرب.. كانوا لا يعيرون هذه الفكرة قابلية.. لأن لهم السلطة.. مطلق السلطة.. ولأن هناك عوامل أخرى.. وما أكثر العوامل.

قلنا عوامل.. وهي ذات أخطبوط منوع تتدخل بشكل مريع، حتى أوجدت الهوة السحيقة.. عوامل منوّعة منها..

الرشوة.. الدائم القديم

السوط.. لغة العنجهية

سماسرة السوء.. آفة الآفات

تلك الرشوة التي تجعل بعض الولاة تتسع حلوقهم.. وخزينتهم تتفتح والسوط الذي تعودوا به إلهاب الظهور حتى تمتد يدها بالجباية.. وتقدم الطاعة.. وتطرق برأسها.. وترفع عقيرتها وتحرك لسانها بالدعاء.. وفي القلوب دعوات أخرى.

ومنها قصة الشباك حيث كان جباة الضرائب يسوقون الشعب في شباك ويحملونهم على جمال.. أو جراً على الأرض إن أخروا دفع الضرائب.. الشبكة التي ساقوا بها كثيراً من سكان الصحاري، لا يزال الناس يذكرون قصتها.. بالتواتر.. والمشاهدة..

بجانب هذا

قلنا سماسرة.. تجار الوشايات.. الذين يهمسون في الآذان.. ويتزلفون

على حساب المساكين. على حساب الرعية الجريحة.. همازون مشاؤون.. سعاة بالشر.. حملة القماقم والمجامر يطلقون البخور في ركاب الحاكم.. ويصبون في أذنيه الثناء.. ويقدمون له خمر الغرور في كأس.. كأس براقة خلابة ملوّنة.

ويزعمون أن أولئك الفرسان ما هم إلا عصاة متمردون.. أدِّبوهم.. أملصوا آذان الجناة.. علقوا على المشانق.. يصفى لكم الجو..

هذا من العوامل التي يجب أن تلاحظ عندما نستعرض حركة «غومه» ونتلمس الأجواء التي قامت فيها..

وهناك أيضاً شيء آخر يحسب له حساب.. ولا يغيب من الحسبان، عندما نستعرض تلك الأجواء.

شعور آخر أو عامل نفساني له أثر كبير.. ذلك أن أكثرهم ـ أي الولاة الباشوات ـ كان يتولى منصب الولاية عن طريق المزايدة السرية في سراديب الأستانة.

المزايدة فيها يدفعه راغب المنصب وكأنه يأخذها ـ أي الولاية ـ مقابل أكياس يدفعها في بورصة السياسة.. أو بورصة الطمع، وكان بعضهم يدفع ويحوز هذا المنصب ليدفع عن نفسه شراً ويتقي لهباً أو شرراً..

وصنف آخر من الولاة الباشوات.

أمره أعجب،

كانوا يطوحون بهم لتولي الولاية خوفاً من سيطرتهم أو قوة شخصيتهم في محيط الخلافة.. ولهذا يتخلصون منهم بالإبعاد إلى الجزر النائية البعيدة.. والأماكن السحيقة.. اليمن السعيدة.. أو حتى البلد الأمين الطيب المبارك.. المدينة المنوّرة.. أو واحات فزان.. وجبال برقة وطرابلس.

فهل يفكر هذا الباشا الذي دفع رشوة وقدم أكياساً ذهبية، أو ذاك الذي حصل على المنصب بواسطة.. أو الصنف الآخر الذي قذف به بعيداً مغضوباً

عليه.. هل يفكر هذا الصنف أو ذاك في أن يرسم برامج إصلاح.. أو تخطيطاً عاماً.. والحال أنه قد شغلته نفسه بالتخطيط الخاص.. والتفكير في أمر نفسه؟..

لهذا لم يعيروا حركات «غومه» و «سيف النصر» ومطالب الشعب.. وصرخاته.. إلا أذناً صماء.. وأصبغوا عليهم نعوتاً مثل.. أشقياء.. مجرمين.. قطاع طرق.. لصوص.. مع أنهم مواطنون.. طلاب حق.. وحق مشروع كان يمكن تحقيقه بسهولة.

وحتى لو فكر والٍ في العهد المذكور في الإصلاح.. عملت أيادي الدسائس في الآستانة فعلها وبادروا بعزله..

ولنا أن نسأل.. أي شيء ميز حركة «غومه» عن غيرها من الحركات.. ثم هل أتت بنتيجة؟؟

وتدل الوقائع على أن حركة غومه وبصفة عامة الحركات الشعبية الأخرى التي كانت تقوم في مختلف مناطق الولاية.. أو العمالة.. والأيالة.. كما كانت تسميتها..

كان لها أثر من شتى الأنحاء.

ولا ننكر أنها كلفت الشعب كثيراً من الضحايا.. وذهبت بفرسان وشباب.. واجتاحت آثارها الدامية الأمة أمداً غير قصير.. ربع قرن متواصل ويزيد..

أعاصير.. وتيارات... وزعازع..

ومع هذا رغم المؤاخذات أو المثالب فإن حركة «غومه»، من الجهة الغربية، وحركة «سيف النصر» من الجهة الشرقية في طرابلس امتازت عن حركات المقاومة الأخرى التي كانت في تلك الآونة بأنها:

أطول مدة استمرت.

أكثر تنظيماً.

قوة الصدى والتجاوب.

وضوح الهدف وبروز المطالب.

اهتمام قناصل أوروبا بها.

وأهم طابع يميزها مطالبتها بالإصلاح.. وإفساح المجال للمواطن العربي.. هذا المجال الذي كان محظوراً عليه.. ومنطقة محرمة لا يستطيع الوصول إليها.

قد نكرر التساؤل.. وعلى ضوء الأسئلة تتضح حقائق كثيرة: ما نتائج «حركة غومه».. ما الفائدة التي جنتها البلاد من مقاومته؟!

وهناك بالطبع نتائج مباشرة.. ونتائج غير مباشرة فبفضل حركة «غومه»:

وجد وعي بين القبائل وشطوط الصحراء..

بعد أن كانت المصاولات والإغارات على بعضهم، والقتال من أجل السيطرة القبلية، حشدت هذه الجهود، وصبَّت في ميدان المطالبة بالحقوق، وغدت مقاومة من أجل هدف وفي سبيل مبدأ، ورأينا كيف أجمعت القبائل واتحدت في صف واحد تؤازر بطلها «غومه» في كفاحه الخطير. وتمده هذه القبائل بالمال والرجال.. وتسانده في أحرج الساعات وأعنف المعارك.

فهذه الروح.. روح التجمع حول هدف.. ونحو فكرة قومية أثر ليس بالشيء البسيط أو السهل.. وهو في جوف الصحراء في تلك الأنحاء، أثر من حركات «غومه» في نطاق الحياة الداخلية أو المظهر الاجتماعي.

وهذه الحركة.. بعد فترة من الزمن ـ جعلت سير الأمور في الجهاز الإداري يتحسن نوعاً.. حتى اضطر ولاة الأمر في أبراجهم البعيدة.. وفي أوج سلطتهم تحت إلحاح هذه الحركات ومثيلاتها.. أن يراعوا مطالب هؤلاء المواطنين.. فنشأت بعض الخطوات أو المحاولات الإصلاحية، وإن كانت في

نطاق محدود ـ إلا أنه بلا شك ـ يعتبر من أكثر من ناحية نصراً لحركة غومه وفوزاً لأنصاره. . ونجاحاً ـ نسبياً ـ لمبادئه التي كافح من أجلها. . ونزل الميدان لتحقيقها.

وتظهر صورة من الانتصار والفوز ـ في تبديل عناصر الولاة الباشوات. . من أشداء متغطرسين أمثال «عشقر». . سامحه الله ـ بولاة آخرين على جانب من اللين، وميل إلى روح التفاهم أمثال. . نامق. . ورجب رحمهما الله. .

وإن كان بين الفريق المتغطرس والفريق الآخر الوديع. . فترة طويلة. . وأمد ليس باليسير إلا أن هذا التغير في النظرة والإدارة. . كان من آثار الحركة وتحت إلحاح طلبات الشعب. . والشكاوى التي أخذت ترد تترى بصورة منظمة على دار الخلافة. .

وإن كانت ظاهرة عدم الاستقرار ـ لازمت الإدارة من حيث سرعة إبدال الولاة.

فلم يدم والٍ مدة طويلة سوى «رجب باشا» الرجل الوديع. ولا شك أن الاستقرار فيه فائدة كبرى لأصحاب المشاريع الإصلاحية وهذه الحقبة بطولها وعمقها. . من أكثر فترات التاريخ الليبي زعازع.

أعاصير الصحراء. . وأنواء البحر.

انتصرت أهداف «غومه». وبعد فترة. . بدأت الولاية تنظر إلى أبناء البلاد بعين الاعتبار ـ نوعاً ما ـ فجعلت الإدارة. . حينذاك لمشائخ كل منطقة من البلاد مكاناً منظماً يجتمعون فيه سنوياً ـ في شبه مؤتمر ـ مع حاكم المنطقة العثماني للنظر في شؤون الأقاليم ودراسة الشكاوى المقدمة من الأهالي والإدلاء بالآراء. . وعرض المقترحات. . ومناقشة الحلول. . وكان ذلك أشبه ما يكون بأنظمة مجالس البلدية. . أو مجالس المديريات المعروفة في بعض البلدان الشرقية.

أخذت الإدارة من شباب البلاد الذين أتموا مرحلة في مدارس طرابلس

في بعثات دراسية إلى استانبول. . مما كان له أثر في الحياة الاجتماعية والتطور الثقافي.

كما عين من هؤلاء الذين أتموا دراستهم باستانبول ضابطاً ومأمورين وكتبة، وبدأ العنصر العربي يأخذ مكانه في الدوائر والوظائف.

سويت طرق. . ومعابر داخل العاصمة وخارجها سنة 1283هـ.

نظمت شؤون البريد والمواصلات التي كانت غير منظمة.

فتح باب جديد للثغر من الجهة الغربية لعمران تلك الجهة وتسهيلاً للمواصلات بين سكان مدينة طرابلس وأهل المنشية والضواحي.

ربطت الأودية. . وجهزت ترع وسواق جرى فيها الماء لتروي المزارع. . ونرى مثلاً من بعض الإصلاحات في عهد «علي رضا» يوجه اهتمامه إلى شؤون الزراعة والتنظيمات في الشوارع والميادين، فينشىء ساعة كبيرة ويوسع الميدان. . ذلك الميدان الجميل. . ولا تزال تدق إلى الآن. . في ميدان الساعة بطرابلس.

كما اهتم بمورد من الموارد الاقتصادية للبلاد. . نبات «الحلفا» وأنشأ له مراسي وأنظمة. . ثم في عهد أحمد عزت «1296 هـ 1878 م» تأسس مكتب الفنون والصنائع الإسلامية الذي اهتم بالصناعات وآوى الأيتام. . وتخرج منه صناع مهرة. . وطبقة من الشباب المثقف.

ولا تزال مدرسة الفنون والصنائع قائمة إلى الآن. . وكان لها مجلة فنية خاصة بدراسة العلوم وتطور الفنون. . ولها مطبعة كبيرة.

وقد شيدت المدرسة بأموال الشعب. . ومجهودات الشعب وأوقاف أهل الخير، غير أن الإدارة في العهد العثماني عنيت بها واهتمت بشؤونها من غير شك. . وأسس أحمد عزت:

مستشفى للغرباء.

وأصلح وشيّد بعض القلاع.

كما خطط سوق الحميدية.

وجاء بعد أحمد عزت مغلق من مغاليق الباشوات ـ الفريق وصفي ـ سامحه الله ـ فأمر بإغلاق مدرسة الفنون والصنائع، وجعلها مخزناً لتموين العساكر. ثم فتحت المدرسة في عهد آخر.

ومن نتائج وآثار حركة غومه، سواء النتائج المباشرة أو غير المباشرة.. إشراك المواطنين العرب في الإدارة، وإن كانت ذات صبغة خاصة.. ولهجة خاصة.

وفي المجال الاقتصادي، إعفاء من الضرائب.. أو تخفيفها.. وإزالة ضريبة «الطاقية» التي كانت وصمة سخرية.. فقد كان المواطن يدفع على رأسه ضريبة.. رأس الآدمي.. كرأس الحيوان بالعدد.. عليه مكوس.. وجبايات.. كم رأس في المنزل.. وكم رأس في الزريبة والحظيرة، وقد أنف العرب من هذه المعاملة.

وفيما بعد.. بعد فترة من حركة «غومه».

أنشئت مطبعة للولاية ـ طرابلس غرب...

تعديل النظام المتعلق بشؤون الإدارة.. والألوية.. والمتصرفات.

أقرت الولاية مشايخ القبائل العربية رسمياً في حكمهم فاعتبروه مكسباً أدبياً لهم.

رتبت للمشايخ والأعيان في الصحراء مرتبات.. وقدمت لهم البرانيس المزركشة، وأهدت إليهم سيوفاً محلاة بالفضة.. بدل مطاردتهم وإهدائهم سيوفاً في مثار النقع.

أعفت المشايخ ورؤساء العشائر من الضرائب، وجعلت لهم الإشراف على الجباية السنوية المفروضة على القبائل من الصحراء.

فما عاد يطاردهم عتل زنيم بلهجة فيها عنجهية.. بل موظفون من أبناء جلدتهم وقبيلتهم.. وهم أدرى بأحوال بلادهم.

من نتائج حركة «غومه» وفرسان الصحراء:

ما أوجدته من روح الاعتزاز بالوطن.. وما بذرته من بذور القومية في أرض خصبة للكرامة.. فولدت في النفوس لهيب الثقة بالعروبة..

بعد أن كانت الشخصية العربية في أطراف الصحراء والبلدان تكاد أن تظهر في ثياب الخنوع.. وتتلاشى في أساليب التزلف والاستسلام لعنجهية المسيطرين..

ونبهت هذه الحركات «السلطان» وأعوانه إلى أن من الخير الالتفات إلى هذه الأنحاء القاصية.. والتي كانت تعد مورداً للضرائب.. وجلب جبايات.. وأخذ أعشار.. أو هي من ناحية أخرى.. أماكن سحيقة تصلح أن تكون منفى يرسل إليه المغضوب عليهم والضالون..

بصفة عامة، هي في نظرهم مجرد رقعة في مساحة الأمبراطورية الواسعة.. ولكن تحركات «غومه» وانتفاضة سكان الصحراء، أفهمت الدولة العثمانية شيئاً جديداً.. ونبهت أذهاناً كانت غافلة، وصححت مفاهيم خاطئة.. وهزت كبرياء الأمبراطورية.

وأدرك هؤلاء أن ليبيا وصحراءها ليست مجرد رقعة.

وليست مورداً للضرائب فقط.

وليست منفى سحيقاً فحسب.

بل.. بها فرسان ومقاومة عنيفة وأهداف ومطالب في سبيلها يتحملون الصراع العنود اللاهب..

لهذا ـ بعد هذه المصاولات.. ومرارة كفاح «غومه».. وفرسان الصحراء، وبعد فترة من الفترات.. وجهت السلطنة عنايتها ـ بعض الشيء ـ

وأخذت بعين الاعتبار تبدل نظرتها إلى هذه الرقعة الهامة والجسر الحيوي. . فبعد انتهاء حركة «غومه» بثلاث سنوات تشاهد البلاد عناية بالشؤون الزراعية. . وهذا «محمود نديم» 1277 هـ 1860 م يوجه عناية بالصناعات المحلية البدائية. . وزراعة الزيتون في أنحاء ترهونه. . يغرس آلافاً من هذه الشجرة المباركة.

وتشعر «الآستانة» أن فرسان الصحراء كانوا على حق في مطالبهم. . وبلادهم جديرة بأن تكون حقلاً تغرس فيه شجرات ذات ظل ورواء. . فيرد فرمان عالٍ. . وذلك بطلب وتحت ضغط من الشعب، بتشكيل «الإيالة» إلى «ولاية».

وإنشاء نظام يقترب من العدل والإصلاح الجدي خطوات. .

ولم يحقق كل المنهاج الذي طلبه المقاومون في الصحراء. .

وما عاد الشعب يتحمل هذه الفوارق. .

وخشوا أن تخرج الصحراء «غومه» جديداً.

فما زال أبناء العرب مبعدين عن المناصب الهامة في بلادهم. . وأرضهم. . ليس لهم ضلع في شؤون الإدارة. .

من هنا. . من أجل ذاك. . وكنتيجة غير مباشرة لحركة «غومه» وبعد مقتل «غومه» بحوالي ست سنوات. . .

من هنا وكنتيجة. . أو صدى لحركة المقاومة الشعبية، نرى ظاهرة جديدة وأشياء تبدو في الأفق. . ها هو موكب يجمع العلماء والأعيان والوجهاء وأهل الرأي. . والمشورة. .

وتضرب المدافع. . مدافع تحاول أن تعلن عن عهد جديد ولتفتح سطراً للمصادر العثمانية لتقول. . «. . ثم باشر بتوزيع الوظائف على مقتضى أحكامه. . ووضع مجالس الجبايات والحقوق. . والتجارة وفق نظام جديد». وهناك بعض إصلاحات في الفترة التي بعد انتهاء «غومه» 1856 م 1273 هـ

وهي حسب التقسيم الإداري.. أو الحالة السياسية تعتبر فترتين.. من انتهاء حركة غومه حتى عصر إعلان الدستور العثماني 1908 م و 1326 هـ، وهي فترة طويلة حوالي خمسين عاماً.. نصف قرن بأكمله.. كانت الإصلاحات مجرد محاولات.. وشيئاً من اللين في المعاملة..

تارة تظهر المشاريع الصغيرة بمظهر الجد.. وتارة.. تهتز ريشة التخطيط حسب الأصابع التي تمسك بها.. فترة فيها صور من القلق.. وعدم الإنتاج المركز.. ولكنها أحسن بكثير من الفترة التي قبل حركة «غومه». ولكن هناك فترة أخرى، بعد إعلان الدستور العثماني 1908 م.. بدأت نهضة، وأقول نهضة وأضغط على الكلمة.. وأودُّ أن أبرز حروفها.

ففي هذا العصر وجدت شخصية للبلاد.. وانتشرت الثقافة.. وتبلور المجتمع الليبي. وعلى المسرح ظهرت شخصيات لها أثر في المحيط الفكري.

ونشأت صحافة.. وراجت طباعة، وتخرج ضباط.. ورقيت الصناعات المحلية في حدود الإمكان.

وأجريت انتخابات لمجلس المبعوثان.. ومارس الشعب حقه في الحرية، وبرز خطباء.. وكتاب، ومدارس، وسبع صحف ومنتديات.. وجمعيات.. وهذه الفترة من أزهى العصور العثمانية في ليبيا.. ونحن لا نغمط الحقائق: هناك ولاة جاؤوا على جانب كبير من حب الخير والإصلاح.. وولاة آخرون الأكثرون.. كأن قلوبهم قدت من جلمود صخر..

نذكر من هؤلاء الولاة الأكثرين.. «عشقر» الذي شنق سبعين من المحاميد وجلب «سيف النصر» ـ «وصفي باشا» الذي جعل من المدارس مخازن.. ونذكر من الطيبين.. أمثال «أحمد عزت» في مجيئه الثاني، فقد شعر بحاجة البلاد إلى أنظمة علمية ومدارس فأنشأ المكاتب الرشدية وعني بشؤون البريد.. وجلب باخرة أطلق عليها «المولودية» واتخذها للسفر بالمحررات الرسمية وأوراق المداولات التجارية.

قد تكون هناك أخطاء وعيوب.

أو هناك انتهازيون.

أو من لم يفهم الحركة إلا على مستوى فهم البدوي البدائي.

لا يسألون أخاهم حين يندبهم   في النادبات على ما قال برهانا

وقادة الحركة أمثال الفرسان.. «غومه» و «سيف النصر» و «ميلود بن سعيد» أمثال هؤلاء كانوا معذورين مهما تكن الشوائب أو المآخذ التي يستعرضها الناقدون أو المعلقون.. وخاصة إذا راعينا فوارق الزمن.. ومدى بلوغ الوعي القومي والإحساس الوطني.. والمستوى الثقافي في القرن التاسع عشر في صحراء كانت أشبه ما تكون في عزلة صامتة.. وإهمال كلي من الحكام؛ ولم تكن قد وضحت آنذاك ملامح الشخصية العربية في مجالها السياسي والقومي.

ومع هذا ورغم ذاك.

فالحركات الوطنية والنضال الذي قام به أمثال «غومه» كادت أن تضيع معالمها.. لم تجد هذه الحركات الشعبية الدارس المنصف.. ولا الكاتب غير المتحيز بل كادت تطمر في الأضابير وتقارير الولاة.. وتدفن في كثبان الرمال أو صدور الرجال.

كادت تضيع.. لولا ذاكرة الشعب في الصحراء الصامتة.

وهي من أقوى ذاكرات الشعوب.. فما زال الشعب في صحرائه وأسماره يردد هذه الحكايات التاريخية.. ويسجل في أشعاره وأدبه ورواياته.. مواقع البطولات في حركة المقاومة.. رغم مرور قرن ونيف.

يروي وقائعها ويسرد ملاحمها.. تارة بإطناب.. وتارة بإيجاز.

ولكن أين قلم الكتاب!؟.

أين الدارس في ثنايا التاريخ.. المحقق الذي يعطي صورة تاريخية عن هذه الشخصية الغريبة في تاريخها الفذ.

وعندما نكتب هذا الكتاب.. ونسجل هذه الحقائق لا ننسى أن هناك

أتراكاً تعربوا، ومنهم نشأت أسر كريمة في المجتمع الليبي، وهناك ضباط أتراك شاركوا من تلقاء أنفسهم.. متطوعين في الكفاح الليبي أيام الغزو الاستعماري الإيطالي.. مثل إسحاق.. ونوري.. وأنور.. وتمسكت.. وعشرات غيرهم من الجنود، كانوا.. بحق.. مثالاً للرجولة والتضحية ونكران الذات.

كما أن هناك ليبيين أبطالاً استشهدوا في «الدردنيل» ومعارك تركيا دفاعاً عن الحرية.. كل هذا من مظاهر الصلات بين الأتراك وليبيا لا تنكر، وصفحة لا يمكن طيها.. وواقع لا يمكن كتمانه. ولكن هذا شيء، وهذا باب... وقصة مقاومة الضغط في فترات الفساد الإداري.. شيء آخر.. وباب آخر..

وقصة المقاومة الدامية كانت في فترة قلقة وفساد سار حتى في تركيا نفسها.

كانت حركة «غومه» وأمثاله صوراً من الوطنية وضربة موجهة إلى الباشوات الولاة، الذين أساؤوا إلى الشعب وإلى سمعة دولتهم أيضاً آنذاك.

وكما قلنا.. ونكرر.. لا يمكن هدم تاريخ الأتراك في ليبيا بطوله وعرضه وخيره وشره.. بجرة قلم، ولا يمكن أن يكون صاحب القلم المنصف ناهجاً طريقة الشعراء في الهجو والمديح، بل هناك خير في موضعه يذكر..

وشر في مكانه يشار إليه

ومن هذا وذاك.. نريد الحقيقة ليس غير.. وإبراز صفحات فيها حياة.. حياة نابضة..

ظلال دولة

نهاية . . . وبداية

لقد جاء العهد العثماني بعد انقراض الحكم الاستقلالي الذي كان في عهد «القره مالي»، وفي سنة 1211 هـ 1796 م تقلد يوسف باشا . . شؤون البلاد في ظروف دولية وقصة يعرفها دارسو تلك الفترة.

وأطلقت مدافع . . وألقيت كلمات ترحيب، رغم أن أخذه للحكم كان في مسرحية زعزعت البيت وأرعبت سكان القلعة.

ورغم هذا . . بدأ يوسف القره مالي عهده آملاً في الإصلاح . . راغباً في البناء محبذاً للإشادة والتشييد.

شأن كل حاكم تصحبه رغبة . . وتلهبه أمان . .

لولا الأعاصير والبطانات . . والأنواء المعاكسة.

أعاصير الشاطىء . . أو ما وراء الشاطىء.

وأنواء الداخل . . أو أنواء الخارج . .

بدأ يوسف . . يخطو نحو مستقبل زاهر . . ويخط خياله الآمال الفساح، والبلد بحري على ساحل هام في حوض البحر الأبيض.

وكان قد بنى مؤسس الأسرة «أحمد القره مالي» مجداً ودولة . .

فلا بدّ أن يدفعه الأمل إلى زيادة البناء . . وتوسيع هيبة الدولة.

وكان لا بدّ أن تتجه عناية «يوسف القره مالي» إلى بناء الاستحكامات . .

والمحافظة على الشاطىء.. بل دفعته همته وطموحه إلى أبعد من هذا..

غزا بأساطيله.. فأبحرت سفن وأشرعت شراعات..

وانطلقت من موانىء طرابلس ومصانعها أساطيل وأساطيل تحمل معها بحارة مهرة، تمخر العباب وتهزأ بالأمواج.. وتقتحم اللجج..

انطلقت نحو البحر الأبيض المتوسط.

تجوس خلاله.. وتقنص.. وتصيد، وتعود بعد غزواتها مثقلة بصيدها الثمين.. لا صيد تحت الماء.. بل صيد فوق سطح البحر..

سفن تصيد سفناً..

وشراع يقتنص شراعاً..

شيمة ذلك العهد البحري في أوروبا.. وآسيا.. وإفريقيا..

هؤلاء.. إنهم أوروبيون أخذوا الأندلس.. فيرون في صيد سفن أهل أوروبا تشفياً لما في الصدور ومحاولة من سفن الشرق لشفاء ما في النفس، قد يكون هذا من الواقع.

هذا من ناحية..

ثم لا بدّ من جولان وصيد ومد الذراع والشراع..

فالسيطرة للقوي..

ويل للضعيف.. ويل له في الأرض.. وويل له في البحر..

وأنشأ يوسف القره مالي أبراجاً جديدة في كثير من المواقع الاستراتيجية الهامة في سور طرابلس.. وبعض النقاط خارج البلد. وشيد وجدد حائط السور الذي يشاهده الناس اليوم ممتداً قرب قصر الحكومة من جهة البحر... وعملت ترسانة السفن بهمة متواصلة..

فأخرجت ثلاثة عشر أسطولاً جديداً..

من أين له؟.

كيف مورده؟.

إن الجواب على ذلك عند حصيلة الغنائم.. عند خزائنه التي تكدست عندها ثروات من التي كان يجلبها الأسطول البحري.. من الغنائم.. فكانت مورداً من موارد الدولة في عهد «يوسف القره مالي». وبعد أن فرغ من البناء وإرساء قواعد القلاع وتدشين الأساطيل وتحصين الحصون.. اتسعت آماله.. وأمل الدولة..

سيطر على الشاطىء.

وامتدت سيطرته إلى مياه ما وراء الشاطىء.

فرض الضرائب على الأساطيل في البحر.. لقد غدا «يوسف القره مالي» سيداً من أسياد البحر.. وطلب من دولة السويد دفع مبلغ مائة ألف فرنك..

عطية.

لا على سبيل القرض.. ولا على سبيل المقايضة ولا على سبيل الإعارة والتأجير..

إنما على سبيل الإعطاء.. وسفنهم راغمة.. فلتدفع لسيد من أسياد البحر الأبيض، ليس هذا فحسب.. بل ها هو يطلب، أو على وجه الدقة يفرض عطاء مستمراً مبلغ ثمانية آلاف فرنك سنوياً «8,000».. وكان الطلب مقدماً إلى قنصل السويد ليرفعه إلى دولته..

ورفض القنصل...

وبدأت أزمات وسحب على الشاطىء.. وبدت بوادر احتكاك..

وما كان يؤمله «يوسف القره مالي» من تلبية وإسراع.. كان بالعكس.. كان رفضاً وامتناعاً.. وبدت لغة الغزو.. وتحريك الأساطيل، والقبض على مراكب وسفائن رعايا السويد.. وسدت أساطيل طرابلس الطريق على سفائن السويد. وغنمت قوات «يوسف» القره مالي البحرية سبع سفن.. والبقية في

الطريق. كان هناك نابليون بونابرت.. يغزو الشرق ويزحف ويركز حملته في مصر.. على شاطىء النيل.

كان نابليون قبلة الأنظار.. ومحط اعتبار...

لجأت إليه حكومة السويد تشكو أساطيل طرابلس الغرب وغزواتها.. وفي هذه الأزمة المستحكمة بين حكومة السويد وحكومة «يوسف» القره مالي تدخل «نابليون» بونابرت وانعقد الصلح على أساس:

تدفع «السويد» مبلغ ثمانين ألف ـ 80,000 ـ فرنك غرامة أو ضريبة.

وأيضاً مبلغ ثمانية آلاف ـ 8,000 ـ فرنك سنوياً.

إطلاق سراح السفن المقبوض عليها في طرابلس.

يطلق سراح أسرى السويد.

وعقدت معاهدة.. وأبرمت اتفاقية.. وتم الصلح بواسطة «نابليون» الذي كان يملأ الدنيا زئيراً.. ويهزأ بأربعين قرناً تطل من قمة الأهرام.. وهنا ظفر «يوسف» القره مالي بالجولة السياسية..

ثم نجد دولة أكبر من السويد.. أمريكا.. تقدم طلباً بواسطة قنصلها في طرابلس ترغب في عقد معاهدة مثل معاهدة السويد البحرية.. وذلك أن أساطيل طرابلس البحرية كانت تقبض على أساطيل الأمريكان، وتسيطر على منافذ البحر وسطحه.. وشطآنه الواسعة..

وجد يوسف فرصة يود اقتناصها.. وسانحة يود اغتنامها.. فطلب مبلغاً جسيماً يفوق مبلغ «السويد» أضعافاً.. وتدخل قنصل أمريكا طالباً التخفيف والتخفيض.. بواسطة «حسن باشا» الذي كان والياً على الجزائر..

وشأن ذلك العهد.. بل شأن كل الأزمات السياسية على مسرح الصراع الدولي.. بها واسطة.. شفاعات.. تدخل.. رجاء.. توسطت دولة السويد بنابليون...

وتوسطت أمريكا بوالي الجزائر. . .

ورفض «يوسف» القره مالي التخفيف والوساطة، وأصر على طلبه. . بل واستأنف الغزو البحري. . واشتدت الأزمة. . . وتفاقم الموقف. . وبعد أربع سنوات. . وعلى وجه التحديد عام 1217 هـ 1802 م، قدمت قطع الأسطول الأمريكي لميناء طرابلس وحاصرت البلد. . ورموها بالمدافع. . واستمر إطلاق النار بين الجانبين حوالي عشرين يوماً. . ووقعت بعض قطع الأسطول الأمريكي في الأسر. . وأخذتها طرابلس غنائم. . وقفلت بقية الأساطيل الأمريكية نحو مالطه. . وكان هناك في مالطه ـ «أحمد بك القره مالي» الذي كان والياً على طرابلس. . ووجدها الأمريكان فرصة. . لماذا لا يجعلونه طعماً ويدفعونه في صنارة لعلهم يجعلون منه صنيعة أو يجلبون به شيئاً. . ويأخذون أشياء. .

وأظهر الأمريكان لهذا اللاجىء. . أنهم في صالحه. . سيعودون به إلى مقر الحكم. . وما أكثر أساليب الإغراء. . سنة السياسة، وطبيعة المطامع. . واتجاهات المصالح. . . خطوط تبتعد وخطوط تقترب. . وصحبوه من جزيرة مالطة في أسطولهم. . وقدموا به مدينة درنه. . التي أقاموا بها «الحصار» الموجودة أطلاله إلى الآن. .

وطبعاً. . كرجل مسلم. . عربي. . احتفل به أهل درنه. . وقدموا له الهدايا والعطايا. . وحفلوا بلقائه.

وعند ذلك قوي أمل اللاجىء القادم من صخرة «مالطه». . . قوي أمله. . وتطرقت الأنباء إلى يوسف القره مالي. . فتوجس خيفة. . أن الأمريكان يدبرن له مؤامرة. . بالأمس انهزموا في شاطىء طرابلس. . واليوم جاؤوا بحيلة جديدة من شاطىء درنة. . حيلة. . ابن عم له. .

ودبر أمره. . وضرب أخماساً لأسداس. . ثم استشار صحبه وأرسل ولده «محمد بك» في ثلة من العساكر إلى «بنغازي» ومعه رسالة. . إنه يلجأ إلى وسيلة يقنع بها الأمريكان. . ويود أن يفتح طريقاً للمصالحة. . قبل أن يقتحموه. . وانعقد الصلح. .

وأيضاً تدخلت الواسطة التي سبق أن رفضها أولاً إنه. . . «حسن باشا» والي الجزائر يقوم بدور الواسطة الجديدة. ثم هناك واسطة أخرى. . قنصل الانجليز بطرابلس «وارنقطون». وحررت معاهدة. . . بين «يوسف القـره مالل». . والأمريكان. . وعندما توصل الأمريكان إلى تفهم وحصلوا عـلى رغبتهم. . رموا بالطعم الذي سبق أن ربطوه في الصنارة.

لأن الطعم ما عاد مفيداً. . والصنارة التي جلبوها لن تصيد شيئاً، هذا الذي صحبوه من صخرة «مالطه». . ولوحوا له ببارق الأمل. . أغفلوه وأركبوه أسطولهم. . وبلغوا به الديار المصرية. . وكان «يوسف» القره مالي يرغب بإبرام المعاهدة أن يأمن من الإغارات البحرية. . وقلاقل الأجواء السياسية في الخارج. .

ولكن هل يطمئن ويأمن من الداخل؟.

سنة 1218 هـ 1803 م. . . لقد برقت بوارق. . وفي السماء سحب ورعود. . في الصدور زمجرات. . وبدأت في الدواخل حركات. . وتمردات. . حركة من أهالي غريـان. وأرسل إليهم يـوسف حملة بقيادة «الحـاج أحمد الخازندار» وكان على رأس الحركة الشعبية «الشيخ عبد الوافي» سنة 1221 هـ 1806 م. . ها هو أحمد سيف النصر يقوم بحركة. فأرسل إليه الحاكم حملة. .

وأهالي. . «غدامس» امتنعوا عن إعطاء الجبايات لأنها مرهقة وكلفهم الحاكم شططاً. . وسير إليهم حملة عنيفة. .

ثم بجانب هذا قامت حركات وتمردات في الضفة الشرقية والغربية. . سنة 1227 هـ. . طلعت أزمة جديدة. . قنصل «السويد» يتردد ثم يتلكأ في العطاء السنوي. . واضطر «يوسف» أن يفسخ المعاهدة. . وأعلن الحرب. . وندم قنصل «السويد» وطلب المصالحة. . واتفق على دفع ستمائة ألف فرنـك ـ 600,000 ـ.

سنة 1227 هـ 1812 م أيضاً، قامت حركات في فزان وسير إليها حملة بقيادة «محمد المكني».

1231 هـ 1815 م اعتزلت قبائل نالوت.. وساءت الحالة.. وكثرت الديون.. ودبت عوامل الضعف والانهيار في الدولة التي كانت سيدة من سادة البحار..

ديون باهظة.. وميزان اقتصادي مزعزع، وأعاصير في الداخل وتيارات من الخارج.

وإذا كان يوسف «القره مالليي».. بدأ في الحكم قوياً.. طموحاً.. رغم المأساة التي هزت جدران القلعة..

فقد انتهى مجده.. وها هو يشاهد انهيار البنيان بعينه.. ويرى ما صنعه أطلالاً.. هي أطلال.. وهو في وسطها.. وكان للتبذير والإهمال وفساد الأنظمة الاقتصادية دخل كبير في زعزعة حكمه وإطاحة بنيانه.. وتطورت إلى فتن هوج.. وتطاحن سافر من أجل سحر الحكم حتى دب الشجار في الأسرة. والنزاع الذي سيطول شرحه ويتشعب استعراضه.

وكان مطلع ذلك العهد.. ازدهاراً بحرياً.. ونهايته طمع الدول في الاستيلاء على هذه الرقعة الهامة.

ذهب «يوسف»...

وتولى مكانه.. ولده «علي القره مالليي» الذي نرى نهاية حكمه على يد الأسطول العثماني..

المحاميد

أصلهم، منازلهم

ينتمـي «غومه» إلى قبيلة المحاميد التي اشتهرت بالفروسية، وبرز منها عديد من مشايخ البادية وفرسان الصحراء. . وهم ذو كرم ونخوة، شأن القبائل العربية في الوطن الليبي.

هذه القبائل التي تنتمي إلى عروبة خالصة صافية. . والتي برهنت في مختلف أدوار التاريخ على حب صادق للوطن، وبسالة في صد قوات الظلم والاستبداد، وتضحية من أجل الوطن الحبيب. . .

وجاءت هذه القبائل في الموجة العربية التي اكتسحت الصحراء، وكانت معروفة بهجرة «بني هلال وسليم» في سنة 477 هـ 1084 م، وأناخت قبائل «بني سليم» في ربوع برقة وطرابلس وشطوط صحراء فزان. .

وانطلق «بنو هلال» صوب تونس والشمال الإفريقي. .

وبقيت بطون «بني سليم» في أرض ليبيا عديدة وفيرة، ثم اندمجت في الوطن الليبي منذ قدومها في القرن الخامس الهجري. من هؤلاء. على حسب المثال. . لا على سبيل الحصر والتعداد، أولاد سليمان، الرقيعات، العمايم، أولاد معرف، أولاد علي، أولاد جارية، الأصابعة، العلاونة، أولاد قايد، أولاد ذويب، الحسون، المقارحة، البراعصة، درسة، مغاربة، جوازي، السعاوي، عواقير، عريبات، أفايد، عرفا، عبيدات، أولاد علي، عيلة فايد، أولاد أحمد. النوايل، مرازيق. . أولاد بوليل.

هؤلاء.. وغير هؤلاء من القبائل العربية الأصيلة أناخـوا واختلطوا وغدت لبنتهم تكون تراثاً قومياً في الوطن الليبي العزيز..

ومن هذه القبائل.. المحاميد والجواري..

والجواري منها قبائل من «صرمان» مثـل... التبينات، الجـوامعية، الحرايزة.

وفي «ترهونة».. الحميدات، أولاد علي..

والرقيعات أصلهم جواري.. وبقي اسم الجواري إلى الآن في منطقة «صرمان».

وأصل الجواري من أولاد «حميد بن جارية»..

ونرى الرحالة «التجاني» الذي أقام بطرابلس عاماً ونصف يقول عن المحاميد.

«... وانتقلنا من قابس يوم السبت عشر منه بمفارقتنا أرضاً للنوايل ودخلنا أرض إخوتهم الوشاحيين في أرض المحاميد والوشاحيين» ثم يقول:

«والجواري والمحاميد قبيلتان متكافئتان في العدد والقوة، ورئاسة المحاميد في بني رحاب وهم بنو رحاب بن محمود بن طوق ابن بقية بن وشاح..

وشاح ونائل أخوان، وفي وشاح بن عامر يقول الشاعر القديم:

صنعت صنيعاً ضاع في نجل عامر كما ضـاع في الأصنـام واد زرود»

الخ...

ومن القبيلة التي انحدر منها «غومه» فارس الصحراء قام قبله فرسان.. وتحركات.. في عهد ولاية «عثمان الساقزللي». في العهد العثماني الأول قامت حركة مناوأة.. وكان للمحاميد سهم فيها.. وكانت قبل حركة (غومه) بحوالي قرنين «وكان للشيخ نوير» من المحاميد شهامة وبأس.. وقامت حركة شيخ بني نوير حوالي سنة 1080 هـ 1669 م ومن حركات قبائل المحاميد ـ أيضاً ـ قبل

غومه بقرن من الزمان أن الشيخ «أحمد بن نوير» كان قد اشترك في حركة أيام أحمد القره مالِلي، وجاء مؤيداً في جانب خليل الوالي السابق. . كان ذلك في شهر جماد الآخر 21 منه سنة 1123 هـ ـ 1711 م.

ولقبائل المحاميد ـ أيضاً ـ حركات في الجبل ونواحي «نالوت»، ورئاستهم ـ يومئذٍ ـ للشيخ «أبو القاسم، بن خليفة، بن عون المحمودي» كان ذلك سنة 1231 هـ ـ 1815 م أي قبل حركة «غومه» فارس الصحراء. . .

والمحاميد في طرابلس فرعان:

ـ أولاد سعيد بن صولة. . وكان موطنهم. . الرابطة وأنحاء ما بين ككله وغريان.

ـ أولاد المرموري. . وموطنهم الزاوية وصرمان وهذه الأنحاء؛ و«غومه» و«بيري» من فرع محاميد المرموري. .

وكان بين الفرعين. . الأصوال والمرامير ـ شأن حياة القبائل في القرن الثامن عشر والتاسع عشر ـ مصاولات. . ومنافسات. . انتهت بصلح جرى مع «النائب بن سعيد المائل» سنة 1250 هـ ـ 1834 م. وكان «النائب بن سعيد» فارساً مغواراً واتفق مع غومه في سبيل الصلح. .

وجاء «غومه» وهو شاب في أربعين فارساً، وعقد مجلس بالبادية عند شجيرات زيتون معروفة. . وتصافح الجميع. . وقرأوا الفاتحة. ومما يذكره رواة البادية عن أجدادهم الذين حضروا مجلس الصلح أن «النائب بن سعيد» كان مرتدياً «كاط» من الملف الجيد وبندقية منقوشة بالفضة. . وبرنوسه من نوع ممتاز. . به شراريب حرير. . و«غومه» جاء مهرولاً بثوب عادي بسيط. . وبندقية عادية رخيصة. ولما لمحه من بعيد النائب ابن سعيد. . أسرع فلف الحزام الحريري. . والثوب الفاخر وخبأ بندقيته المطرزة المنقوشة. . لف وخبأ كل ذلك تحت عباءته لئلا يتأثر وتجرح خواطر «غومه» عندما يقف بجانبه وهو في حالة دون حالته في الملبس والمظهر. .

دس ذلك لئلا يجرح شعور صاحبه. .

وتصافحا. . وتصالحا.

وخلا «غومه» بصاحبه «النائب بن سعيد» ـ بعد الصلح ـ واتفقا على الود. . وأن ينفرد «غومه» بالرئاسة على الفرعين للمحاميد، الأصوال. . والمراميز. .

وكان في صف هؤلاء أيضاً. . السبعة، أولاد شبل، الغنائمة، الزنتان، الرجبان، أولاد عون، أولاد سلطان، ـ منهم بيري وقاسم باشا، وأبو القاسم السعداوية.

والنوايل. . والعلالقة، وبلاعزه، الرياينة، رحيبات. . .

اجتمعت كلها على الاتفاق والصفاء وعدم إثارة القلاقل.

محلات «المحاميد» منطقة «صرمان»، وفي حالة تنقلاتهم يرحلون إلى «وادي الأثل» ومركزهم المعروف هو قصر بن نيران بالقرب من ـ يفرن ـ.

هذا قديماً. . وفي الحالة الحاضرة. يقيم بعض منهم بصرمان ويطلق عليهم أولاد عون. . وقسم منهم يقطن بالصابرية ويطلق عليهم. . «أولاد سلطان» والقسم الثالث يقطن «قطيس» ويطلق عليهم «أولاد صوله».

والد غومه:

كان الشيخ خليفة بن عون المحمودي، والد غومه على جانب كبير من الجرأة والإقدا. . . والكرم وشهامة العربان. . مسموع الكلمة. . مرموق الجانب في محيطه. . محبوباً من شتى القبائل رغم ما كان ينشأ بين القبائل من منافرات وحزازات. . من أجل الحراثة. . أو التنافس والتزاحم في السيطرة والنفوذ. وكانت خصومات البادية قد تؤدي إلى الهجوم والإغارة.

فكان والد «غومه» في هذه التيارات شهماً. . سمحاً. .

وهذه قصة من طرائف ما يرويه رواة البادية، وتدل على سماحة وكرم.

كان الشيخ «إبراهيم عويدات» من الأتقياء الصالحين، وله ناقة أخذها في إحدى المصاولات شخص اسمه «عبد الهادي».. فتكسر نجعه. وتشتت جمعه..

ثم أخذ الناقة «عون القواس» المقرحي.. فانهزم في إحدى إغاراته؛ ثم أخذها أخوه «مقيق».. فكانت عاقبته الهزيمة، وأخيراً كانت خاتمة المطاف.. ونهاية الطواف.. عند بعض أفراد قبيلة «المحاميد» في أيام مشيخة «خليفة» والد «غومه» فكتب الشيخ «إبراهيم عويدات» صاحب الناقة المأخوذة خطاباً رقيقاً إلى شيخ المحاميد ويقول شعراً ملحوناً يرجوه أن يتوسط لإرجاع ناقته:

عليها شرك صيادي تحت الوبر مدفون
خدت نجع عبد الهادي وزادت «مقيق» و «عون»
هو بنها جتكم غادي وبالأدري كيف يكون!؟

فلما وصل الخطاب إلى والد غومه رد الناقة إلى صاحبها وعليها ما يوفر طعامها..

مكرمة من مكارم شيخ المحاميد..

واكتسب الشيخ «خليفه» نفوذاً وسيطرة في قبائله.. ومناخ عشائره، وكان «يوسف القره مالليِ» قبل أن يصل إلى دفة الحكم راسله، يطلب من شيخ المحاميد التأييد والمعاونة ويقول النائب في كتابه «المنهل»..

...«فصمم على اتخاذ الوسائل الموصلة لأخذ زمام الولاية بيده.. وكان وقتئذٍ الشيخ «خليفة بن عون المحمودي» شيخ قبيلة بني نوير صاحب نفوذ.. فكتب إليه.. فأجابه بالموافقة وأنه مستعد لمظاهرته عند سنوح الفرصة» 303 المنهل.

نشأة غومه

ولد غومه حوالي سنة 1210 هـ 1795 م. قرب وادي الأتل غربي بئر الغنم.

وكشأن أولاد المشائخ والوجهاء في البادية سلمه لمؤدبه يعلمه القراءة والكتابة والقرآن الكريم.. وقد جلس غومه إلى الشيخ الفقيه المتنقل مع القبائل يدرس مبادىء القراءة ويحفظ قصار السور.. ويتعلم كيف يتوضأ ويصلي، ولكن لاحظ المؤدب من الولد شيئاً غريباً. كثرة الحركة ـ ولمعاناً غريباً في عينه.. وحبه للصراع حتى أنه كان يتغلب على أكثر من زميل من زملائه إذا تحلقوا حوله.. أليس ابن فارس.. ووالده شيخ القبائل..

ونشأ في شبابه صاحب ولوع بالفروسية.. والمقاتلة.. جيد الرماية هاوياً للصيد.. تواقاً إلى الحرية..

هو ميال إلى المغامرة.. عنيف في مصاولته.. عنود في مقاتلته وصراعه.. صاحب إرادة فولاذية، اكتسب كل ذلك بالوراثة والمران والتعود.. وعندما توفي والده «خليفة بن عون» شيخ المحاميد خشي أعيان صفهم من تقديمه للمشيخة ورئاسة القبائل؛ فما زال «غومه» شاباً أقرب ما يكون إلى الانطلاق... وسرعة الاندفاع.

ما زال شاباً تجري في عروقه دماء حارة تدفعه إلى المغامرة. عنيف في كراته، شديد في اندفاعه، عنود.

والمشيخة ورئاسة القبائل تتطلب شيئاً من الملاينـة والهدوء، وللسن والتجربة أثر عند أبناء القبائل.

لهذا أفلتت المشيخة والرئاسة من يد «غومه» وكانت من حظ ابن أخيه «الحاج محمد بن القاسم بن خليفة المحمودي».

واجتمع أعيان القبيلة في ندوة أو مؤتمر وآثروا تقديم ابن أخيه لكبر سنّه... وجنوحه إلى المسالمة والهدوء.

وتقبلها «غومه» بطيب نفس وخاطر..

وفعلاً كان لابن أخيه في تلك الأنحاء بين القبائل والعشائر صفات تحمد.. وسلوك طيب..

ومما يحمد له كما يذكر رواة البادية أنه ـ سار بنفسه في ثمانين فارساً وقدم إلى بلاد الزنتان.. ومر على الشيخ الأزهري.. وهو من فضلاء البيوتات وأهل العلم والمنزلة في تلك الجهات.. وعقدوا هدنة بين القبائل.. وأصبح الجو صافياً مشحوناً بالودّ والإخاء بين هذه المناطق..

وكان من صف المحاميد في تلك الآونة.. الريانية.. ويفرن.

ومات الحاج «محمد بن القاسم المحمودي» ليلة الخميس 25 ربيع الثاني 1247 هـ ـ 1831 م.

وكانت بعض الجهات حرضت فريقاً من الناس فغصبوا من عربه وأتباعه ألفاً وثلاثمائة بعير ـ 1300 ـ. وكانت الإرادة في تلك الآونة تشغل الناس في البادية بعضهم ببعض.

بعد وفاة شيخ المحاميد..

عادت مشيخة المحاميد ورئاستها لهذا الشاب الفارس «غومه» 1247 هـ وكان من موازري المحاميد وصفهم آنذاك:

النوايل، البلاعزة، الجواري، الرياينة، العلالقة.

وعندما جاء إلى طرابلس أول والٍ تركي كان لغومه ثلاث سنوات في رئاسة المحاميد. . .

غومه غريب في اسمه لم تعرف الصحراء أسماً بهذا الضبط.

«غومه». . غريب في شكله. . إنه فلتة من فلتات الطبيعة. .

أعاصير في الأفق

والأيام دول.. والدهر قلب.

وسنة الحياة، يقوى الإنسان ويضعف ويصح ويمرض.

وتجري في شرايينه حيوية القوة، ويصاب بالهزال..

وكذلك الدول.. منها ما تندفع في شرايينها القوة وتتدفق الحيوية.. ومنها ما يصاب بالهرم والشيخوخة والانقراض..

وعوامل الطبيعة، طبيعة السياسة، لها في ميدان التاريخ أعاصير ونسمات.. وزلازل.. وبراكين.. وهزات..

وخلع آخر حاكم قره مالليِ، وأزيلت معالم الدولة المستقلة التي حكمت ليبيا من الخميس 13 جمادى الآخرة عام 1123 هـ إلى أواخر محرم عام 1251 هجرية.

وعادت ليبيا مرة أخرى إلى لواء العثمانيين.

وبعد أن كانت دولة.

أصبحت إيالة.. ثم ولاية عثمانية.

وكيف خلع آخر حاكم «قره مالليِ».. وكيف رجعت ليبيا إلى حكم بني عثمان وارتبطت بحلقة الباب العالي..

هناك أسباب.. وعوامل.. ومسببات،

ودوافع خفية من وراء الكواليس والدهاليز . .

بجانبها عوامل ودوافع ظاهرة ملموسة.

وهذه وتلك تتضح لمن أمسك بمنظار التاريخ وألقى نظرة على تلك الأجواء التي كانت تحيط بالبلاد في تلك الآونة.

وقد كان لقناصل الدول الأجنبية . . وإدخال أصابعها والزج بأنفها في شؤون البلاد الداخلية والخارجية.

كان لذلك أدوار هامة . . وآثار واضحة ملموسة.

ولها خطورة في ترجيح حالة على حالة.

ويبرز اسم الكولونيل «وارنجتون» قنصل بريطانيا . . الذي بلغ استياؤه حداً كبيراً من جراء تولي «علي القره مالّلي» آخر حاكم من الأسرة القره مالّلية . .

وكان يجاهر هذا القنصل بصراحة على عدم رضاه أن يكون «علي» خلفاً لوالده «يوسف».

ترى أيكون هذا الموقف من قنصل بريطانيا إرضاء وعطفاً على أخيه «محمد» الذي كان يتوق إلى كرسي والده . . والذي كان يتحرق لهفة على إزاحة أخيه . .

أخ يناوىء أخاه . .

وكم لهذا الكرسي من سحر قد يبعث العداء والشحناء.

أَم ترى أن موقف القنصل البريطاني يعد تأييداً للحركة المناوئة التي كان يقوم بها بين فترة وأخرى فرسان الصحراء . . أمثال سيف النصر وغومه . . من غير شك، سواء كان لحاجة في نفس القنصل البريطاني . .

أم تأييداً لهذا أو ذاك،

فإن القنصلية لعبت دوراً في إسدال الستار على الفصل الأخير من قصة الحكم القره مالли.

ذلك العهد الذي بدأ مزدهراً.. قوياً بأحمد القره مالли.. وانتهت تلك الدولة بصدام وقلق.. ومأساة دامية..

وبجانب ذلك وجدت في الأفق اقتراحات وقدمت احتجاجات كانت ذات صبغة حادة ولهجة انتقادية مرة، وأسلوب لاذع لموقف «علي القره مالли» الذي كان ضعيف الشخصية.. قليل الحيلة ضحلاً في تدبير الأمور السياسية والإدارية.. والذي كانت يداه أضعف من التيار الذي ضمه.. فكان - في الحقيقة - لا يملك النفوذ والسيطرة، ولم يستطع إخماد حركات الجبل والصحراء الملتهبة.. أو حركان «سرت» و«فزان» التي أخذت تشتد في عهده.

وحرر طلبات مستنجداً بدار الخلافة بدون أن تسعفه أو تحاول حمايته وإنقاذه من تيارات عنيفة، وقلاقل في الداخل بدأت تكتسحه.. والصحراء عنيفة في لهبها.. وتندلع النيران حتى عمت أدخنتها مداخل المدينة.

انفلت الزمام من يد «علي القره مالли» بصورة عامة.

وكانت بوادر وظواهر أشد وأعنف.. واستمرت في عنفوانها.. وجاءت فترة.. فقد فيها السيطرة على دفة المركب التي أوشكت على الغرق.

وكان لتدخل القناصل من ناحية.. وحركة التمرد في الصحراء من ناحية. والنزاع العائلي في الأسرة الحاكمة من ناحية ثالثة.. لكل هذا أثر.. ومن هنا كان الجو مهيئاً لتدبيرات أخذت تنسج خيوطها في «الأستانة» فوجدت الدولة العثمانية فرصة للعودة.. وبسط النفوذ من جديد، وعودة «الإيالة» إلى عجلة الأمبراطورية الواسعة..

لا ضير. الجو مهيأ

والحاكم ضعيف.

والقلاقل متزايدة

والقناصل الأجنبية تلعب على الحبال.. وتدق أوتاداً.. والتمردات جو خصب لمطامع الساسة.. وبسط النفوذ، وتحريك مطامع السيطرة..

ويظهر أن «الآستانة» أو دار الخلافة ـ كانت في بادىء الأمر ـ تزمع الاعتراف بحكم «علي القره مالي».. ومسايرته.. ومساندتـه.. ويقوي هذا الافتراض إرسالها «شاكر أفندي» إلى شاطىء طرابلس وإبحاره بـ «فرمان» في يده.. وعبارات التبريك والاعتراف على لسانه.. وكاد «الفرمان» يتلى في المساجد والمحافل ويعلن في الأسواق.. ولكن دار الخلافة أخيراً.. وبعوامل عديدة ترددت في الإقدام على هذه الفكرة.. وتلاشت.. وتبخرت.. عندما أرسلت والياً جديداً.. ليزيح هذا الرجل الذي أغرقته المؤامرات.. وأحاطت به شباك... وصنارات..

وظل طعمة في بحر هائج.

وما بزغ يوم 14 مايو 1835 م 1251 هـ. والقيظ يلهب الرؤوس والشمس ترسل وهجها..

حتى كان أسطول بحـري قوامه اثنتان وعشرون قطعة تقلع من الميناء.. تمخر عباب البحر صوب طرابلس..

ومرت أيام وليال هادئة في البحر،

ولكنها غير هادئة في البر..

وكان في إحدى السفن يجلس رجل أشيب، يداعب سبحته الكهرمانية الثمينة.. ويسرح بيده لحيته.. ثم تداعبه أحـلام.. وتسرح بـه أمنيات وتدغدغه.. وينظر بين الفينة والفينة من سطح السفينة ـ عندما اقتربت من البلاد.. ويأخذ المنظار لعله يقرب له معالم الشاطىء الذي سيحكمه.

ترى أيجد مقاومة؟..

أم سيصبح والياً..

ونادى على جنوده الحرس وهمس لهم بكلمات خافتة.. مع أنه لا أحد.. يسترق السمع.. إنهم حراس أوفياء، وكان الجواب على كلماته أو أوامره.. إطراقة وخشوعاً.. ثم تحية عسكرية.

نظام وطاعة.

وعاد الرجل إلى مداعبة سبحته.. ولحيته، وعادت الأحلام تسرح به.

كان ذلك هو.. مصطفى نجيب باشا.. أو الفريق مصطفى نجيب.

وبدا الشاطىء الطرابلسي.. وظهرت المآذن والقباب البيضاء.. رويداً رويداً. وكان هناك على الشاطىء وفوق جسر الميناء.. ينتظر هذا الحاكم.. آخر عنقود في حكم القره مالكي..

إنه لا يدري شيئاً عما تحمله القطع البحرية..

كل ما يدريه.. أن مندوب السلطان قادم.. فيهرع إلى لقائه والترحاب به.. ولكن ما وراء مندوب السلطان.. أمير المؤمنين.

إنه لا يدري، ولا يستشف ما يحيط به.. فكيف يعرف ما وراء الشاطىء.. وكما هي العادة في أدب الاستقبال والترحاب.. صعد علي القره مانلي إلى سفينة الأمير لاي.. ليكون مرحباً بالضيف القادم من لدن السلطان.. وبدت إشارة خفية من حواجب الحرس.. وشوارب الحجاب.

حركة عيون.. غمز وإشارة لم ينتبه إليها أحد من بطانة الوالي المسكين، ولم يفطن إليها أحد من كبار المستقبلين أو صغارهم.

أشارة السر.. حركة خفيفة من حراس الأمير لاي «مصطفى نجيب». وفي لحظات أطبق على حاكم طرابلس... ووجد الرجل نفسه محاطاً بحراس شداد. وفي أدب مصطنع.. ولهجة بها رقة مزيفة، طلبوا منه تسليم نفسه، وهل للرجل في تلك اللحظة الحرجة أن يرفض أو يقاوم.

ونزل مصطفى نجيب باشا.

الذي أعلن للملأ في صوت جهوري، ونبرة قوية حازمة، إنه قادم ليهيىء الجو. . ويمهد السبيل لاستقبال «محمد رئيف» الذي حاز الرضا. . ووقع عليه اختيار السلطان ليكون والياً على طرابلس. .

وكان رئيف هذا اسماً معروفاً. .

وله عند العسكريين مكانة. اسم تردد في المحافل العسكرية والسياسة. . ألم يكن حاكم «الدردنيل»!. .

وبدأت من هذا الصباح سيطرة العثمانيين. . وعودة البلاد إلى حلقة الباب العالي. . عادت سيطرة العثمانيين إلى الشاطىء الطرابلسي.

القبض على غومه

وجاء «غومه» هذه السنة في مشيخة من قومه لمبايعة الوالي الجديد والترحيب به. . . قدم الطاعة والتبريك.

لأن الرأي العام ما يزال يرى في السلطان ومبعوث السلطان خيراً وأملاً. . وكما هي العادة. . وجرياً على سنة المناسبات قدم الوالي العثماني برنوساً جميلاً محلى بخيوط الفضة. . وشراريب الحرير هدية. . وأغدق من ثنائه وتشكراته لمشايخ البادية وعربان الصحراء.

كل شيء ـ على ما يبدو ـ هادىء. . يسير في سيره الطبيعي، ولكن. . ما أسرع الانتقال من ضفة إلى ضفة في أوقات القلاقل وهزات الأزمات.

وفجأة. .

بلا مبرر. وشيء لم يكن منتظراً. .

كانت شرارة بدأ في إشعالها.

وأخرج عود الثقاب وحكه. .

وما كان يظن أن عود الثقاب الذي حكه في صباح هادىء سيظل مشتعلاً. . ويرتفع لهبه. . ويمتد صهده. . ربع قرن أو يزيد. وما كان الذين نصحوه. . ومدوا له عود الثقاب أصحاب نظر بعيد أو دراية بأوضاع البلاد. . وخلق الصحراء. . وطبيعتها العنود. كان القبض على الشيخ «غومه» فعلة أقدم عليها الأمير لاي نجيب بإغراء ذوي الأغراض والغايات.

وهبت الريح.. وستصبح عاصفة هوجاء..

وبدأت همسات.. ثم لغط... ثم تجمعات.. وصدور فيها غيظ وانفعال جريح.

حبس «غومه» وزج به في سجن القلعة الرطب المظلم.. وجمع كافة العلماء - وعموم المشايخ -.. على حد تعبير الوثائق العثمانية - والأعيان من شتى الطوائف.. وعقدوا اجتماعاً بمسجد الشهيد درغوت.. طيب الله ثراه..

وكان مقصد الأمير لاي نجيب تأليف القلوب.. وضم الشمل، ونزع الغل وإحلال الوفاق.. إنه يقصد من هذا الاجتماع في هذا الجامع.. بجوار هذا البطل الشهيد - الذي دفع روحه في سبيل البلاد وحرية الإسلام، كان بالطبع.. يقصد خيراً.. ويبغي وحدة وأمناً.. لا نكران في شرف غايته وسلامة مقصده، من الاجتماع. فقد كانت هناك زعازع.. وبوادر تمرد في الساحل وتاجوراء من عهد القره مالي.. من عهد يوسف وعلي.. وقد كتب في هذا الاجتماع ميثاق.. وتعهد الجميع بإعطاء الجبايات على المنهاج الذي كان في عهد - يوسف القره مالي -.

حرر محضر.

وأقسمت يمين.

وملئت الأوراق بالأختام والإمضاءات... والبصمات.

وقرئت في هذا الاجتماع.. فاتحة.. وارتفعت الدعوات للسلطان قائد البرين والبحرين.. أمير المؤمنين.. عز نصره...

وقدم محضر الاجتماع، أو وثيقة التعهد للوالي الجديد.

ولكن هناك سؤال يبرز.

لماذا ألقى بـ «غومه» في السجن وقد جاء في وفد مع المشايخ وفرسان الصحراء.. مختاراً طائعاً.. ولم تبدر منه بوادر شرر، من هنا.. من لحظة

القبض والإثارة. . كان عود ثقاب. . وكانت شرارة. .

عود ثقاب حكه الأمير لاي نجيب. .

وشرارة نفخ فيها بشدة. . فامتد اللهب وزاد. فلو حضر «غومه» في اجتماع مسجد «درغوت». . لكان الأمر غير ما كان، ولربما لم يتسع الخرق. . حتى يتمزق الثوب ويتهلل، وضرب الوالي الجديد أنواعاً من العملة. بارات. . لتسهيل المعاملات. . ألم يعلن أنه جاء ليمهد لرئيف؟. .

ولكن طال به الوقت. .

مضت أشهر. . أربعة. . ثم خمسة سراعاً. . أو ثقالاً. .

وجاء «سبتمبر» والصيف يوشك على الانتهاء. .

وما تزال سحب متراكمة في الأفق السياسي.

ولكنها ليست سحب صيف، إنما هي سحب أحداث ورواسب.

بوادر وبوارق

وعلى الشاطىء كانت سفينة تتباطأ.. وتمد شراعها.. وألقت بحبالها لترسو قرب «الشعاب».

ونزل هذا الضابط الذي تبدو على معالم وجهه معالم الإجهاد.. وعلى صدره نياشين المعارك التي خاضها.

وحيا أصحابه القدامى الذين يعرفهم على ضفاف البسفور والدردنيل.. طوحت بهم أمواج الأحداث على هذا الشاطىء الطرابلسي البعيد..

وكان أول عمل قام به.. وخطوة أقدم عليها أن رحّل كل من ينتمي إلى أسرة القره مالي.. وشحنهم في نفس السفينة التي جاءت به من الآستانة..

غير أن هناك شيخاً جلله الشيب.. وقوسته الأحداث.. واجتاحته الأعاصير.. يجتر أيامه، ويسرع إليه الفناء.. معروق اليدين، مقطب الوجه.. مطرق الرأس.. كان قد شاهد أمجاداً ثم غدا المجد أطلالاً.. وشيد لبلده مجداً بحرياً.. وسمعة سياسية.. ثم حطم المجد.. وانهار البناء.

جدير بأن يبعث منظره على الشفقة والرحمة.. رأى زهو الحياة واستمرأ حلوها ثم تحطمت الكأس في يده.. فما بقي في قعر الكأس ما يستذوقه.

ما في القعر إلا الصاب والعلقم.. بلغ أرذل العمر، وأصبح بعد الهيل والهيلمان يحمل لافتة.. «عزيز قوم ذل».

ويسمح الوالي الجديد ـ لهذا الشيخ الهرم أن يبقى في البلاد ساكتاً مطرقاً.

إنه «يوسف باشا» بقي مع نسائه وزوجاته وعبيده..

وعندما شحن بقية الأسرة الحاكمة.. سرى النبأ والفزع في كل مكان.. وهرب «عثمان» ولده، وكان حاكماً على بنغازي، هرب إلى صخرة مالطه.

وأضربت البلاد.. وتظاهر الناس.. وتذمرت القبائل.. وأغلقت الأسواق.. فلم يرضوا معاملة الشدة والعنف، وأرسل الوالي قوة لقمع تحركات أهالي مناطق تاجوراء وجنزور والزاوية..

كان مقدم «محمد رائف» في أواسط جمادي الأولى سنة 1251 هـ 1835 م وأزال ضرب السكة، فلم تعد «الضربخانه» ذات عمل.

المهم لا نريد أن نتوسع في حياة الولاية والولاة في تلك الآونة، إنما يهمنا ونحن بصدد دراسة محدودة.. فيما يتعلق بحركات خاصة وشخصية لعبت أدواراً في تلك العهود.

أقدم الوالي على خطوة حازمة.. وحاول أن يمحو غلطة ارتكبها سلفه.. فسارع وأطلق سراح «غومه» بعد أن مكث في السجن زهاء ستة أشهر.. طيلة مدة الأمير لاي.. نجيب.. وفتح الباب.. وانطلق الفارس البدوي المظلوم..

ويلاحظ في تلك الأونة.. كانت هناك حركات في مصراته بقيادة «عثمان الأدغم».

وهذا أمير اللواء «حسين باشا المصري» والأمير لاي «درسون» ينضمان لبعض القبائل العربية.. ثم فر «حسين المصري» إلى استانبول.

وقبض على درسون وسيق إلى دار السعادة.

في هذه السنة 1252 هـ.. وفي شهر ذي القعدة واجه «محمد رائف» صعوبات ما كان ينتظرها.. واشتعلت الحركات في الجهة الغربية، فوجه إليها «طاهر باشا» في جحفل من العساكر إلى منطقة «غريان» لقمع تحركات الأهالي هناك..

وبرز «غومه بن خليفة» المحمودي.

إنه في طلائع الآلاف الهائجة التي كانت تشكو مر الشكاية من الضرائب.. والجبايات.. وسوء الإدارة.

ودارت معارك كثيرة..

وضبط «غومه» قائد الجحافل الهائجة - مدفعاً ومهمات وآلات، وجاء - الأمر العالي - باستدعاء رائف باشا وعزله فوراً..

فهو لم يستطع قمع حركات أبناء الصحراء ولا السيطرة على أتباع «غومه».

مسالمة ومصادمة

في يونيه 1836 م. 1252 هـ. جاء «فرمان» إلى «طاهر باشا» قائد الأسطول العثماني بتقليده الولاية.. مكافأة على خدماته..

ولو أن غومه أتعبه.. ورغم ضبط «غومه» لمدفعه.

ومع هذا جنح في بادىء الأمر إلى السلم.. وتارك «غومه» ثم شدد في فرض الضرائب واستعمال القوة.. فنازل «غومه». وهكذا نجد الباشا الحاكم أمره عجب.. نجده تارة يمد يده مصافحاً.. ثم لا يلبث أن يمدها لاطماً..

وفي كلتا الحالتين.. كان «غومه» عند المصافحة يصافح، وعند الصدام لا يولي.

بل في الطليعة.. مع فرسان الصحراء.. يقتحم خطوط النار في سبيل رد المظالم.

وفي عهد طاهر باشا، كانت هناك حالتان أو صفحتان:

ولنرَ الصفحة الأولى!

ها هو الوالي طاهر باشا يبدو مسالماً.. فعين «غومه» مديراً مسؤولاً في نواحي «غريان»، وأعاد إليه «غومه» المدفع والعدد الحربية التي سبق أن غنمها منه. أعادها بتمامها.

ويجب أن نلاحظ هنا.. أن الوالي «طاهر» سبق أن لمس قوة «غومه» وأدرك شدة تأثير حركته على الشعب.

ثم هو تفهم بطريق الممارسة مغزى استفحال حركة المطالبة بالإصلاح.. وسرعة انتشارها.. وصداها القوي لدى القبائل.. وهو قد خبر الميدان.. وسبق أن جابه المقاومة.. وتصارع مع «غومه»، فآثر بعد كل هذا.. أن يجنح للسلم.

وكان إقدامه على المسالة خطوة طيبة.

فعندما وصله «الفرمان» السلطاني بتوليه شؤون الولاية، كان يظن كثير من الناس أن «غومه» هالك لا محالة.. الويل له.. سيكون «طاهر باشا» موجهاً كل همه للإطباق على «غومه» الذي سبق أن هزم الباشا وأسر عدداً من قواته، والذي سبق أن استعرض أسلحته التي حازها في القبائل ودعا جماهير الصحراء للتفرج عليها.

هكذا ظن العسكريون.. والموظفون في الإدارة والمقربون.. ولكن.. الوالي الجديد خيب ـ في بادىء الأمر ـ ظن هؤلاء، وكذب مزاعم المتهامسين.

فمد يده للمصافحة لا البطش.

وسارع بإيفاد مندوب إلى حيث كان يخيم «غومه»

وكان اللقاء بين المندوب وبين «غومه» لقاء سمحاً.. ولقي المندوب العثماني عند هذا البدوي الثائر غير ما كان يتوقع. لم يكن فظاً.. ولا متصلباً جلفاً.

بل هو مثال العربي المسامح الكريم.. مثال الثائر الذكي والقائد الذي كثرت جراحاته.. وغطاها بابتسامة جذابة.

فلا تسأم من الإصغاء لطرائفه.. ورواية الكثير من وقائعه.

وجلس مندوب الوالي يتناول العشاء في خيمة جميلة بسطت فيها الطنافس والنمارق والأبسطة العجمية.. وأبسطة وأكلمة من صنع البلاد.. وقناديل ترسل ضوءاً جميلاً يهتز من شدة الريح في خارج الخيمة. وتصدَّر الضيف المجلس مكرماً معززاً..

وكان «غومه» حذراً.. لا تفارقه بندقيته.. على كتفه بندقيته التي يعتز بها والتي كانت «مفجرة» أي منقوشة بالفضة.. والتي كانت تطربه بزغرداتها في الميدان.. وفي زغرداتها.. لهب.. وموت.. ودفاع.. دفاع عن النفس.. ودفاع عن الأرض.. أرض آبائه.. وأجداده.

وبعد شرب القهوة.. ذات النكهة العجيبة ـ والتي كانت نادرة ـ تشرب في المناسبات والإكراميات.. قدمت في أقداح جميلة ذات نقوش عربية.

تحلق شيوخ المحاميد في الخيمة الواسعة في أدب ووقار وصمت.

فالحديث يدور بين قائدهم وشيخهم الفارس غومه.. وبين مندوب الوالي طاهر باشا.

وحمل الضيف المكرم تحيات «طاهر باشا» ورجاءه أن يكف «غومه» عن هجماته.. وباب المسالمة مفتوح.. ويود جاهداً أن يجد روح التفاهم بدل المصاولات التي تكلف الفريقين كثيراً من الأرواح والسلاح.

وكان «غومه» جذلاً بهذا التبدل الذي طرأ على موقف «طاهر باشا»، فقد سبق للفارس العربي أن حرر كثيراً من الرسائل إلى المسؤولين داعياً راغباً في التفاهم ودراسة الموقف على أساس من المصلحة العامة..

وإحلال لغة السلم.. بدل لهجة الرصاص.

وإذا كان الوالي الجديد يبسط يد المفاهمة.. ويتفهم هذه الفكرة..

فعل الرحب والسعة.. أكرم.. وأنعم.. و«غومه» من ورائه القبائل تؤيده.. وعندها مطالب.. لا بدّ من إسهام ومشاركة أبناء العرب في إدارة شؤون البلاد.

ولا يصح أن تكون المناصب في يد غير يد أبنائها.

وكخطوة أولية.. وكبرهان على روح التفاهم والجنوح للسلم.. عيِّنَ الشيخ «غومه».. مديراً على منطقة «غريان» ونواحيها.

وسارع «غومه» من طرفه يبرهن على ميله للسلم والأمن وتهدئة الخواطر، فنادى على مشايخ القبائل. وطمأن خواطرهم.

ثم قدم لمندوب الوالي الأسلحة والذخائر التي سبق أن غنموها منه في معاركهم مع طاهر باشا. . وفيها المدفع الذي بدأ المران عليه.

وتصافح الفريقان!

وبدت في الأفق بوادر طيبة. . ليت «طاهر باشا» يستمر على هذا المنهاج فقد أخذ المواطنون بعضاً من حقهم.

ولكن بعد مائة يوم، . . ثلاثة أشهر وعشرة أيام من مقدم طاهر باشا. . وفي شهر أغسطس استطاع أن يقبض على فارس الصحراء ويرسله أسيراً سجيناً إلى «اسطنمبول». .

ومصيبة هؤلاء الباشوات. . أنهم لم يقدروا حالة البلاد الاقتصادية ولم يدرسوا إمكانياتها. . دراسة متزنة. .

بل كان همهم الأكبر في جلب أكثر ما يمكن من الضرائب والأعشار، ولو على حساب قهر الشعب وبوسائل الضغط والإرهاب.

وكانت سياستهم الاقتصادية المرتجلة من أهم العوامل في بث الكراهية وزيادة التململ. . وارتفاع الضرائب. . وزيادة أسهمها. . وفرض الجباية بالعنوة. . كان ذاك. . من دافع الإثارة والقلاقل.

وبدأت تظهر ـ مع الأسف ـ أساليب العنف من الوالي.

وأين المطالب التي عرضها «غومه» وأيدها فرسان الصحراء!

ضرب بيد من حديد. . وشدد.

من هنا تظهر صفحة ثانية. . كما أشرنا إلى ذلك في صفحة سابقة.

صفا له الجو في المنطقة الشرقية. .

فكر في أن يزيد الضرائب والدخل، ويقفز بهما دفعة واحدة من 3 % إلى 10 %.

ولكنه صدم، وكان قرار الوالي مجرد أمنية ومحاولة.

صدم.. حيث ظهر خطأ فكرته من ناحيتين:

من طرف الشعب الذي بدأ يتململ ويظهر شكواه ولا يجد متنفساً ولا معبراً غير حركة المقاومة التي يقودها فرسان الصحراء الذين بدأوا المقاومة العملية من جديد.

وصدم.

من جهة الحكومات التي أوضحت للوالي العثماني أن مسألة الضرائب وأمر زيادتها قد حددت مقاديرها ضمن معاهدات عندما عادت تركيا للسيطرة على طرابلس الغرب.

وأصبح الوالي في دوامة.. دوامة حركها بنفسه.

ووجد «غومه» أن المطالب التي وعد بها الوالي الشعب لم تتحقق.

ومظاهر الضغط واضحة.. وأبناء العرب مبعدون عن مراكز الإدارة.

في هذه الآونة.. من أجل هذه الدوافع.. انطلق للميدان من جديد..

وكان بجانب حركات «غومه» ومصاولات فرسان الصحراء فارس آخر «جمعه».. الذي اعتصم بالمناطق الجبلية.. وعسكر بأتباعه في منطقة «يفرن». كان متحرراً شاكي السلاح.. تواقاً إلى الانفصال عن عجلة الخلافة.. وكان «غومه» وابن عمه «بيري» يتنافسان على الاستيلاء وحوزة المناطق الجبلية.. والمنافذ الهامة..

وفي ليلة غير مقمرة.. في ظلمة هادئة إلا من همهمات فرس مدرب، أطلقت طلقات على ابن أخي «بيري».. وذهب ضحية يلفه الظلام وتطوقه الرمال.. وكان صاحب الطلقات يهدف صدر «بيري» ولكنه الحظ العاثر.

من هذه المحاولة.. نشأت فرقة بين هذه القبائل التي تنضوي تحت لواء «غومه».. وانقسمت شطرين:

فريق ينحاز إلى «بيري»

وفريق إلى ابن عمه «غومه»

وكان «غومه» أكثر شجاعة.. وأشد بأساً وجرأة.. لا يعرف المحال.

وتبين أن مصدر هذه الخلافات بين القبائل هي مسرب وأمنية يبحث عنها «طاهر باشا».

فقد انحاز «بيري» وأتباعه إلى الوالي العثماني وضمهم إلى جانبه وكسبهم واستطاع أن يستنجد بهم في الإغارة على مناطق «غريان» ومسارب الجبل. وبدأ غومه إحدى مصاولاته.. وشدد في هجماته على الوالي التركي، وهزمه وأوقع بكتيبته هزيمة نكراء تحدثت بها شاعرات الجبل وكانت حديث المجالس.

مجالس البادية.

ومجالس المدينة.

ومجالس الإدارة الحاكمة.

وبعد أن حاز غومه الانتصار.. وذاق لذة الفوز، كر على السهول يتتبع فلول «طاهر باشا» وها هو «غومه» في عسكره.. عساكر تنتشر كالجراد.. ويتسابق نحو المدن.. وينساب في آلاف من فرسانه في الوديان والسهول.. وينعرج في الكهوف.. وأخذ الفارس يشرب من يمين وشمال، فهو يمسك بمشارف «زوّاره» من هناك.. ويشرف على مناطق الزاوية الغربية من هنا.

وطاهر باشا. قائد الأسطول، الوالي.. الحاكم.. يأخذ اللطمة بعد اللطمة والصدمة إثر الصدمة..

وعاد غومه إلى ـ يفرن ـ منتصراً حائزاً للغنائم.. يسوق الأسرى يعاملهم

برفق.. شأن طبع العربي الأصيل.. وينشد أنشودة الانتصار. وأن البلاد يجب أن يحكمها أبناؤها العرب..

كان «طاهر».. حائراً.. فقد بدد هذا البدوي أحلامه.. فقد كان طاهر كما أشرنا قائد الأسطول.. وكان المنتصر على حركة «عثمان آغا» في مصراته.. وساقه أسيراً.. وظن أنه يستطيع في سهولة أن يقبض على «غومه» كما قبض على «عثمان آغا..» وكما أسكت «تاجوراء» والساحل وفتح الأسواق المضربة عنوة.

كان يظن.. ويطول به الظن.

ولكنه أخطأ، في التقدير والحسبان.

لقد أخطأ القائد البحري.. وطبيعة الجبل غير طبيعة الشواطىء، ومعركة الصحاري والقفار غير معارك البحار. وفرسان الصحراء أشداء إذا كروا.. عفاريت إذا اختفوا.

وانهزم الوالي.. القائد البحري الذي حلى صدره بنياشين المعارك.. وتوالت صدماته ولم يستطع أن يلبي طلبات «غومه» وأصحابه.. وذهب غومه في الوديان والآكام ينشد شعره في ضوء القمر على نغمات الناي الصحراوي.. وتطايرت الأنباء.

وحملت حقائب القنصليات أنباء حركات «غومه»، ووصلت الآستانة الأخبار بهزيمة قائد الأسطول.. بهزيمة الوالي عندما فرض الضرائب بالقوة.

وكان هذا الصدام مع الشعب.. وزحف «غومه» بجحافله من أهم الأسباب التي أدت إلى سقوط الوالي.. قائد الأسطول.. وبادرت «الآستانة» تعالج المسألة على أسلوبها في إبدال «الفرامانات» وإصدار الأوامر.. وتغيير الوجوه لا تغيير أساليب الحكم.. وبعد أن مكث «طاهر باشا» عاماً ونيف وعلى وجه التحديد في محرم 1253 هـ عزل.. عزل طاهر باشا.. حملته سفينة.. وجاءت سفينة تحمل باشا آخر.. ذهب باشا.. وجاء باشا.. ولّى وجه وأتى وجه جديد.

غومه في الميدان

جاء والٍ جديد. . في يده «فرمان» طويل الذيل. . دعاء وإمضاء لخاقان البرين والبحرين. . ظل الله في أرضه. .

وصل «حسن باشا الجشمه لي» في شهر إبريل 1837 م 1253 هـ.

ورست السفينة. . وألقت الشراع.

سارع المستقبلون للوالي الجديد. . ولمحوا بجانبه وجهاً يعرفونه. . وأخذوا يتفرسون من هو؟. .

وسرت همسات: أحقاً عاد!؟.

رجع «عثمان آغا» الذي سبق أن نفاه «طاهر باشا». . أطلق سراحه. . وعاد لوطنه ومعه يجر الحقائب مثقلة بالهدايا. .

وسيلة من وسائل الإغراء.

ومحاولة من محاولات التهدئة. .

إن المقصد من هذا كسب القلوب. . وتسكين الخواطر، فإن حركات «غومه» وصحبه ما زالت في اشتعال مستمر.

لكن هل عودة هذا الأسير بهداياه تكفي؟!

هل وقوفه عند الشاطىء بجانب «حسن الجشمه لي» يقضي كل المطالب؟

يظهر أن «حسن الجشمه لي» كان يود الجنوح للمسالمة، وحسن المعاملة، فبدت في أيام حكمه بوادر طيبات، عندما جمع أهل الرأي والمشورة واستمع لطلباتهم صاغياً لرغاباتهم. . وأدرك أن من الحكمة أن يكسب إلى جانبه هذين الرجلين أصحاب النفوذ في القبائل.

عبد الجليل.

غومه.

فنصب «عبد الجليل» حاكماً على فزان ومساربه. .

و «غومه» حاكماً على الجبل والبلدان المحيطة به. . أليس هذا أجدى من المعارك التي خاضها سلفه «طاهر»، وما استطاع أن ينتصر على «غومه» وجيشه الجرار. .

وكان من محاولات الوالي هذا. . تعريب ولكن بشرط.

فهو يضع العرب في مناصب إدارية ولكن بشرط، وكل شيء عند هؤلاء الحكام بشرط. . وكان اشتراط الولاية أن تدفع منطقة «فزان» مبلغاً من المال مقداره خمسة وعشرين ألف قرش سنوياً ـ 25,000 ـ.

ويدفع الجبل ومناطقه مبلغ ثمانين ألف قرش ـ 80,000 ـ سنوياً.

ونظر «غومه» في جسامة المبلغ ونظر إلى صاحبه «عبد الجليل».

وتداولا في الأمر.

وأخيراً قبل الشرط. . وإن كانت حالة الشعب لا تسمح بإرهاق فوق إرهاق. . المهم، كخطوة أولية. . ومحاولة أن يشترك العرب المواطنون في حكم بلادهم. . وتسيير دفة الإدارة. .

المهم ألا تكون كل الأمور بيد هؤلاء الذين تقذف بهم السفن من بعيد، وافق «غومه» وصاحبه.

ولكن أتدري ما الذي حدث. وكيف حصل الانتكاس؟. .

ولماذا عاد «غومه» إلى جولاته من جديد؟

خرج «غومه» من مجلس الوالي فرحاً، وانطلق إلى عشائره في نشوة أمل جارف. . . خيط من النور في ظلمات مسدلة. . قد يكون بعد الخيط أضواء. . وبعد البصيص وهج.

ولكن الخيط انقطع.

والبصيص اختفى.

كيف ذاك. . ومن المسؤول الذي قطع الخيط. . وباعد بوارق الأمل. . لقد اعتبر «غومه» تلك الخطوة ترضية له. . وانتصاراً لهدفه. . أو الاقتراب من هدفه. . وبشر العرب في منطقة نفوذه. . إن أهل البلاد سيحكمون البلاد. . واطمأنت القلوب. . نوعاً ما.

وأخذت البنادق تطلق طلقات الفرحة والبهجة على عادة العرب سكان الصحراء في أفراحهم. . . كان ذلك بصيص أمل.

ولكن بصيص النور تكتنفه سحب، وخيط الأمل يشد شدة قوية ليقطع. . كيف ذاك. . ومن المسؤول؟ وما مرت أيام حتى وصل إلى «غومه» مندوب من طرف الوالي «حسن الجشمه لي» وإذا «بغومه» بعد حديث قصير يخلو بنفسه ويطرق.

ثم اجتمع مع مشايخ القبائل وأسر لهم بكلام أثار الاندهاش والاستغراب. . لقد فشلت المفاوضات، وكان السبب في فشلها هو إصرار الوالي التركي في عناد وصلابة على أن تكون الضريبة التي يقدمها «غومه» و «عبد الجليل» رجعية.

أي يجب على «غومه». . وعلى أهل فزان والجبل وسكان الصحراء أن يدفعوا الضرائب والجبايات أو «الجزية» المتأخرة منذ سنوات. . المبالغ المتراكمة منذ آماد سوابق. .

مبلغ باهظ. . وعناد الوالي لا يدع طريقاً للتفاهم، وأسلوبه يسد

المسالك.. إن المطلوب، أكداس لا يستطيع كاهل الشعب أن يتحملها.

ودرس «غومه» الحالة.. وتأمل في الموقف.. والإنذار الطارىء من «حضرة الباشا»، إن أصحاب النوق والجمال قد يبيعون إبلهم وما تحمل ولا يسددون هذه المطالب المتراكمة، والأعشار المكدسة التي سطرتها في دفاترهم.. أقلام تجيد الطرح والجمع والضرب..

ولا تجيد مع الأسف ـ تفهم الحالة.. ومطالب الشعب..

وتأتي ثالثة الأثافي في هذه المرة.. مطالبة بضرائب متراكمة يجب دفعها دفعة واحدة، حتى ينال الوالي التركي حظوة عند السلطان..

شيء لا يطاق؛ وقطعت المافوضات.. وأبى «غومه» أن يرضخ لهذا المطلب أو الشرط الجائر. وأخذت قوات «غومه» تستعد من جديد.. وفشل «حسن الجشمه لي» في خطته المرتجلة.

كان يستطيع أن يكسب «غومه» وصاحبه بالتفاهم.. وعدم الإلحاح والإصرار في دفع المتراكم الذي فرضه ولاة سابقون من غير دراسة ولا قياس.. ولا اعتبار لإمكانيات الشعب..

وكان «غومه» في تفاوضه على حق، فهو أقرب إلى الشعب من حضرة الحاكم الذي حمله أسطول.. وجلبه «فرمان»..

«غومه» أقرب إلى الناس وتفهم أحوالهم من هذا «الباشا» الذي يعيش في ترف.. ويفطر بالياغورت.. ويحلي حلقه بعد العشاء بالبغاشة والبقلاوة.. ويطرب لنغمة «أمان.. أمان..».

وتعود على أن يأمر فيطاع.

الهوة سحيقة بين هذا وذاك..

أما غومه فهو ربيب الصحراء.. أدرى ـ من غير شك ـ بأبناء الخيام وصهوات الجياد..

ورفض أن يتكفل بدفع المتراكم منذ سنوات ـ وهو شيء غير يسير من ناحية ـ وغير عادل في وضعه وفرضه من الأساس.. من ناحية أخرى.

وعادت الاضطرابات من جديد.. وخاصة أن «حسن الجشمه لي» اشتهر بالتراخي.. وعرف عنه الإهمال.. وعدم إدراك مطالب الشعب.

وتكاثرت الأعاصير التي اجتاحته.

وقويت حركات غومه وزادها لهباً إيمان الشعب في الصحراء بها والتفافه حولها، لأن حضرة «الجشمه لي» هذا نقض محاولات سابقة في تقريب المسافة بين الحاكم والعرب المواطنين..

وبينما الوالي غارق في إهمالاته سادر في أوهامه إذ بـ «غومه» وأتباعه تجمعوا في صفوفهم على دقات الطبول وتحسسوا أسلحتهم.. فقد أعيتهم المطالبة.. وفشلت المفاوضة.. وتبخرت الوعود..

وظهر واضحاً التصدع في جدار الولاية.. ونقص نفوذ الحاكم وتقلص، وفقد الثقة ـ التي هي رأس مال الحاكم الحازم الناجح، ثقة الشعب وتقدير المحكومين.. تقلص نفوذ الوالي العثماني وانحصر في نطاق ضيق.

ولم يستطع «حسن الجشمه لي» أن يسيطر على الموقف.. ولا أن يطارد «غومه» أو يطرد قواته من المواقع التي احتلتها.

وأخذت الكفة في التأرجح.

نفوذ الإدارة وهيبة الولاية في نقصان.

وقوات «غومه» تسيطر في الميدان.. ثم تأخذ في الانسياب والاتساع، تزايد واتساع من ناحية، من ناحية الشعب المزمجر..

وانكماش من ناحية.. من ناحية الإدارة الحائرة..

حتى جاءت فترة انحصرت سيطرة الوالي في ضاحية «المنشية» وموقع

الساحل. . ومنطقة «تاجوراء» أي على بعد حوالي خمسة عشر كيلومتراً من العاصمة.

وما كان خارج السور. . كان في تجاوب مع أهداف «غومه». . وقبائل الصحراء تجد في «غومه» شيخها المنقذ وفارسها البطل.

بقي «حسن الجشمه لي» عاماً واحداً في طرابلس، وكرسيه يتأرجح من سواعد «غومه» وأنصاره.

وعندما فشل «حسن باشا» كما هي العادة ذهبت به سفينة.

وطفق «غومه» ينظم صفوفه. . ويتفقد أنصاره وأتباعه. . لعل الجولة تطول. . في جمادي الآخرة 1254 هـ 1838 م عزل «حسن الجشمه لي». . قد يكون استقال أو استدعي. . ولكن هذه العبارة ـ عزل ـ والتاريخ من وثائق العهد العثماني. . . عزل. . وذهب إلى حيث أتى. .

مواصلة المعارك

وجاءت سفينة أخرى تحمل حاكماً جديداً إلى الشاطىء الطرابلسي..

كان ذاك في عام 1838 م في أواسط جمادي الآخرة 2154 هـ.

علي عشقر.

أو علي عسكر.

فلا يهم الفرق بين السين والشين.. لا فرق حسب تفاوت اللهجات..

إنما نبحث عن الفرق بين الحاكم السابق.. والحاكم اللاحق..

أترى هناك شيء جديد يظهر في الأفق.. أمن وسلام.. وتباشير رحمة.. أم هي حركة الصحراء تزيدها الأيام لهباً والتصرفات الخاطئة من الإدارة إثارةً وتوهجاً!..

وأرسل «علي عشقر باشا» مندوباً خاصاً إلى شيخ الصحراء «غومه» وهرول إلى مدينة طرابلس.. يخب في قفطانه وبرنوسه الزاهي.. وعلى كتفه بندقيته.

وأراد أن يستأنف المفاوضات.

وتكلم «غومه» بكلام فه منطق فصيح.. ومطلب صريح..

إن الشعب لا يستطيع أن يتحمل هذه القسوة.. وذلك الإهمال.

ديون تتراكم عليه، من يفرضها.!

الشعب لا يسأل ولا يستشار.. أليس لأبناء البلاد الحق في إبداء الرأي والإصغاء إليهم؟!

لهم مطالب.. لديهم رغبات.. وإن أردتم إصلاحاً وكنتم صادقين فليساهم أبناء العرب في حكم البلاد.. والإدارة.. ثم لتؤخذ الضرائب والأعشار من جديد بنظام يتفق مع العدل ويتماشى مع إمكانيات الناس.. أسدلوا على الماضي ستاراً.. الحساب يطول.

ولمس «علي عشقر» في كلام «غومه» ونظرته صدق اللهجة وسلامة الطوية.. فضلاً عن تأييد الجماهير له. والتفاف القبائل حوله.. وعندما أطل الوالي من نافذة قصره.. شاهد جموعاً تتدفق بملابسها الزاهية.. مشايخ وأعيان.. جاءت مع «غومه» شيخها وفارسها البطل.. فهو يتكلم بلسانهم.. ويعبر عن إرادتهم.. معه مطالبهم موقعة بأختامهم.. وبصماتهم وإمضاءاتهم.

إنه ثائر.!

ولكنه يود المسالمة لو وجد لذلك طريقاً.

وصاحب بندقية وفرس شموس. ولكنه مع هذا يجعل للكلام موضعاً لو وجد لذلك نافذة أو باباً..

ووافق الوالي الجديد على نظرية «غومه».. ومبدئياً.. سلم له بحق مطالبه، واتفقا على أن تكون المطالبة بالضرائب والأعشار من جديد.

لن ينهج خطة حسن الجشمه لي.. فقد فشل سلفه..

هكذا كانت بوادر المقابلة.. ولكن ماذا في بطون الليالي المقبلات..!

كم بها من خفايا وأعاجيب..

كانت هناك بوادر اتفاق، أو دلائل تفهم.

ولكن يظهر أن الحالة كانت غير ملائمة من عوامل الطبيعة.. فالقحط

وعوامل الجفاف وكساد موسم الحصاد.. كل ذلك لم يسمح بدفع الضرائب والأعشار من جديد.

وعندما عاد «غومه» مع الجمهرة التي صحبته من الفرسان وجد في صفوفهم همهمات.. وعندما حان موعد الدفع والعطاء، رفض أبناء القبائل أن يدفعوا شيئاً.. وخاصة أنهم لم يلمسوا شيئاً من تحقيق المطالب الأخرى، لا جديد.. العرب أبناء البلاد مبعدون عن المناصب والإدارة، وعلي عشقر لم ينفذ شيئاً من تعريب الإدارة، وهناك عوامل وصور من حياته، وكان في صراعه مع الحركات عنيفاً إلى أبعد حدود العنف، عندما قدم «علي عشقر» كان يصحبه «درسون باشا» واشتهر بالشدة والصلابة في ضرباته العسكرية.

وهو نقيض «حسن الجشمه لي».

الأول لم يتحرك.. أو حركته كانت بطيئة ولم يبد شيئاً.

و «عشقر» الذي جاء إثره حاول أن يتحرك ويضع شيئاً.. والتاريخ أمانة.. والتاريخ في مادته حقائق.

والأمانة والحقيقة شيء يجب ألا تجحد، ونحن ننظر إلى «الواقع» الذي كان كما هو.

فنرى «علي عشقر» في ناحية بنّاء

وفي ناحية أخرى هداماً.

وفي ناحية يصلح ويشيد، ومن ناحية يشتد ويزيد في تأزيم الأمور. فهو مثلاً، يقوم بإصلاح بعض القلاع.. ويعمر بعض المساجد ويشيد من أركان بيت الله.

وينشىء قصراً للحكومة في جهات الدواخل مثل قصر.. ورفلة..

ويشيد مبنى للحكومة في منطقة «بونجيم» الذي يضرب به الأمثال في الخلاء وشدة تضارب الرياح فيقال: «خلية بونجيم» بونجيم الواقع بين سوكنه ورفله..

وتشير الوثائق العثمانية أنه أزمع بناء ناحية أطلق عليها «المجيدية»، وولى حليم باشا على مدينة «بنغازي».

هذا نوع من بناءاته.. قلاع.. مساجد... بنايات.

ومن ناحية أُخرى استطاع أرباب الغايات، وصانعو الحقد، استطاع أصحاب بضاعة الوشاية أن يجدوا إلى أذن «علي عشقر» سبيلاً. وتلقفه الوشاة، وسعوا بوسائلهم حتى يبعد عنه العرب المواطنين. فكان من نتيجة هذا أن شدد «علي عشقر» على الأحرار والأعيان في مدينة طرابلس؛ وشدد الخناق على الفئة التي كانت تطالب بالإصلاح الإداري، والنظر بعين الإنصاف إلى ما آلت إليه حالة البلاد.

فهو كما نراه يبني العمارات.. ويشيد المباني.

وما أحراه لو شيد بجانب هذا روحاً للتفاهم وجنح للسلم،

ووفر على الشعب ما كلفه من دماء ومجهودات.

بل إن الوشايات والهمسات ـ من ذوي المطامع باعدت بينه وبين أهل الحصافة وكثير من الوجهاء في المدينة، والمشائخ في القبائل.

فتح أذناً للوشايات،

ولم يفتح قلباً للحب.

مد يده ليضع حجراً على حجر.. ولم يمد يده ليكسب المواطنين بالإخاء، وألقى القبض على شخصيات طرابلسية وطوح بهم في المنفى أمثال:

محمد الشلابي بيت المال

محمد آغا التركي، التركي الاسم فقط

بينما كانت في الدواخل والبادية حركات بقيادة «عبد الجليل سيف النصر» ومعه عرب مواطنون من تلك الأنحاء، ووصلت حركته إلى بلدة «زليطن» و«تاورغا» «وساحل الأحامد» و«الخمس» و«مسلاته». وسمع «علي عشقر»

بهذه الزحوف التي اكتسحت المناطق الشرقية.. وأين تكون سمعته.. وماذا يكون في انتظاره عندما يطبق عليه «سيف النصر» من ناحية الشرق؟.

و «غومه» وجحافله.. «غومه» جن الصحراء.. من ناحية الغرب. ونظم طوابيره العسكرية وجهز إرسالية بقيادة «حسن البلعزي» وتلاقى مع «عبد الجليل» بناحية ـ مسلاته ـ ودارت المعارك بالبنادق والسلاح الأبيض زهاء ثماني ساعات متواصلات.

وانسحبت قوات عبد الجليل وتوجهت نحو «فزان».

لكن هل اطمأن الحال.. بـ «عشقر باشا» وعساكره؟؟

هناك اسم يرعبه، عاد يطرق الأسماع.. يرعب القلوب، يجب أن يحسب له ألف حساب.. ويحذر كل الحذر عند ملاقاته،

كان قد سمع بمطالبه، بل قرأها مكتوبة، موقعة ممهورة من بناء الصحراء. ألم يجتمع معه، ويحدثه عن الإصلاحات في لهجة صريحة شم منها العزم.. واستشف منها الإخلاص!

كان قد سمع به،.. وسمع عنه.. بل استمع إليه، ووعده ثم أشاح عن مطالبه وتحذيراته.. وأزور.. وألقى بها في مكتبه هازئاً، مستخفاً، إنه وعده، ولكن أبعد الوعد وعيد!!

ها هو غومه يعود، يقود الفرسان.

عاد «غومه» إلى الميدان، فإن سكوت «غومه» وانتظاره قد يغري «عشقر باشا» بالتمادي في شدته وجبروته، والسخرية من مطالب العرب الإصلاحية.

وهناك أيضاً فارس آخر «جمعه» الفارس المتمرد في جبال غريان.

استطاع أن يجد مسارب.. ومناورات.

ثلاث سنوات.

واستمرت الحركة مشتعلة.

و «غومه» مع أهله وأنصاره، يكبر.. ويصول.

وزحف الشيخ البدوي بقواته كالسيل الجارف في الوديان والكهوف حتى وصل «وادي الهيرة».

وأخذ «علي عشقر» يضرب أخماساً لأسداس.. ويدبر الخطط والوسائل تارة بينه وبين نفسه، وتارة مع أصحابه الضباط ذوي الرتب العالية..

والشوارب المفتولة،

هل ينصب لغومه كميناً!!!

إن غومه بطل الكمائن.. ترى هل يغريه برتبة أو وظيفة!!

إنه سلاح جرب معه سابقاً.. ومطلب «غومه» أكبر من الوظيفة.

يريد إصلاح الرعية.. وسياسة جديدة.. أساسها العدل والإصلاح، هل يصدر عفواً عنه؟ ويطلب مقابلته من جديد والتفاوض معه؟ وقد يفسر «غومه» هذا الحل الأخير بأنه صورة من الهزيمة والتراجع من «الباشا».. أتكون هزيمة لباشا، أمام شيخ بدوي؟

وأخيراً في لحظة مشحونة بالغيظ والغضب قرر «عشقر باشا» أن يسير قوة كبيرة إلى «وادي الهيرة».. وليكن «غومه» أمثولة حتى يضع الباشا حداً لهذه الأسطورة.. وخرافة بطل الصحراء..

وفي صبيحة باكرة نادى على «القائم مقام بكر بك».

وأطلعه على تحرج الموقف في الناحية الغربية.. وأن «حسن البلعزي» قد استطاع تهدئة جهة المقاطعة الشرقية.

فهل يكون أعجز من صاحبه؟ وهو من هو في السمعة العسكرية.. وو.. وهـز «بكر بك» رأسه.. وأسكرته خمرة الثناء.. وأدارت رأسه عبارات المديح.. وداعبته أحلام الانتصار، وأدى تحية الوادع وخطا خطوات في حزم وإصرار.

وأكد لصاحبه أنه في جولته هذه سيصحب رأس «غومه» وسيعلقه عند الميدان ليكون عبرة.

ويريح «دار السعادة» من هذا - الشقي - ومن عنائه الذي تطاول.. ورقد ليلته في المعسكر. ولكنها ليلة أرقة.. قلقة.. ويتصور ساعة لقاء «غومه».. ومن «غومه» وما عسى أن تكون قوته في الميدان..

وسارت قوته.. ومر يومان ثقيلان.

بدل أن يكون هو المهاجم - حسب الخطة التي رسمها مع ضباطه، إذا به يفاجأ بغومه ينقض على عسكره كالصاعقة، ويفاجئهم كالزلزال.. ودب الذعر في قوات - القائم مقام - وخاصة أن كل جندي منهم، كان يتصور «غومه» وجماعته كأنهم أشباح جن أو أهوال وأغوال..

واشتد القتال خمس ساعات متواليات.. في معركة شديدة الأوار ملتحمة.. و «غومه» يلوح لجماعته بيده.. ويبعث فيهم بأشعاره وأهازيجه لهب المقاومة.. ويلهبهم عندما يتقدم الصفوف.. ودائماً في الصف الأول.. كعادة الفرسان في الصحراء عندما يشتد بهم الحماس.

والعرب بجرودهم من ورائه يرددون مقاطع كلماته، وينقضون كالنسور.. وبنادقهم في وسط الغبار والرمال المتطايرة من سنابك الخيل ترسل لهباً وقبساً وكأنها على حد قول بشار:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا   وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

واشتدت المعارك.. وأتباع «غومه» يحاصرون قوات القائم مقام «بكر بك» بأتون من النيران.. وأدرك الضابط العثماني أن كل خطوة إلى الأمام ستقدم به نحو المصير النهائي.

وشعر أن أحلامه ستتبخر أمام هذا الواقع المرير والموقعة اللاهبة في «وادي الهيرة»، وانقلب راجعاً بعد أن استولت قوات غومه على كميات من الذخيرة وأسرت عشرات من جنوده وضباطه.

انفلت خائفاً «بكر بك» وخشي أن يساق أسيراً. . أو يسقط مجندلاً في هذا الوادي المخيف.

واستطاع غومه في هجماته أن يسيطر على بلدان ـ العجيلات ـ وزواره ـ ثم ينحدر مواصلاً انتصاراته وهجماته في حركات سريعة صـوب مدينـة ـ الزاوية ـ التي تبعد 43 كيلو متراً عن العاصمة. . وعسكر هناك وضبط شؤون تلك المناطق الإدارية.

واكتسب بهذا سمعة ترفعه إلى مصاف الأبطال. .

بقي «غومه» حوالي عامين وهو المسيطر على الضفة الغربية.

ظل متحكماً في الموقف هناك من عام 1255 هـ حتى عام 1257 هـ. .

وهال الأمبراطورية العثمانية هذا الصنيع من بدوي. . «مكتبه» خيمة، وسلاحه بندقية. . وجنوده يلبسون العباءات والجرود.

وعشقر باشا. . وبكر بك يتضاءلان في ثياب الهزيمة.

بينما «غومه» أخذ ينظم الشؤون الإدارية. . ويلقى كل معونة من أبناء البلاد. . كيف لا، وهو وجه يعرفونه. . وشخصية تتمتع بكل احترام وتقدير في تلك الأوساط والمناطق. .

وشهرته تطبق الآفاق. . وتدوي بها الصحراء. . قد غدت فروسيته مضرب الأمثال. . وانتصاره في معارك «وادي الهيرة» مكنه من رجحان كفته، حتى استمرت في حوزته البلدان من الزاوية إلى الحدود التونسية.

خطة وأساليب

ورأى عشقر أن يجرب حظه مرة أخرى.

فيلجأ إلى أساليب السياسة.. وبث التفرقة بين أتباع «غومه»..

يدق إسفيناً في صفوف العرب أنفسهم.

إن الشدة تولد الشدة،

وجنود الصحراء أدرى ببلادهم.

فليجرب ما يصنعه الساسة، وليضع خطط الميدان جانباً.

بل إن الخطط العسكرية تأتي بعد خطط السياسة.

الرأي قبل شجاعة الشجعان، والفكرة دائماً قبل الصدام واللقاء..

واستطاع علي عشقر أن يرسل إلى تلك الأنحاء التي تقع تحت سيطرة «غومه» بعضاً من الذين يثق فيهم الوالي ويطمئن إليهم.

وأخذ هؤلاء المبعوثون يندسون بين أتباع «غومه» في تلك المناطق الباسط نفوذه عليها. وبدأوا في تنفيذ الخطة التي رسمت لهم.

حرب الأعصاب.. حرب الدعاية.. ومن هـذا اللون.. يبثون في الصفوف دعاوى الصلح.. دعاوى الاستسلام.

وإن الدولة العلية.. وحكومة السلطان قوية لا يمكن التغلب عليها.. حرب نفسية، وأساليب ماكرة.

وفعل هذا «الطابور الخامس» أفاعيله.. شيئاً فشيئاً..

وبدأت تتسرب بعض الشكوك.

وأحدثت الإشاعات والأقاويل ثلمة ومنفذاً إلى بعض القلوب، وبأساليب عانى الشرق العربي كثيراً منها في تاريخه المديد.. ظهرت بوادر الخلاف.. وبذور الشقاق في الصف العربي الذي يتكتل وراء «غومه» وصلت إلى حد الهيجان والغليان، وساعد على مهمة «الطابور الخامس» اتساع الأرض في المنطقة ذات الأطراف المترامية.. وتعدد القبائل.. وبعض النفوس طيبة إلى حد السذاجة..

ومستوى الوعي - في القرن التاسع عشر - عند الجماهير لم يبلغ حد النضج.. لهذا كانت الإرسالية التي بثها «علي عشقر» في صفوف «غومه» وجدت حقلاً تعمل فيه بخفية وحذر.. لبث روح الاستسلام والعودة للواء «عشقر»... وإرسال الضرائب.. والأتاوة للسلطان.. أو مندوب السلطان.. اليد ما تعاندش المشفه -..

وقع ما كان ينتظره بشوق ولهف.. علي عشقر.

لقد اختلف أتباع غومه.. وخلافهم فرصة ثمينة للولاية العثمانية.. تضاربت آراؤهم، وفي ذلك منفذ ومسرب للوالي المتربض بهم، وما وصلت أنباء هذا الخلاف إلى مسامع «الباشا» المتحفز للوثوب حتى كاد يرقص فرحاً.. ولاحت له بشائر الانتصار على غومه.. فليواصل «الباشا» إمداد هؤلاء.. الذين وزعهم هناك بالمال والرأي.. والفكرة - وتطور الخلاف بين أتباع غومه إلى حد الشجار، وهنا وجد عشقر باشا الجو مهيأً.. مناسباً.. والطريق ممهداً فليضرب ضربته ولتكن ضربة قاسية.. وجمع حوله ضباطه.. وتحسس العلامات العسكرية على كتفه، وتساءل.. هل ينهزم أمام هذا البدوي المتمرد.. وهو الباشا، العسكري المدرب؟ الذي انتصر في معارك البحار والقفار؟.

ومضى الليل وهم يرسمون خطط الإطباق على «غومه» لا بدّ من أسره،

ليكون عبرة.. ودرساً.. وليصبح أمثولة ترتعب منها الصحراء.. وليوضع جن الصحراء في قمقم ويرسل هدية إلى السلطان المتشوق إلى رؤياه، والفرجة عليه.

واختار «عشقر» هذه المرة.. رجلاً صلباً.. قوياً حتى يزيح قوات «غومه».. ولا تعود قصة هزيمة «بكر بك» إلى الأذهان..

وفي أمسية بعد العشاء نادى على «أحمد باشا».. وأطلعه على خطته،..

وليكن عند حسن ظنه.. فقد وقع عليه الاختيار من بين عشرات الضباط ليعود له برأس «غومه».. مهما كان الثمن.

فالفرصة مؤاتية..

والجو مهيأ.

والرتبة في انتظاره.

ودق «أحمد باشا» الأرض بحذائه العسكري وصاح على أسلوب الأتراك: أفندم!..

معارك لاهبة

ومضى في طريقه مع الخيالة وفرسان الثكنات العسكرية في ضواحي طرابلس. في هذه المرة كانت حملة العثمانيين أكثر عدداً.. وأقوى عدة من الحملات السابقة.. وأكثر طعاماً ومؤونة.

فقط تطول المعركة.. فإن ـ غومه ـ كما عودهم لا يمل القتال ولا يؤمن جانبه، في الميدان..

وعسكر «أحمد باشا» بالقرب من مدينة ـ الزاوية ـ.

وبدأت المناوشات في أول دورها خفيفة.. كأنها حركات استطلاع وجس نبض.. ثم أخذت مع سدول الظلام تشتد.. وفتح طريقاً نحو مركز «غومه».. وكاد أن يطبق عليه.. وصوّب قوته وهدف مرماه نحو معقل «غومه» نفسه.

فالمهم كما هي الخطة ـ رأس غومه ـ.

فهو بيت القصيد، فإذا تم القبض عليه فإن حبات المسبحة تتساقط بعده في سرعة وخفة.

وأحس «غومه» بحكم خبرته ومرانه أن حركة التطويق تكاد أن تتم حوله.. حركة التفاف.

وفي سرعة كر راجعاً إلى الجبل.. ثم سار في محاذاة الجبل حتى وصل إلى مدينة «ترهونه».

بادرت خيالة «أحمد باشا» تشد من لجم الخيل ثم تطلق لها العنان وتهمزها وتلكزها.. وتوالي اقتفاء آثار «غومه» وملاحقته. قبل أن يطويه الجبل.. وقبل أن يضمه ليل الصحراء الموحش.

ولكنه اختفى كالشهاب.. وما استطاعت الخيول المدربة أن تلاحق حصان «غومه»: مارد يحمل مارداً.

وعاد «أحمد باشا» إلى مدينة طرابلس.. وحدث الوالي «عشقر باشا» عما شاهده. وما لقيه من مصاعب.

إن غومه. شيء لا يطاق، أو بعبارة الأتراك... يظهر حتى يظن أنه سيقع أسيراً.. إنه على بعد رمية رمح، أو قيد ذراع.. أو تصويب رصاصة.

ثم يختفي كأن الأرض ابتلعته.. والصحراء صامتة.. موحشة، وأتباعه وراء الصخور والآكام.. يظهرون.. ثم فجأة يختفون.

في كل مكان بالصحراء منهم جنود.. إنهم كالألغام البشرية.. هل زرع بهم الصحراء.. وملأ بهم الأودية والكهوف..

عجيب.. «غومه» شيطان؟.

ولكن «عشقر» ما زال يصر على حركة التطويق.. وما زال يصر على أن يكون «أحمد باشا» قائد الحملة.. ومنفذ الخطة، رغم فشله في الجولة الأولى.. رغم رجوعه من جبال «ترهونه» بجراحات تنزف.. فليعاود الكرة.. والويل له إن عاد في هذه المرة منهزماً..

وأصدر «عشقر» أمره المشدد إلى قائد الكتيبة بالهجوم من ناحية «غريان».

وسير «أحمد باشا» قواته وطوابيره.. كان ذاك في سنة 1257 هـ.

وكان تجهيزهم.. واحتشاد عساكرهم.. وساعة تسييرهم في حفل كبير بمدينة طرابلس.. شاهده الحكام. وكبار الموظفين.. آملين أن تعود الكتيبة برأس «غومه».

ولكن كانت الملاقاة التي صدم بها «أحمد باشا» في أودية غريان أشد وقعاً ومضاضة من التي سبق أن شاهدها «بكر بك» في «وادي الهيرة».

وأعنف وأشد مما لمسه «أحمد باشا» نفسه في أطراف «ترهونه».

واشتدت الهجمات.

زادت في عنفها وعنفوانها.

ومرة ثالثة كاد يقع «غومه» في الأسر، وسقط الكثير من جنوده في المعارك.. وكثير من الشيوخ ذوي اللحى البيضاء.. والبرانيس المزركشة سقطت تحت وابل النيران التي تواصلت من الصباح حتى المساء..

كادت الهزيمة تلحق صفوف «غومه»..

فقد وقع في قبضة «أحمد باشا» سبعون رجلاً (70) من الوجهاء ومشايخ القبائل.. وسرى النبأ في عساكر شيخ البادية.

فكانت صدمة مؤلمة.. وهزة عنيفة.

وسرى النبأ في معسكر العثمانيين، وقع «غومه».

وصاح «أحمد باشا» بدون أن يتريث ويتحقق النبأ.. في لهجة سريعة،.. أوف.. عفارم.. عفارم.

وجاء لهفاناً يستعرض هؤلاء الأسرى السبعين.. هم شيوخ، على ملامحهم ظهرت علامات العزم والإصرار.. ونخوة عربية.

جاء يتأمل ويبحث في وسطهم عن غومه.. يفتش هل فيهم «غومه»..- إنه مشتاق لرؤياه.

ولكن همهمات صدرت من هؤلاء الرجال فيها سخرية.. وبدت منهم بسمة هازئة.. فإن «غومه» من أصعب الصعاب القبض عليه.

لقد اختفى «غومه».

إنه يموت ولا يستسلم.

فرسه مدربة معلمة.

وبندقيته فتاكة ساحرة.

وحذره أشد ما يكون،.. طوته الصحراء، وضمه الليل.

واكتفى «أحمد باشا» بهذا المغنم في جولته الشاقة المريرة.

حدة وشدة

. . . وساق السبعين رجلاً إلى المدينة ليقدمهم دليلاً على شجاعته.

ألا يكفي هؤلاء عن رأس غومه.؟

وتهامس الناس في المدينة.. وسرت إشاعة سريعة..

ـ غومه يا ولاد في الأسر.. غومه جابوه.

لكن الوالي «عشقر باشا» ضرب المكتب بيده في عنف، غاضباً مكفهراً، إنه لا يريد هؤلاء، بل يود مشاهدة «غومه».

وهؤلاء السبعون رجلاً، ما نصنع بهم؟..

لا بأس أن يكونوا عبرة.

وأُحضرت الحبال الوثيقة..

وفي الصباح، شاهد المارة في الميدان قرب القلعة وسراي الحاكم سبعين رأساً مدلاة.

شنق هؤلاء السبعون.. في ساعة واحدة.. وعرضت رؤوسهم للمارة، عملية فظيعة مريرة.

وكم من فظائع ومرائر في فترة الاستبداد.

وأين «غومه» في هذا الصمت المرعب؟؟

في الجبال.. والآكام.. ما زال خطره ممتداً.. واسمه كالرعب يهز أركان الحاكم.. ويقلق مضجعه.

وزاد عند الناس التوتر والاستياء.

وهذه الفعلة التي أقدم عليها «أحمد باشا» البطاش ـ شنق سبعين وعرض رؤوسهم في الميدان.. كانت ذات أثر عكسي.. إذ أن منظر الرؤوس المدلاة والعيون التي انطفأت منها حرارة الحياة.. قرب سراي الحاكم. عند القلعة..

كان هذا المنظر.. وتلك الفعلة ـ تبعث على الامتعاض وشيئاً يدفع إلى زيادة التوتر وحدة الغليان.

كان كمن يلقي النفط في النار ليطفئها.

حاول أحمد باشا أن يلجأ ـ بعد هذا ـ إلى وسيلة يهدىء بها الخواطر ويحد من فوران التوتر.. ويخفف غليان الغضب فنادى بالأمان.

ولكن أي أمان يطمئن إليه الناس منه.. وقد ذاقوا من ألوان بطشه.. أشكالاً، في الدواخل.. والمدن..

وكر راجعاً إلى خيمته بمعسكره بإحدى ثكنات ضواحي طرابلس.

كان «غومه» قد فر إلى جوف البادية.. ليعيد تنظيماته من جديد.

وعبد الجليل فر أيضاً.. لتحميه قبائله الملتفة حوله.

ولكن ألقي القبض على عبد الجليل «سيف النصر» الذي زعمت بعض المصادر أنه كان قبل وقت قصير مجتمعاً مع القنصل البريطاني «وارنجتون».. وقتل عبد الجليل في خدعة مدبرة.

وهل دبر القنصل البريطاني خطة الاجتماع حتى يسهل مأمورية القبض عليه.. لا يستبعد.. قد يكون..

وهل تجد كل الأمن.. أو حتى بعضه في مسارب ودهاليز السياسة؟ ها هو المؤرخ الفرنسي «فردد» يرى أن القنصل البريطاني «وارنجتون» كان على

اتفاق تام مع الأتراك على تلك الخطة التي دبرت للإيقاع بـ «عبد الجليل».

وعلى هذا كانوا يودون أن يتم القبض على غومه أيضاً، ولكنه كان أسرع في الإفلات..

وأكثر حذراً من شباكهم وشراكهم.

وبعد أن مكث «علي عشقر» أربع سنوات وهو يصاول فارس الصحراء «غومه».. ويسير له الكتيبة إثر الكتيبة لم يستطع القبض عليه.

والصدمات المتوالية من قوات «غومه» جعلت عشقر باشا غير مستقر في مركزه.

فضلاً عن أنه كان من أكبر هواة الرشوة، وتدل الوثائق الموجودة على حبه للارتشاء والطمع مما سبب شكاوى ورسائل عديدة ضده.

سرت الرشوة، وكثرت الزعازع، وتأرجح به مقعده.

وفي شهر يوليه سنة 1842 م ـ 1258 هـ.

استدعي من حيث أتى.. أو بلغة الوثائق التركية ـ عزل عشقر باشا سنة 1258 هـ.

وهكذا نراه فاشلاً، وصاحبه أحمد باشا، في القضاء على حركة «غومه»، أو في تحقيق طلباته الإصلاحية التي قدمها ونادى بها «غومه».

مسألة غومه

وجاءت سفينة إلى الشاطىء ـ الذي يبدو هادئاً من بعيد. . وادعاً. . كوجه السماء ولكن رمال الصحراء إذا زوبعت لا تدري متى تهدأ. . وماذا يكون.

في يوليه 1842 م. . جماد الآخر 1258 هـ.

جاءت سفينة تحمل والياً جديداً تبدو على قسمات وجهه معالم الطيبة.

فقد ذهـب عشقر.

وكانت حركة المقاومة أقوى من سواعده. . وكثرت تخطيطاته وأوامره، والدوامة أشد من ساعديه، فلم يقدر أن يخمد حركة «غومه»، بل أخذت تعنف وتشتد.

ومطالب الشعب في ملفاته راقدة تلتمس النور فلا تلقاه.

وطويت صفحة وذهب والٍ.

وجاء محمد أمين باشا.

كان هناك بجانب «عشقر» شخصية عسكرية أخرى. . أخذت تقوى وتشتد وتبسط نفوذها. . وتتدخل في تصرفات الولاية، وتطغى على الوالي. . رغم أن هذه الشخصية العسكرية لم تنتصر في معاركها وهجماتها التي شنتها قواته على «غومه» ورجاله.

وسيكون لهذه الشخصية دور في تسيير الأمور حتى في عهد «محمد الأمين باشا». الرجل الوادع الذي تبدو على قسمات وجهه معالم الطّيبة والهدوء، وتلك الشخصية التي عاصرت «عشقر» ستواصل تدخلها.. وستلعب دوراً وستسير الأمور.. تسيرها إلى الهاوية..

لأنها لا تؤمن إلا باستعمال الشدة.. ولغة العنف.. وما زالت في صدرها إحن ثقال نحو «غومه» وقبائل الصحراء..

لم ينس هذا الرجل العسكري العنيف.. مصاولاته لغول الفيافي وشيخ الجبل.. لم ينس هزيمته أمام جحافل البدوي القصير.

إنه أحمد باشا.. سيكون له دور.. وأدوار.

فلندع أمره قليلاً.. ثم نرى ما عسى أن يصنع هذا الوالي الجديد الذي تسلم الزمام بعد «عشقر باشا».

إنه محمد الأمين باشا الذي قدم إلى طرابلس في شهر جمادي الآخر سنة 1258 هـ.

كان وزيراً

وكان باشا

لا يهم هذا في ميزان المصاولات.. ولقاء «غومه»، فكم من أصحاب مناصب وباشوات.. جاؤوا.. ثم راحوا.

قد يكون تعيينه في طرابلس إبعاداً له عن الآستانة.. أو تجربة جديدة.. أو قد يكون سلم وصوله إلى هذا المنصب مبلغاً دفعه.. أو وساطة وقرابة توصل بها.. وهذا أيضاً لا يهم في ميدان المصاولات.

فنحن لا نريد محاكمته هنا.. إنما نريد أن نشاهد ماذا عساه يصنع إزاء معضلتين حار فيهما الولاة السابقون.. وكانتا محكاً لاختبارهم، بل كانت صخرة تحطمت عليها خطط سياسية وعسكرية، صخرة هشمت قوات..

وأدمت قادة. . ماذا يصنع الوالي الجديد وأمامه:

غومه وقواته المسيطرة على الصحراء ومشارف المدن. . وما زالت تشتد وتتزايد رغم محاولات مستميتة في التضييق عليه.

مطالب الإصلاح والمشاريع التي قدمها. .

مشكلتان، ذاتا فروع وجذور. .

ويظهر أن مكثه في الوزارة ببلاده. . وممارسته العبء في تلك الأجواء أثرا في حياته الإدارية. . فهو على جانب من الملاينة، وحريص على أن يكسب الأصدقاء. . وحاول أن يكون ليناً. . وأن يظهر بمظهر المهيىء للمشاريع المساهم في التجديد. . وود أن يسلك منهاجاً يبتعد عن القوة ولغة السلاح.

ولعل تجربة الولاة السابقين خير درس له، منه استفاد واعتبر، فما أفادت القسوة.

فليجرب الحكمة.

وبسط أمامه خططاً للإنشاء والبناء في هذه البلاد المحتاجة إلى كثير من الإنشاء والبناء.

وكان يصحبه عندما قدم من الآستانة. . رجل هادىء وديع على جانب من الثقافة. . والمران الإداري. .

«عزمي» بك أول «دفتر دار» قدم طرابلس،

وأعطى محمد أمين جانباً لنواحي البر وتنظيم الخيرات.

ونظر في شؤون المتصرفيات وألوية الولاية.

أسس المجالس الإدارية.

ورتب أقلام الإدارة.

ونسق الدفاتر والملفات.

ومن الناحية الاقتصادية.. اقترب من علاج المشكلة، وعمل على تنظيم شؤون الضرائب.. ونظام الجبايات، وحاول أن يخفف من حدتها.. ويحد من غلوائها حتى يكسب قلوب الناس.

وأحدث في البلد نظاماً جديداً ـ تذاكر المرور.. والهويات، وما يتعلق بالخروج والدخول ـ جوازات السفر ـ.

ومن الناحية الصحية:

أنشأ مستشفى عسكرياً كان مقره ضاحية «المنشية».

وأجرى حركة تغيرات في الموظفين والعسكريين فنراه مثلاً يرسل «بكر بك» الذي انهزم أمام قوات «غومه» في وادي «الهيرة» ويعينه متصرفاً في «فزان».

ثم يحاول أن يقترب من الشعب. وها هو الوالي الجديد يجتمع مع الأهالي ويستمع لشكواهم.. وحاول أن يجس الداء.. وأدرك عن كثب أن «غومه» يطالب بأن يكون لأبناء البلد مكان ومكانة، ومن أهداف «غومه» إعطاء مراكز لأبناء العرب حتى يسهموا في شؤون الإدارة.. وتخفيف الضرائب، وبث العدالة بين طبقات الأمة، ولهذا ثار الناس على الضرائب الباهظة.. وتململوا من المعاملة الجائرة، والتفوا حول «غومه».

وهذه مطالب حقة،.. لا ضير في ذلك... حق مشروع.

اقترب «محمد أمين» باشا من مطالب الشعب خطوة.. وما أوسع الشقة.. ولكنها خطوة تحمد من «باشا».. جاء من ضفاف البسفور.. «بفرمان». ورضا، الصدر الأعظم و«الباب العالي».

فأخذ من الأعيان والوجهاء المواطنين موظفين في السلك الإداري.. قائمقامين ـ مديرين... حسبهم هذا الآن.

ثم أخذ يفكر، هذا يكفي.

هناك مشكلة استعصى حلها بالقوة. . هناك «غومه»، الزوبعة المستمرة في الصحراء الثائرة. . ماذا يضيره لو كسبه إلى جانبه، ونفذ بعض مطالبه. .

بعض المطالب. . أليس ذلك ادعى إلى الأمن والاستقرار. وكسب قلوب الناس. . وخاصة أن «غومه» أرسل رسالة طالباً العفو عن الناس. . والمسارعة بتنفيذ مشاريع الإصلاح، ووضع حد للسلاح، وضع السلاح. . ومد يد المصافحة بشرط، العفو والإصلاح. .

وأمين باشا يفكر. . ويطول به التفكير، كان قد سمع كثيراً من النصحاء يطلبون منه ألا يعير مطالب «غومه» أذناً صاغية، وأن يضرب بيد قاسية على أصحاب الحركات والتمردات في الصحراء. ولكن. . هذا الوالي أراد أن يجرب خطة جديدة ويحاول أن يتفهم مطالب الرجل الصحراوي.

لا ضير. . لا بأس، قد يكون من الخير. . وأدعى للسلم أن يجتمع معه، وينصت إليه، ويرى ماذا يريد من رسالته التي أرسلها وطلباته التي قدمها أكثر من مرة، لأكثر من حاكم ووالٍ.

وظل الرجل الهادىء الوديع يتأرجح بين الإقدام على دعوة غومه وبين الإحجام.

كيف يقابل غومه ويهادنه؟ وقد أكد له الولاة السابقون خطر هذا الرجل. . أكدوا له في حديثهم معه. وأكدوا له في هذه التقارير المطوية في أضابير مكاتب الولاية، هذا رجل متمرد. . آبق في رؤوس الجبال. . ومغاور الكهوف. . وكثبان الرمال.

لا تثق بهؤلاء العرب أصحاب الخيول والبرانيس.

هكذا همس في أذنه «الباشوات» الذين فشلوا في القبض عليه.

وكان الوالي الوديع أرقاً. . قلقاً لهذه المشكلة.

وأخذ يقرأ رسالة «غومه» أكثر من مرة.

ويجمع المعلومات عنه.. ويقلب التقارير التي امتلأت بها أدراج المكاتب في الولاية.

ولكن مهما صوروا له «غومه» ومهما هولوا من خطره.. فإن الرجل يطلب المهادنة.. ويرغب في المقابلة.. ويقدم مطالب الإصلاح.. ورأى «محمد أمين باشا» أن يقدم على خطوة جديدة وتجربة عملية، لكن كيف تنفيذ هذه الخطوة، كيف الوصول إلى «غومه» أو كما يقول المثل الانجليزي - ربط الجرس في عنق القط.. و«غومه» معتصم بالجبال.. متنقل في الأودية.. تحميه بندقيته، وتنطلق به فرسه الجموح، وتدافع عنه قبائله.. شديدة المراس مرة الصراع.

قد يشك في دعوة الوالي الجديد.. قد يساوره شك، فقد سبق أن نكثت معه عهود، وسبق أن لدغ من الجحر مرتين.

وقضبان السجن المظلم كانت شاهداً صامتاً.

من يحاول أن يقنعه ـ أن الوالي الجديد لا يضمر حقداً.. ولا يرسم له كميناً.. ولا يحفر له حفرة عميقة.

لقد اقتنع الوالي بطلبه.. وأنه مواطن جدير بأن يأخذ مكانه وينظر في طلباته ـ ولكن كيف يجلب الأسد من غابته أو على حد المثل العامي في طرابلس ـ يجيب الصيد من ودنه. من؟؟

لا بدّ من حيلة لمن غدا ربيب الأحداث والتجارب، الحذر.. الشكاك. ومن محاسن «محمد أمين باشا» أنه كان غير متعجرف ولا فظاً فهو يقدر وجهاء البلاد.. ويستشير أرباب الحصافة.. ويجلس في مجلسه العلماء. وها هو يبسط رأيه.. ويود ـ مخلصاً ـ معونتهم في حل هذه المشكلة.

من يأتي بغومه؟

في هذه المرة يأتي به حياً.. مكرماً.. ليشغل منصباً.. ويجلس في مجلس الوالي.. في المرات السابقة كان الحكام يسيرون الطوابير والبنادق والخيالة والطوبجيه لجلب رأس «غومه».. رأس غومه بأي ثمن.

ولكن هذه المرة يختلف الطلب.. والصورة المطلوبة.

يسير إليه الوالي رجالاً من أهل المكانة والوجاهة.. ليكونوا واسطة خير.. ورسل سلام.. وسبيلاً إلى فتح باب التفاهم.

كان على رأس الوفد الذي يحمل كلمة الأمان.. وعهد الشرف مصطفى قورجي.. مؤسس المسجد المعروف في باب البحر، وهو رجل له قيمة ومكانة في العائلات الشهيرة المحترمة بطرابلس، والذي كان يشغل منصباً هاماً في عهد ـ القره مالي ـ وكان يدعو إلى الإصلاح.. ويحبذ الإصغاء إلى مطالب الشعب من عهد «يوسف باشا». قبل مصطفى قورجي أن يرأس الوفد في سبيل تهدئة الأحوال.

وتوجه مع أعضاء الوفد الذي ضم بعض رجال العلم إلى مضارب «غومه» وقابلهم «غومه». بكل إكرام وترحاب.

ونجحت وساطة الوفد الشعبي وكان التوفيق حليف الطرفين.

حياة مستقرة

ودخل «غومه» المدينة في هدوء وأمان.. وكان «محمد أمين باشا» يتشوق إلى رؤيته.. والحديث معه، فهو قد سمع عنه كثيراً.. وعلم أن القبائل تلتف حوله.. ـ فارس ـ والفروسية لها وقع السحر عند العرب.

وشاهد الوالي «محمد أمين» هذا الفارس «غومه»... عجباً، أهذا هو؟؟ كان يظنه طويلاً.. عملاقاً، ويتصوره جباراً من بقايا الأولين.. كان يتصوره ضخماً عتلاً..

وإذا به يرى صورة رجل قصير أشد ما يكون القصر.. يكاد يظنه طفلاً يتأرجح في مشيته لو رآه من بعيد..

له شارب أسود مفتول.. ويدان قصيرتان كزتان كأنهما قدتا من حديد.. وكف تكاد تكون ملساء.. عجيب، كيف تقبض هذه الكف وتمسك هذه الأصابع القصيرة بالبندقية.

وعينان تبصان وتدوران في محجرهما الضيق، بصة غريبة فيها لمعان يحمل أكثر من معنى.. من ورائها ذكاء متوقد، كث الشعر في صدره البارز من ثوبه المفتوح.. هذا الصدر مزروع بالشعر كأنه عشب أسود.. أو قطعة من جلد الماعز خيطت على ضلوعه.

في نبرات صوته حدة وشدة.

صوته أشبه ما يكون بالزئير.. وإن كان يحاول أن يتظاهر بتخفيف

حدته.. خلقتهُ عجيبة، تظنها من بقايا الأساطير.

وبرنوسه يصلح أن يلف فيه طفل.. كيف يضم فارس الصحراء؟؟ وغول الليالي.. ولكن.. ذكاءه من النوع الذي لا تلمسه لأول وهلة أو يبدو من بعيد.

وهدوء قسمات وجهه لا تدل على زوبعة وثورة.

لا يعدو طوله أشباراً.. قد يغرك مظهره.. ولا تظهر حقيقته، ولكنه بعيد الغور، وكما قال أحد شعراء ديوان الحماسة:

ترى الرجل النحيف فتزدريه وفي أثوابه أسد هصور
ويعجبك الطرير فتبتليه فيخلف ظنك الرجل الطرير
فما عظم الرجال لهم بفخر ولكن فخرهم كرم وخير

كان هذا القصير الهادىء.. مطمئناً كالذي أصر على شيء واطمأن لمصير ذلك الشيء.

هذا الفارس الذي ملأ الصحارى مواقع كأنه يطبق ما قيل عن أبي الطيب المتنبي من أنه ـ ملأ الدنيا وشغل الناس.

غومه القصير، ذو الشارب المفتول.. والعينين ذات البريق الحاد، ملأ المجالس حديثاً وإعجاباً.

ملأ الصدور.. صدور الشعب حباً وإكباراً..

ملأ صدور السلطة.. والسلطنة.. غيظاً وحقداً.

ملأ صدور الضباط والباشوات ثورة عارمة وانفعالاً غاضباً.

أهذا هو غومه؟ مزلزل كراسي الحكام؟

ها هو بلحمه ودمه.. يحيط به هؤلاء الأتباع من العرب الطوال الشداد، منهم من يكبره سناً وخطه الشيب وبدت على جبهته تجاعيد الأيام، قضى عمره على صهوات الخيل، لا يحب أن يطول به القعود على الأرض.. ومنهم الشاب

الذي وهجته شمس الصحراء يحب أن يعيش حراً في أرض آبائه وأجداده.

شيوخ.. وشباب.. كيف التفوا حول غومه.. حول صرخات «غومه» بطلهم.. وفارسهم الجريء.

عيونهم تبرق بلمعان غريب، وكان حديث العيون أكثر وأسرع من حديث الشفاه.

وعندما تم اجتماع «غومه» بالوالي ـ محمد أمين باشا ـ لمس كل منهما من صاحبه روحاً للتفاهم.. وخطوة إلى التقارب.

كان الوالي يقرب هذا الشيخ العربي ويجد في مجالسته والحديث معه عقلاً راجحاً.. وفطنة من ورائها إحساس جياش بحب الوطن ـ يريد إعطاء المواطن العربي حقه.

لا كما صورته التقارير.. أو نقله الوشاة.. أو ردده أصحاب الصدور الموتورة من أن «غومه» فظ.. جلف.. قاس.. عنود.. شقي مجرم.

بل اتضحت الصورة على حقيقتها وتكشفت الآن، فإذا به إنسان ذكي لطيف المجلس.. يحب وطنه ويغار على بني جنسه.

قاس في الميدان.. عنود في الحرب من أجل هدفه.

حلو الحديث لطيف الأسمار.. مر العداوة إذا عادى، ليّن الجانب إذا صادق جموح شموس إذا نقز.

وأهداه الوالي «برنوساً» جديداً، والبرانيس في البادية وعند مشايخ العربان كان لها وقع الأوسمة والنياشين.

ثم أنعم عليه برتبة «قوبجي باشا».

وولاه عضوية مجلس الإدارة.

ومعنى ذلك أنه يستشار ويدلي برأيه ويجلس إليهم مع إخوانه المواطنين العرب الذين عينوا معه في تلك الفترة.

فكان «غومه» في هذه الفترة، الهادئة من حياته، منشرح الصدر، مطمئن الخاطر، يرجو أن تستمر خطوات الإصلاح في سبيل تدعيم الإدارة، واحترام العرب، أهل البلاد، الذين كان دافع حركتهم عدم الإصغاء إلى مطالبهم، والشدة في معاملتهم، وتحريم المجالس الإدارية عليهم.

ترى لو فكر في مثل هذه الخطوة الولاة السابقون أمثال عشقر، ورئيف، أما كان ذلك يوفر كثيراً من الدماء التي سفكت وعديداً من الأرواح التي ضاعت من الفريقين.

وما أحسن قلب العربي عندما يكتسب، أنه لا يضمر حقداً.. بل يقابل الإحسان بالإحسان، والفضل بالفضل.

وأمن كلاهما جانب الآخر.

واستأذن «غومه» من صاحبه الوالي أن يذهب للصحراء.. ومناخ عشيرته ومضارب قبائله، ولكن ذهابه هذه المرة.. لا للنفير والهروب والنفور، بل كإنسان وديع ليصحب أهله ويقدم بأهل بيته من النساء والأولاد والأقارب والخدم، الذين تحملوا كثيراً من صنوف المشاق والمتاعب طيلة السنوات المريرة التي كان فيها واضعاً يده على الزناد.. مهدداً في صباحه ومسائه.

هل آن للشيخ أن يجد راحته - ويستذوق حياة الأسرة الهادئة، ما دام أبناء البلاد يأخذون مقداراً من الإصلاحات. وضغط الضرائب يخفف عنهم - ولا يستأثر العثمانيون والمدللون بالمناصب وحدهم.. وما هي إلا أيام حتى عاد «غومه» يصحب أسرته ويملأ البيت بهؤلاء الذين طالما اشتاقوا إليه.. وإلى الجلوس معه جلسة صاحب العائلة.

ومرت أيام هادئة.

وأمسيات وإصباحات طيبة.

يجلس الشيخ البدوي إلى أطفال الأسرة يحدثهم بلهجته البدوية الحلوة عن مغامراته وحديث معاركه.. وأنواعاً من الذكريات، ثم يكشف عن ذراعه

القصيرة الممتلئة بالشعر وصدره المثخن بالجراح. . ويقص حوادثه وأقاصيصه عن ليالي الصحراء الموحشة. . الصحراء العزيزة.

والخدم ينصتون ثم ينقلون أحاديثه وأسماره وأشعاره التي يترنم بها. . وقد يضيفون لها البهارات. . بهار الأقاصيص وشيئاً من المبالغات، - وتسري هذه المسامرات في مجالس الناس وتغدو على مر الأيام - حكايات وروايات تلتقطها ذاكرة الشعب وتضاف إلى تراث الأدب الشعبي.

في هذه الفترة اطمأنت القبائل في الصحراء، وكان «غومه» في منصبه الجديد مسموع الكلمة. . مرموق المكانة.

ومرت سبعة أشهر.

نظرات حاقدة

وبدت في نظرات أحد ضباط الإدارة معانٍ غريبة، وبدت بعدها تظهر في شكل تحرشات ومناوشات. إن محمد أمين باشا أسدل ستاراً على الماضي. وحاول أن يفتح نافذة على المستقبل يدخل منها النور.

ولكن هذا اللواء ـ أحمد باشا ـ يحاول أن يزيح كل ستائر الماضي.. بل يحاول أن يمزق كل الخيوط الجديدة.

ويوصد الأبواب التي فتحها الوالي.. ويغلق أبواب التفاهم.

فهول لواء عسكري، في صدره ثأر قديم، وغل دفين يتحرك كلما شاهد هذا الشيخ البدوي يرفل في ثياب الأمن.. ويجد الإكبار ويلقى الاحترام.

إنه موتور لا ينسى مقابلته مع «غومه» في الصحراء اللاهبة، لا ينسى هزيمته المريرة أمام جحافل «غومه» وكراته.

لا يحاول ـ اللواء العسكري ـ والباشا المنعم أن ينظر بمنظار الراحة والاطمئنان.. بل يحقد على «غومه» ويحسده على ما وصل إليه. هذا البدوي دوخه في الصحراء.. أتدور الأيام وتجري فلك الأحداث فيراه هنا في قصر الولاية يجلس معه جنباً إلى جنب في مقعد وثير، ومجلس محترم..

ويحاول أن يغمض عينيه لئلا يرى شبحاً لغومه، ولكنه ها هو.. بدمه ولحمه يمرح في أرجاء المدينة ويسمر مع العلماء والأعيان، وبيته غدا ندوة من أهم ندوات المدينة.

خرسيس . .

وغلت عوامل الحقد في صدر اللواء «أحمد باشا» المنهزم أمـام قوات «غومه»، وسعى بالوشاية وأساليب الدسّ بين الوالي الطيب الوديع وبين شيخ العربان حتى يزيح «غومه» من الطريق. . والوالي في هدوئه ووداعته أبى أن يعير الإشاعات والوشايات أذناً صاغية. . والصمم إزاء الوشايات محمدة، يحتاجها الحكام في ظروف قلقة.

وسار في طريقه يطبق المنهاج الذي أعده في سبيل الإصلاحات الإدارية، بينما كانت مراجل الغضب في غليانها.

وأصر اللواء ـ أحمد باشا ـ على معاكسة «غومه» والوقيعة بينه وبين الحاكم العثماني.

واشتدت العداوة والمنافرة حتى أخذت صورة علنية واضحة.

وضاق صدر «غومه».

وتشاجر مـع اللواء الحاقد.

وتنافرا.

وزمجرت بطانة الوالي وفرك الضباط أيديهم في حركة شامتة.

اعتقال ونفي

ثم دبر اللواء ـ أحمد باشا ـ خدعة وحاك خيوط المؤامرة؛ وعلى حين غفلة وفجأة ألقي القبض على غومه.. ومعه أعضاء المجلس من العرب.

القمودي الغرياني.

المرموري علي الصولي

ميلود بن سعيد شقرون

سلطان الترهوني

عبد الهادي المريض

وكان يود أن ينادي على جماهير الشعب ليشهدهم على منظر «غومه» الذي وقع في قبضته ـ ولكنه خشي أن يكون ذلك ادعى للقلاقل والإثارة، وفكر في أن يضعه مع زملائه في السجن الرطب.. أو قبو من أقبية الساري عند دهاليز القلعة وسراديبها، من تلك التي شاهدت ألواناً من الناس في شتى العصور.

بل شاهدت الأخ يسجن أخاه.

تلك السراديب التي ابتلعت في جدرانها تاريخاً مطبقاً.. مضى بين الأنات والآهات الصامتة.. والدموع الجافة.

وزج به ليلة في السرداب ـ ولكن ربما فكر هذا المارد القصير في التسرب من جهة... وقد يثقب الحائط من جهة البحر وربما ساعده بعض المساجين فهم

يكبرون أمثال هؤلاء... وخاصة غومه، ويرون أخباره حتى من وراء الأسوار.. ويتناشدون أشعار بطولته حتى في ظلمة الأقبية.. ورطوبة الدهاليز - هناك أيضاً تروى بطولات «غومه».

فما بالك لو زج به بينهم - إنه خطر - خطر في الصحراء، وخطر أيضاً من وراء الأصفاد والأسوار.

وفي أقرب سفينة كانت تتهيأ للإبحار إلى الآستانة، وفي هدأة الليل.. إلا من أصوات الموج الذي يصطفق.. أو الريح التي ترسل هبوبها على الشاطىء الوادع.. سيق«غومه» مكبلاً بالحديد إلى قعر سفينة، ومعه نفر من صحبه وزملائه.

وأقلعت السفينة إلى المنفى.

وعندما طلع الصباح سمحوا له بالصعود على السفينة بعد أن فك وثاقه، وشاهد تباعد المدينة وسطح البحر ينبسط أمامه.

ولم يجد سلوى إلا في خواطره التي رسمها في شعره والتي سجل فيها إحساساته في رحلة المنفى.

وسيجد منها القارىء نتفاً وشذرات في فصل آخر.

أقلعت السفينة تحمل «غومه» مبعداً منفياً بدون رغبة الوالي «محمد أمين باشا». وعندما تباعد الشراع واختفت السفينة عن الأنظار فرك «أحمد باشا» يديه مطمئناً.. وشاهد بمنظاره المكبر «جرابيل» من فوق سطح القلعة المطلة على البحر السفينة وهي تتباعد لتطوح بـ«غومه» وتزيحه عنه، ونظر إلى أصحابه الضباط المحيطين به نظرة الارتياح.

لقد ظن أنه بهذا قضى على كل القلاقل.. وقطع العقدة بدل أن يتعب نفسه في حلها، وصورت له أحلامه.. لا شيء بعد «غومه» سيستتب الأمن.. وتملأ أكياس الولاية بالجباية والضرائب وفرض الأعشار.. ستهدأ الحالة..

ستجري الرياح رخاء ما دام «غومه» ألقي به في مكان بعيد.. سيفرض كل شيء بالقوة ولو كره الشعب.

لقد ـ صنع أحمد باشا ـ ما عجز عنه الولاة والقادة السابقون.

أرسل «غومه» في ـ طرد ـ مطروداً بدمه ولحمه ـ حياً ـ ولا شك أن السلطان سيفرح بهذا وسيرسل له نيشاناً يحلي به صدره ويكافأ بزيادة رتبته.. ويكبر مقامه في عين ولاة الأمور.

هكذا حدثته نفسه.. وداعبت الأحلام رأس الضابط الذي يكاد يصاب بدوار الفرح ـ ودوار الفرح أشد فعلاً بالنفوس من أي دوار آخر ـ ولكن ماذا يكون؟ وكيف تتقبل الصحراء هذه الصدمة، كيف يرضى الشعب بهذا الانتكاس.. كيف يتحمل هذه اللطمة.؟

ثم سؤال يبدو في حينه.. سؤال لا بدّ منه.

ما دور الوالي في هذا؟.. إنه رجل مسالم كما يتضح، وقد مد يده للمصافحة، أعطى وعداً وقطع عهداً.. كيف ينقض كلمته؟..

لقد أظهرت هذه الفعلة سيطرة «أحمد باشا» عليه. وتغلبه عليه، وأحمد باشا شخصية أصبحت تتدخل في كل شيء، وتتدخل بنفوذها في تسيير دفة الأمور.. وكما سبق أن أشرنا في فصل سابق.. أصبحت شخصية تبرز بوضوح وتفرض سيطرتها بجانب الوالي.

وخاصة أن زمام الأمور العسكرية والجيش بيده.

وقد زعم للوالي أن «غومه» لا يزال خطراً.. يشكل خطراً فظيعاً، وبعد أن أتم عملية النفي في سرية وكتمان زعم له أنه إنما أقدم على نفي «غومه» من أجل الراحة واستتباب الأمن.

والأمن والراحة أسلوب أو سلاح يلجأ إليه الدكتاتوريون والعسكريون بكل بساطة وبكل سرعة.. وفي كثير من الحالات. وأبرز ـ أحمد باشا ـ هذه

الحجة.. ولجأ لهذه الذريعة. واستعمل هذا السلاح ـ من أجل الراحة.. واستتباب الأمن.

وإن كان ما زعمه وما بحث عنه كان من ضمانه وكفالته وجود غومه.

وجعل الباشا العسكري من فعلته هذه أمراً واقعاً.

فلو كان عرض على الوالي فكرة النفي لرفضها وعارض في تنفيذها، ولكن كيف يعرض أفكاره.. ويقدم على الاستشارة وقد أصبح في يده سلطة عسكرية.. ونفوذ واسع المدى في تصريف شؤون الولاية.

ترى بعد نفي «غومه».. وإرساله مطوحاً في سفينة، أتكون هناك راحة في البلاد، أيستقر الأمن حقاً.. وقد سرت في صفوف الشعب هذه الأنباء فاستقبلها بكل استياء وخيبة أمل.

ومن ناحية أخرى في قصر الحاكم.. هناك حالة من التوتر والهمس، لقد دبرت فكرة النفي والإبعاد من وراء ظهر الوالي الحاكم، وبدأ «محمد أمين باشا» يشعر حقيقة بخطر «أحمد باشا»؛ إن وجوده وتصرفاته في الشؤون الإدارية والعسكرية واستبداده برأيه، كل هذا في الواقع يشكل خطراً على الحاكم نفسه، ويزعزع كرسي الولاية من تحته.

وأسرها الوالي في نفسه، وعزم على شيء.

ولكنه ـ شأن أصحاب المراكز عندما يقعون في مآزق.. يتجملون بالصبر ويلجأون للصمت.. ويتحينون الفرص..

وآثر الوالي «محمد أمين باشا» أن يساير اللواء الذي أخذ نفوذه يشتد.. وخططه يشم منها مطامع وأهواء.

وانتشر خبر نفي «غومه» وإبعاده مع شخصيات لها وزنها في المجتمع؛ وذاع بين جميع الطبقات في المدينة وأطراف الصحراء، ورجعت الشكوك تساور حتى أبعد الناس تفاؤلاً من العرب.

غضبة وموقف

.. أخذت القلاقل تظهر بشكل أعنف وأشد من ذي قبل، غضب الأعيان، وأهل المشورة الذين كانوا قد حمدوا خطوات التفاهم وباركوا محاولات التفاهم.

ورجعت قبائل المحاميد.. وأهالي الجبل إلى لغة المقاومة التي كانت ريحها سكنت.

وفعلها ـ أحمد باشا ـ وحده فعلها ـ وحاول أن يحلها بيده. ولكن هل يستطيع، بعد أن نفخ النار؟؟

نشاهد من وثائق التاريخ ومصادره هذه الصورة.

هذا الحاجب يستأذن.

ودخل علي العزف، الضابط الذي قدم مسرعاً من جهة «يفرن» وعلى وجهه تظهر علامات التكدر والانزعاج.

قابل الضابط الوالي في مكتبه.

ودار بين الوالي والضابط «علي العزف» حديث غير هامس.. وأغلق الباب لئلا تتسرب مثل هذه العبارات الصاخبة إلى الخارج.

واشتد الجدال في عنفه.

ولا نستطيع أن ننقل ـ للقارىء ـ حرفية ذلك الحديث هنا.. ولكننا

نعتمد على مصادر التاريخ.. ونستنطق الوثائق.. والمراسلات الرسمية، من هذه المصادر والوثائق عرفنا أن الضابط «علي العزف» احتد واشتد مع الوالي «محمد أمين باشا» واستنكر القبض على «غومه» وزملائه.. ورأى أن نفي هؤلاء وإرسالهم إلى استانبول ليس علاجاً للمشكلة.. ولا هو بالحد القاطع للقضية.

إن «غومه» وراءه شعب ثائر.. وثوار آخرون في مناطق شرقية وغربية.. ثم إن «غومه» له مطالب قدمها وشرحها في عرائض كثيرة.. وأوضحها.. مشافهة.. وتحريرات.

وليست هي مطالب فردية. ولا لأغراض شخصية ـ فكان من الحكمة النظر في طلباته ودراسة أهدافه ـ والسماح لأبناء العرب في تسيير شؤون بلادهم والتخفيف من حدة الضرائب، التي يشكو منها ومن أسلوب جبايتها رجل الشارع.. والصانع.. والمزارع.. وصاحب الدكان.. وصاحب البستان.

وكان الضابط «علي عزف» يتكلم عن خبرة ومشاهدة بعد أن لمس في قبائل العرب.. سواء الرحل منهم أو القاطنين ـ الإصرار على مطالبهم.. ويرغبون ـ صادقين ـ في وضع حد لسفك الدماء والقلاقل.. والقبض على غومه سيزيد من لهب الغضب.

هذا النفي الذي سيكون كوضع الزيت في النار، كالنفخ في الجمر، سيطالب هؤلاء بالثأر، وما أشد أعراب الصحراء عندما تلهبهم رياح الغضب ويدفعهم الغضب إلى الثأر والانتقام.

ولم يجد كلام «علي العزف» أثراً في هؤلاء الذين حاكوا مؤامرة القبض على «غومه» ونفيه مع زملائه أعضاء مجلس الولاية مع أن هذا الضابط المثقف كان مقرباً.. حازماً على جانب من دقة التفكير.. واتساع الأفق.

وغضب لنقض الولاية عهدها مع «غومه».

وخرج في حدة.

ولم يتوجه الضابط «علي العزف» إلى مكتبه أو خيمته بالثكنة. . بل خرج لتوه إلى صفوف العرب لينضم إليهم. . ويكون ثائراً معهم في الجبال والأودية.

مع أنه كان لوقت قريب في مهمة إلى منطقة «يفرن» لتهدئة الحالة. . وقد اقتنع بأن العرب لهم حق وكل الحق في مطالبهم ـ وكانت هذه التطورات السريعة. والأحداث المتلاحقة صدمة عنيفة للوالي «محمد أمين باشا». . الرجل الوديع الطيب. . لقد بدأت من جديد شرارات في الأفق المكهرب.

وهذا الموقف الذي كان من الضابط الجريء «علي العزف» كما يدل من ناحية على إدراكه لخطورة الموقف وإيمانه بسلامة أهداف «غومه» وحركته. . هو أيضاً في يدنا دليل ناطق وشاهد فصيح على فساد الجهاز الإداري. . واختلال النظام في تلك الآونة. . إذ كيف يقدم ـ أحمد باشا ـ اللواء المتهور ـ على نفي غومه بدون استشارة، أو دراسة للموقف وما يترتب عليه من نتائج وعواقب. . ثم إن موقف هذا الضابط «علي العزف» حجة من ناحية أخرى ودليل على أن حركة «غومه» لم تكن أبداً حركة فردية أو بدافع من مآرب شخصية.

ضابط في القوات النظامية التركية ينضم لصفوف «غومه» وأنصاره، وكان بالأمس في إرسالية إلى الجبل ومناطقه لاستطلاع الأحوال. . في أثناء غيابه يقبض على «غومه» وينفى، ثم يقف هذا الموقف المشرف بدافع من ضميره، كل هذا من الدلائل الواضحة على ما تهدف إليه حركة «غومه».

فلم يكن إذن قاطع ـ طريق ـ أو مرتزقاً بسلاحه كما حاولت جاهدة أن تصوره الرسائل الرسمية أو سجلات المكاتبات ذات الصبغة الإدارية. . أو همسات الوشاة الطامعين في التزلف للولاية.

وليس «علي العزف» وحده، بل أيضاً هناك غيره آخرون، منهم من حفظ لنا تاريخ الحركة اسمه ومنهم من ضاع في كثبان الرمال أو تلقفته أودية صامدة. . صامتة.

•

ولم تعدم تلك الفترة الحرجة شباناً ورجالاً من الأتراك لهم فكر وروح

إصلاحية ـ وخاصة أن كثيراً من الشباب التركي المثقف أو الضباط الغيورين. . . ! أو من ذوي التحرر والمكانة ـ كانوا لأسباب عدة ينفون من ـ الآستانة ـ أو من بلادهم إلى آفاق بعيدة إلى شطوط الصحراء.

وكان من نصيب ليبيا عدد من أصحاب الفكرة المتحررة والروح التي تتفهم الإصلاح.

ولا نحاول أن نزعم أن أمثال هؤلاء كانوا بواعث حركة «غومه» وأمثاله من فرسان الصحراء. . إنما نستطيع أن نؤكد أن حركة «غومه» كانت تجد نوعاً من التأييد والعطف من هؤلاء وتلقى تفهماً وإدراكاً لثورته من المثقفين والأحرار العثمانيين.

ولكنه ـ في الواقع والحقيقة ـ عطف مجرد وتأييد في نطاق محدود قد يصل إلى مرتبة أضعف الإيمان، تأييد القلوب والعواطف. . من طبقة المثقفين المنفيين في هذه الأصقاع، وقد تكون هناك مبررات وأعذار لموقفهم هذا.

تحركات ومقاومات

ترى، أكان الوالي «محمد أمين باشا» في سكوته عن تغلب وسيطرة ـ أحمد باشا ـ عليه منذ ألقي القبض على «غومه» ومشايخ العرب. . أكان موفقاً.

أيعتقد أن الرياح سكنت، وأن الجموع الهائجة في الصحراء تتفرق. . وعادت الحركات من جديد من أبناء القبائل وأنصار «غومه»، وتوجه اللواء «أحمد باشا» ليهاجم المناطق الجبلية.

وللمرة الثانية كان انقضاضه شديداً. . وضربته عنيفة، إذ سير معه مئات من المسلحين والمدربين، وأصر على أن تكون هجمته إبادية.

وتوجهت قوته نحو غريان وموقع «الرومية» ومسارب يفرن وسد المسالك وصوب نيرانه على الخيام للعرب الرحل وكل ما يقابله في طريقه، ولو كان صاحب جمل شارد. . أو ناقة تائهة، ولو كان بدوياً متجولاً. . لا ناقة له ولا جمل. .

لكن رغم عنفوان كراته، فقد أباد المقاومون قوته، وشتتوا عساكره، رغم شدة التطويق وحركات الإبادة فإن قانون الطبيعة: الشدة تدفع إلى الشدة.

والعنف يولد العنف. .

وفي شهر صفر 1259 هـ. جهز اللواء «أحمد باشا» كتيبة وارتحل بها صوب الجهات التي أعلنت حركة المقاومة والتذمر من أجل نفي شيخهم «غومه». .

وفي بلدة «ككله» الصخرية. . ذات المسارب الصعبة تنشب معركة

عنيفة، وكانت ملحمة شديدة الوقع، هلك فيها مئات من الناس راحوا ضحية.. ولولا حماقة الباشا الذي أقدم على نفي «غومه» وعدم الإصغاء لمطالبه الإصلاحية.. لولا هذا، ما عادت هذه الإثارات.. وحك الحزازات..

معركة الطاحونة.. يوم الملقى.. أيام وأيام وأهالي البلاد يقابلون النار ويصيدون الجيش الجرار.. ويصدون التيار.. أشبه ما يكون بجيش التتار.. مع فارق الزمان والمكان.. وإن كانت عقلية «أحمد باشا» جنكيزية هولاكية.. قصدها الإبادة والاكتساح، وشعارها.. ما زعمه ابن الزيات في إحدى غرورات طيشه:.. الرحمة خور في الطبيعة.

ما أعنف ملاحم «ككله» التي سجلها شعراء البادية.. ولا يزال الشيوخ هناك.. حتى كتابة هذه الصفحات ـ ما زالوا في منتصف القرن العشرين وبعده بثمان سنوات.. ما زالوا هناك في بلدتهم يتناقلون أخبارها عن آبائهم وأجدادهم.. معركة الطاحونة بككله.. لا تزال آثارها في الصخور والتلال.. رغم قرن ونيف من الزمان.

وروح المقاومة في هذه الموقعة ومثيلاتها، أخذت طابع الثأر فاشتدت وحمي وطيسها من طرف القبائل.

وأخذت طابع العنف وانقضاض الصاعقة من طرف عساكر اللواء «أحمد باشا» حتى أنه عن جدارة استحق أن يحمل لقب.. العسكري الباطش؛ حتى أنه اتخذ من «المأذنة» مكاناً لمدافعه يصوب منها الطلقات على البيوت والناس.. حتى الآمنين أو المشتركين في المقاومة على حد سواء.

وقصة المأذنة أشارت إليها المصادر العربية والتركية والأجنبية... هي حقيقة واقعة.. وليست من تهاويل الواضعين أو مبالغة الراوين والرواة.

وبعد أن أصلى «ككله» بنيران وشواظ مدافعه وقذائفه...

توجه اللواء الزاحف في موجة غضبه إلى بلدة «يفرن».

وعسكر بها.. وحط أرجله كالجراد.. يهلك الحرث والنسل والأخضر

واليابس، معنى هذا أنه استعمل كل ما لديه من أساليب العنف ووسائل الإهلاك والإبادة.

وكان نصيب بلدة «فساطو» الجبلية لا يقل عن حظ «ككله» و«يفرن». ثم وجه عساكره إلى جهات شمالية وجنوبية، يضرب كالأعمى بعصاه يهشم أي دماغ يعترض طريقه، لقد أصر في نفسه.. بل أعلنها ـ على أن تكون جولته إبادية حتى يفوز بلقبْ الفارس الذي جعل المناطق قاعاً صفصفاً، لن يرجع منهزماً كما صنع في معاركه السابقة مع «غومه».

خلا لك الجو فبيضي واصفري..

لقد ارتاح من «غومه» الذي كوّن له «عقدة» في نفسه.

«غومه» في المنفى، بعيد.. بينه وبين قبائله وجنوده شطوط وآفاق بعيدة.

كيف يعود.. هه.. لن يعود.

إن غيبته فرصة يظهر فيها ـ اللواء أحمد باشا ـ براعته العسكرية وخططه الجهنمية.

واشتد في صولاته،

وطلب أبناء «يفرن» و«فساطو» الأمان.. ولوحوا بالرايات البيضاء أمام هذه الجحافل المنقضة.

وجاءت وفود من أهالي «نالوت» والواحة الجميلة «غدامس».. واطمأن اللواء المنتفخ وهو يشاهد هذه الوفود وتلك الرايات البيضاء.. وفرك يديه جذلاً.. ودغدغته أحلام الانتصار ونشوة الفوز.. ولكن أعاصير الجبل.. وبراكين الجبل.. وعواصف رمال الصحراء أعنف من أحلامه ونشوته.

وبينما اللواء العسكري في خيمته يرسم لسمتقبله خيوطاً زاهية.. زاهية ولو من دماء الأبرياء على رمال بلادهم.. وصخور أرضهم، وبينما كان اللواء ينسج من خيوط أمانيه كساء فضفاضاً، إذ بالأنباء.. أنباء مثيرة عاجلة..

تصل إليه مفاجئة سريعة، وكأنها رياح معاكسة لسفينة أحلامه.

وعاد من قرب «نالوت» مسرعاً عجلان.. كأنه سيل في منحدر، أو كتصوير أمرىء القيس ـ كجلمود صخر حطه السيل من عل.

فقد عادت مقاومة هؤلاء العرب عنيفة كاسحة.

وصد مقاومة هذه البلدان.. وضرب ضربته، وقطع عليهم طريق الإمداد وشدد الحصار حتى استسلمت له.

وفقدت البلاد كثيراً من فرسانها الذين يطالبون بعودة «غومه» وفك أسره.. وأطلاق سراحه. شيخ الجبل وفارس الصحراء في قيده ببلاد بعيدة.

وعاد ـ أحمد باشا ـ إلى مدينة طرابلس وهو شامخ الرأس منتفخ الأوداج فخوراً بما أقدم عليه من عنف وقسوة.. فرح بما ساق من أسلاب.. وغنائم وماشية.. فقد زعم لنفسه وزعم للناس، أنه ارتاح وأراح الناس من تكدرات ـ الشقي ـ غومه.. حيث نفاه..

وأراح وارتاحت الإدارة حيث أسكت هؤلاء المطالبين بعودة «غومه»، والثائرين بدافع نخوة وغيرية.

الصباح العنيف

ومضى عامان.

وغومه ما زال مبعداً في بلاد الأتراك.

والجبل في إحدى الفترات ساكت ـ يلفه صمت.

والصحراء صامتة وفي صمتها أنات وجراح.

وانتفخ اللواء ـ أحمد باشا ـ وهزىء بنظرية المسالمة ودعوى المهادنة.

فلتؤخذ الضرائب والأعشار بالقوة... فلتفرض الجبايات على جميع المناطق ـ إنها ستتأدب وتنصاع طوعاً أو كرهاً عندما تسمع وترى ما صنعت قواته بهذه المناطق المتمردة.

ليدخل العرب الغاضبون إلى شقوق الجبال.. أو وراء الخيام..

الكلمة للقوة.

والسيطرة للسوط

وإن لم يجدِ السوط فالبندقية.. وإن لم تفد البندقية.. فالمدفع.

ومضى ليل صامت موحش.

ومضت في أثره ليالٍ.

والجبل صامت.

والصحراء ساكنة . .

سكون يغري بالغرور وصمت يدفع إلى الاطمئنان .

غرور العسكري المنتصر .

واطمئنان الحاكم السادر .

ولكن في قصر الولاية بدت حرب خفية بين هذا . . وذاك .

بين اللواء العسكري وبين الحاكم السادر .

حرب ومناورات خفية بين الوزير الإداري والعسكري المنتفخ بين الحاكم الرسمي . . الوالي

وبين الحاكم الفعلي . . اللواء الباشا

معركة من معارك الدهاليز والسراديب

فقد أصبح الوالي في شبه حصار من قائد ـ حملة ككله ـ ومؤدب الجبل، وهو في دخيلة نفسه ـ أي محمد أمين باشا ـ ما كان راضياً كل الرضا على بعث القلاقل من جديد . . .

بعد أن أطفأ حريقاً أشعله صاحبه .

ومضى ليل صامت موحش .

في أثره ليالٍ متشابهات .

والصحراء صامتة على ما يظهر .

والجبل يلفه سكون على ما يبدو .

والريح تبدو رخاء . .

وقد ينقلب الصمت إلى صخب . . ويتحول السكون إلى زوبعة . . والريح تغدو إعصاراً .

فقد ولت سنتان على جراح «ككله».

ومضى ليل لا يشقه إلا عواء الذائب

أعقبه صباح.. صباح عنيف.

وشق السكون وقطع الصمت دق الطبل.. طبل اللقاء.

وصرخة قوية فيها دعوة للفرسان.

هلموا من جديد، فقد طال الصمت.. وتطاول الليل الموحش المظلم، ومرة أخرى، وما أكثر المرار.. وأعنف المرائر. استعدت «ككله» لحركة مقاومة ـ والعنف الذي حاول أن يسحق به اللواء أحمد باشا أصوات الشعب هناك.. إنما هو كالمحراث الذي يشق الأرض وينبت بذوراً.. وأشواكاً.. لا يسحقها.

العنف لا يسحق إرادة الناس، ولا يقتل شعباً!

إنما يولد العناد.. والعناد يولد الثأر.. والثأر في الصحراء لا يميته كر الليالي ومرور الأيام إنما يكبر ويزداد.. وخاصة إذا ارتبطت هذه الصور بالحقوق. وكرامة الأوطان.

«غومه».. وما علاقة هذا بغومه، إن هذا مرتبط بحركته كل الارتباط.. إنه ما زال بعيداً في شواطىء الأناضول.. بل في حدود وقيود في شاطىء البحر الأسود.

والضرائب في البلاد على ما كانت عليه..

والإدارة التي حاول الوالي «محمد أمين باشا» أن يرسم لها خطوطاً تقترب من التعاون مع أهل البلاد.. والتي كادت أن تنجح.

أخذت هذه الخطوط تأخذ تعاريج الفشل.. طمست الخطوط عنجهية اللواء المحتد.

ها هو مدير ككله يقوم بحركة عصيان وتشير الأوراق العثمانية أو لغة

الإدارة والتقارير آنذاك أنها ـ عصيان ـ أو شق عصا الطاعة ـ أو ـ شقاوة.

ولكنها في الواقع حركة بعثها عنف... وحركها ظلم.. ودفع إليها ثأر مبيت.. عنف الإدارة.. وظلم الحاكم..

وكانت في حقيقة أمرها.. حركة «دفاعية» لا كما وصفتها تقارير الحاكم بأنها ـ عصيانية ـ.

وكانت حركة مدير ككله كالصوت يتردد صداه قوياً.

كالجمر في الهشيم.. هشيم سريع الاندلاع والتأثير ـ سرعان ما بادرت بتأييده كل هاتيك الأنحاء.. لا عجب، في صدرها جراحات.. في صدرها أنات.. وجدت مسرباً.

وأسرع اللواء الشموس إلى «ككله» ونواحيها للمرة الثانية أو الثالثة، وقد تكون الرابعة، فالوثائق التاريخية في يدنا تشير إلى أكثر من جولة وحملة في هاتيك الأنحاء.. وخاصة «ككله»...

وأعمل فيها العنف.. وصب عليها سوط عذاب.

وعاد كاراً إلى مقر الثكنة.. أو بتعبير تقاريرهم ـ «القشلة» بضاحية طرابلس، والوالي.. الصورة المهزوزة. والقابع في كرسيه في حيرة وقلق.. كان يود في دخيلة نفسه ألا تصل الحالة إلى هذا الحد.

فلو كان «غومه» وزملاؤه العرب في المجلس.. ولو استمع لنصيحة أهل البلد، لما تفاقمت المشاكل وتطورت إلى هذا الحد..

وسكت الوالي على مضض.

وفي إحدى المرات أراد اللواء «أحمد باشا» أن يتحرك كعادته، وجهز نفسه، ولكن الوالي «محمد أمين» باشا.. الذي بلغ به الاستياء من عنف صاحبه حداً بالغاً، خشي عاقبة الأمر.. تردد في إرساله هذه المرة.

وخاصة أن هذه التحركات المتكررة والتجهيزات التي أعدها لا تدل على أن اللواء ـ أحمد باشا ـ يريد بها إرساء قواعد الأمن فحسب ـ بل هو من ناحية

أخرى يريد بها الشهرة، ولو على حساب سفك الدماء وإزهاق الأرواح.

يود أن يكون بطلاً على الجماجم، ما دام «غومه» ليس في الميدان.

ما دام «غومه» في منفاه عند ساحل البحر الأسود في ولاية «طربزين»، ثم خشي الوالي إن هو تمادى في سكوته ـ الذي طال ـ عن تصرفات اللواء المزمجر الصاخب ربما سولت له نفسه السيطرة على الوالي، والوثوب على مقعد الولاية في هذه المرة.

ويظهر لنا مدى تخوف الوالي في صورتين.

أمر أصدره.

ورسالة حررها.

فهو قد أصدر أمره بأن يكون على رأس السرية المجهزة ضابط آخر، هو الأمير لاي «إسماعيل بك».

وبقي أحمد باشا في ثكنته أو «القشله» وفي نفسه شيء.. وأشياء. ودامت المصادمة بين قوات الأمير لاي «إسماعيل» وقوات أنصار «غومه»... فترة طويلة. وكان إسماعيل بك أخف وطأة وأقل حدة من الباطش المزمجر «أحمد باشا».

وعندما هدأت الأحوال قليلاً.. عاد «محمد أمين باشا» إلى تنفيذ خطته الإدارية رغم أنف «أحمد باشا»، وسير الوالي إلى تلك الأنحاء الموظفين العرب والمأمورين ـ وجعل لأبناء البلاد نصيباً وسهماً حتى يكسب القلوب ويحاول أن يضع حداً للفوضى التي عادت بالبلاد إلى حالتها الأولى.

وحرر رسالة.

رسالة سرية هامة.

حررها ـ بعد أن طال به التفكير في خطر أحمد باشا وميله للعنف، ونفيه لـ «غومه»: كتب الوالي تقريراً عاجلاً سريعاً إلى ـ دار السعادة ـ. طالباً بإلحاح

إرجاع ـ أحمد باشا ـ إلى الآستانة، وأوضح في تقريره أن وجود هذا اللواء العنيف في طرابلس الغرب لا يساعد أبداً على تنقية الجو وتهدئة الأحوال، ولا يأمن الوالي عاقبة ما يحدث لو بقي هذا الذي نفى «غومه». فارس الصحراء، ومعه وجهاء مدينة طرابلس والدواخل.

إن وجود هذا العسكري المتهور يشكل خطراً، وليس من الحكمة بعد مصاولته في الجبال والصحارى والشطوط بقاؤه يمرح في البلاد.

وخاصة أن عنفه في ككله ويفرن أصبح حديث الناس في اجتماعاتهم الخاصة والعامة.

هذه فحوى رسالة الوالي.

وإن كان هناك شيء لم يشر إليه في رسالته وخشي من إثارته... خشي في دخيلة نفسه... لم يطالب السلطان بعودة «غومه»، مع أن هناك طلبات كثيرة قدمت من طرف الشعب، وخشي إن طالب بعودة «غومه» أن ينتهزها الوشاة به ويلعبوا له دوراً في الدوائر السلطانية، وخشي أن يستبد بالأمر من طرف آخر اللواء الطائش. وقد يجدها فرصة للتأليب، وقد يرتكب حماقة أخرى.. وفي عينيه يبدو شرر الحقد.. ولهب التربص.

وفعلا لبت استانبول مطلب الوالي «محمد أمين باشا» ودعت على وجه السرعة اللواء ـ أحمد باشا ـ.

وتنفس الوالي.. وإن كان تنفساً غير مريح، ما زالت هناك تخوفات وصعوبات.

وطلب ترقية الأمير لاي «بكر بك» وحل مكان سفاح ككله. ما زال «غومه» في منفاه.. بعيداً في بلاد تحكم وطنه على بعد آلاف الأميال.

وجاء خريف 1263 هـ.

وذهب الوزير الطيب.. والوالي الوديع الحائر.. «محمد أمين باشا» الذي

لو ترك وأمره.. ووجد حريته في تصرفاته لحل جميع المشاكل ولقرب العرب إليه.

لكنها سياسة التبديل والتغيير التي كانت تعاني منها البلاد الشيء الكثير.

حركة ميلود

. . . والمصادمة قائمة بين أتباع غومه وأحمد باشا وعساكره، والنسوة في البادية ينشدن أنشودة عودة «غومه». . . وبطولة «غومه»، وهناك في الصحراء من لا يصدق قصة أسره وإرساله إلى بر الترك أو استانبول، بل يرون ذلك مجرد أكاذيب وصورة من تهاويل خصومهم، ويرون أن «غومه» غائب في جولة. . أو رحلة أو بحد تعبيرهم ـ سفرة، لا يهم موقف الناس إزاء تصديق حادث أسر بطلهم أو تكذيب ذلك، إنما في موطن الدراسة هنا يهمنا أن نرى ما كان بعد إلقاء القبض عليه.

وكما رأينا، أثبتت الأحداث مؤكدة أن «غومه» لم يكن وحده في الميدان. . . لم يكن وحده الذي قام ليصرخ في وجه الإدارة العثمانية بل هناك ثائر آخر. . وثالث. . ورابع، هنا. . وهناك. . وفي عديد من نواحي الجبل وشطوط الصحراء تقوم حركات. . حركات مقاومة. . وحركات التفاف وتطويق، تحاصر قوات الوالي العثماني.

نحن في سنة 1844 م.

وغومه له عامان في المنفى البعيد.

ويهرب زميل من زملاء المنفى، من استانبول، يفلت البدوي الجريء. . . واحد من جنوده، إنه «ميلود»! يهرب من استانبول ـ ويقدم إلى الجبل ويكون في طليعة المقاومين.

فهو أحد أنصار «غومه» وكان من المقربين إليه، طالما خاض بجانبه

المعارك وأثخن في الملاحم، طالما أعجب بقائده «غومه».. ورآه مثالاً يحتذى في البطولة والفروسية.

وسرت في «ميلود» روح الأخذ بالثأر، فقد طال ليل الاضطهاد واشتد الحصار.. وتمركز «ميلود» أو كما تسميه بعض المصادر «ميلاد». تمركز في المنطقة الجبلية والحدود.

وأخذ يطبق الخطط التي مارسها مع صاحبه وشيخ الجبل «غومه» وأكثر من ثلاث سنوات... استمرت زوابع الصحراء تلطم وجوه القوات التي تحيرت من بأس هؤلاء.

بين مد وجزر.. وانتصار وهزيمة.. وتأبى آذان العثمانيين أن تسمع صرخة الشعب المدوية التي تعلن إرادتها.

تخفيف الضرائب والجبايات.

إطلاق سراح «غومه» وزملائه الأسرى.

العفو عن المساجين.

إسهام أهل البلاد في إدارة البلاد.

الاعتراف بحق المواطنين في عضوية المجالس الإدارية.

مطالب عادلة في حقيقتها، مشروعة.. ولكن من طرف الإدارة لا شيء يجاب إلا عناداً.. وإصراراً.. وهل يولد العناد والإصرار إلا المقاومة.. والمقاومة المستمرة في بأس شديد.

وهذا كمين في ككله، يذهب ضحيته «أحمد أفندي» نائب الوالي في تلك المنطقة وحاكم يفرن.

كان ذاك في أواخر ليلة الجمعة لنحو ساعتين بقيتا على طلوع الفجر ـ على حد تعابير بعض مذكرات ذلك العهد.

يوم 18 ذي الحجة 1263 هـ 1846 م.

وكان الكمين الذي تصيد «أحمد أفندي» في منطقة السوادنة من أرض ككله، وغنم الأهالي من الخيول ـ 55 ـ خمسة وخمسين، واستولوا على مقاليد البلدة.

وفي يوم الأربعاء عشرين من المحرم 1264 هـ أتى أبو بكر باشا التركي بحملة جرارة وقوات جسيمة لسحق أهل ككله، فوجد رجال المقاومة بمكان من الجبل وموقع يسمى الطاحونة.

في يوم الأربعاء 5 صفر 1264 هـ هربت أو انسحبت قوات المقاومة من ذلك الموضع وأطبق «أبو بكر» على «ككله».

ولندع راوية من شيوخ العلم ومن المعتمدين في رواية الحوادث التاريخية، يحدثنا عما سجله في دفتره.

ويومياته ومذكراته في تلك الحقب من أهم المصادر الصادقة.

يقول الشيخ ـ الأزهري ـ بالحرف الواحد... واسمحوا أن أنقل فقرات منه: «قامت «يفرن» ومن حولها على مدير المركز الحكومي يوم الأحد 19 رجب 1264 هـ بقيادة ـ ميلود بن الحاج ـ سعيد شقرون ـ كان منفياً باستانبول ثم أتى متخفياً وتسلل للجبل، وثار في جماعته. مات علي برساس التقاريستي.

أتى أحمد باشا في حملة هائلة يوم الجمعة 8 شعبان 1264 هـ.

وقع القتال مع أهل يفرن بموقع يسمى «ديسير» يوم السبت ـ وأخذ «ديسير» ضحوة الاثنين 1264 هـ...

في صبيحة يوم الأحد الثاني من رمضان هذه السنة 1264 هـ أخذ «أحمد باشا» أولاد علي الرياينة وضرب مساكنهم والبلد وأخذ الأموال بحيث لم يبق شيئاً على اختلاف أنواعه.. وقتل 35 رجلاً يوم الأربعاء 3 شوال.

وبعث «أحمد باشا» عمالاً لتخريب القصور وخربت؛ كان أعظمها قصر أولاد أبي القاسم الذي أنشىء سنة 1101 هـ.

يوم الأحد الخامس من جماد الثاني 1259 هـ، وقع القتال بين أحمد باشا و«قساطو» و«جادو» وأخذهم وضرب قصورهم والديار.. الخ..».

هذه صفحة من يوميات ومذكرات أحد المهتمين بتاريخ تلك الفترة ننقلها حرفياً.

محاولات

. . . وحاولت «استانبول» أن تبدل منهاجها في إرسال الولاة إلى طرابلس الغرب، وليتها غيرت في المضمون لا الإطار.

الصورة. . لا البرواز.

فهي قد سلكت في إدراتها للبلاد على أن يكون التجديد في بعث والٍ. . وإعفاء والٍ.

وعلى أن تحدد مدة إقامة الوالي في طرابلس بأربع سنوات.

ثم يذهب ويستدعى غيره.

أربع سنوات. . تحديد المدة. . . هل هذه هي كل الإصلاحات والتجديدات أو الترميمات، ومطالب الشعب. . واضحة. . مشروعة غير مستحيلة التطبيق. . ولا صعبة التنفيذ!. .

لكن تغير الولاة بكثرة. . والوضع الاقتصادي. . والمستوى الثقافي الهابط وفساد النظام الإداري المتأرجح. . كل ذلك بقي كما هو.

ما الفائدة؟!

المهم، ها نحن نرى صفحة جديدة في الإطار لا في المضمون؛ من طرف الآستانة أن الشاطىء يشاهد سفينة، لا، بل هو شيء جديد.

باخرة ترسو في الميناء تحمل والياً جديداً سنة 1847 م. جمادي الأولى سنة (1264).

جاء راكباً باخرة مع أهله، وهذه أول باخرة تقدم طرابلس من الآستانة، وفي هذه الباخرة رجع إلى استانبول «محمد أمين باشا» رحمات الله عليه، كان يود التفاهم وإصلاح البلاد.. لولا شوكة بجانبه كانت تنغص عليه ـ (أحمد باشا)... رحم الله محمد أمين.. كان طيباً ودوداً ثم جاء هذا الجديد، وأيضاً كان وزيراً وكان باشا.

محمد راغب باشا أول والٍ يصحب عائلته من استانبول. فقد قالوا له: ستمكث أربع سنوات كوامل، ولكنه لم يمكث سوى عامين.

ولم يستطع أن يرسم برنامجاً للإصلاح، أو يطبق ما كان يريده المطالبون بالإصلاح الإداري والاقتصادي. وقد تعود الشعب في المدينة أن يشاهد ازدحام الميناء للتوديع أو للترحيب.

والٍ آت.

والٍ ذاهب.

كما تعود على سماع حركات الاضطرابات في الدواخل؛ وما زال صدى حركة «غومه» في الأسماع.

هل مات وذهبت حياته؟

هل ما زال حياً يرزق؟

أتراه يحوز الرضا ويقدم الطاعة جاثياً على ركبتيه...

هل يتوسط ويعثر على واسطة فيصيبه الحظ فيعود برتبة ولقب؟

هل يستطيع الإفلات من سجنه؟

إشاعات تتضارب، وهمسات تتلاحق، وتسري، وتجري في المجالس، قصص تروى عنه، وحكايات تدور.

وفي الحقيقة أن الفارس العربي.. لا يزال في منفاه البعيد حياً يرزق، ومكث في استانبول أمداً غير قصير.

ثم خافوا منه ومن اتصالاته بأوساط حرة كانت تعطف على حركات الأحرار، وجو «الآستانة» مليء بالوجوه والوجهاء والكبراء والمبعدين المنفيين من الساسة العرب والعجم.

وفي الحقيقة أن «غومه» قدم التماساً للسلطان وطلب العفو عنه - وإن كان غير مجرم - ولكنه طلب الرجوع لوطنه وإرجاع أملاكه المغتصبة. . . وشفع طلبه كالعادة شارحاً حالة بلاده التي تمر من سيىء إلى أسوأ.

وشرح «غومه» الحالة في أكثر من طلب وعريضة قدمها، وهو في دار الخلافة، فكان نصيب طلباته وعرائضه سلة المهملات.

وما أكثر. . وما أكبر سلة المهملات في قصر السلطان باستانبول. صاح، ولكن الآذان صماء، إلا عن كلام الوشاة والجواسيس، كتب. . ولكنهم أهملوا ما كتب. . . وأشاحوا عما سطر وعبر.

وسعى غومه لمقابلة السلطان، خبطة واحدة.

فهزئوا به. . وسخروا من طلبه.

واستطاع زملاء لـ «غومه» أن يفلتوا من قبضة الأسار إلى بلدان أخرى، ثم خفية. . وبمرارة ومشقة عادوا إلى أرض الوطن. . عاد «عبد الهادي الترهوني» متخفياً متنكراً، ومن المصيبة المزدوجة أن يعيش الإنسان في وطنه، متنكراً. . أو يعيش منكوراً.

وعاد أيضاً «ميلود» كما سبقت الإشارة إليه، وقاد حركات في مناطق الجبل ومواقع ككله وعاد. . آخرون.

ولكن «غومه» ما زال ينتظر. . . ويطول به حبل الانتظار والاصطبار. وأرسلت إليه زوجته. . وأهله.

ولكنه - مع هذا - مشتاق لتربة الوطن. . مشتاق لفرسه. . وخيامه - ها

هو بعد أمد طال يكاد ييأس من السماح له بالعودة عن طريق العفو السلطاني.

فليلجأ إلى طريقة أخرى.

طرق باباً لم يفتح... فليفتح أبواباً أخرى.

وحرر الرسائل في طي الخفاء وأخذ يرسلها سراً إلى أتباعه يحرضهم على المقاومة واستمرار الحركات.

وتقع بعض هذه الرسائل في يد السلطة.

فيشد المسؤولون شعر رؤوسهم في عصبية، كيف وصلت هذه الرسائل من البر أو البحر ـ كيف يتم لغومه الاتصال بأتباعه وهو على بعد آلاف الأميال ـ هناك في شاطىء البحر الأسود في حدود ولاية «طربزين».

وأقسموا له على الخلاص.

وأقسم لهم على الوفاء.

قسم وعهد عربي أكيد.. لا بدّ من الاستمرار في المعركة إلى آخر الشوط ـ وهم معذورون في قسمهم وعهدهم فقد بذلت كثير من المساعي وقدمت عرائض عديدة من أعيان البلاد ووجهاء الموظفين العرب طالبين الإفراج عن غومه.. وإطلاق سراح أبناء طرابلس المبعدين في استانبول وحدود تركيا والقوقاز.. وهيهات.. لم تلق كل السماعي من ولاة الأمر إلا آذاناً صماء.. وشفاهاً ساخرة، رغم تجديد الطلبات والرغبات وكثرة المحاولات والشفاعات.

لكن لا فائدة ـ لقد ركب ولاة الأمر رؤوسهم... وصمت آذانهم.. وتكرر المحاولات خاصة عندما يتغير الإطار، ويقدم صاحب فرمان جديد. ويواصل هؤلاء الأكارم مساعيهم، ومنهاج الإصلاح لم يتقدم، بل ما زالت الحالة كما هي، هوة سحيقة بين الصحراء والإدارة.. بين الرعية والحاكم، لا

صلة إلا جابي الضرائب. وجالب الأتاوة. . وحامل السوط وطالب الهدية أو الرشوة للمدير أو المتصرف.

وتتم بعض الإصلاحات الشكلية في شوارع المدينة. . داخل السور، أو طبقة أخرى تجد راحة وأمناً ونوعاً من وسائل التدليل. . . أولئك المقربون إلى الحاكم بحكم الصلة في القرابة.

محاباة في الضرائب

وكان المجتمع في تلك الآنة مكوناً من:

أتراك.

كراغلة.

أولاد شيخ.

رحل أو رعية.

جاليات أجنبية.

وكان في القمة.. في رأس الهرم.. الأتراك العثمانيون.. طبقة ممتازة. يليهم الكراغلة، وهذه اللفظة تعني أبناء الجند والذين كان من نصيبهم الإعفاء من دفع الضرائب.. وشر الجبايات.

ثم - أولاد الشيخ - أي الأشراف ومن انتمى إليهم أيضاً، وهم معفون من الضرائب وهناك طلبات ووثائق تثبت هذا.

ثم يدفع الضريبة والجزية - بشتى الوسائل - غير هؤلاء.

كانت الهدايا تقدم للحاكم والرشوة متفشية، حتى سار المثل الطرابلسي «ما يفرح بالهدية إلا ولد الرعية».. أما غير ولد الرعية فهو متعود بالطبع على الرشاوى والهدايا، بحكم وضعه والنظام الاجتماعي الأعوج، وأما حضرات الأجانب فلهم امتيازات وتحميهم قنصلياتهم.

تلك القنصليات التي لعبت أدواراً في المجال السياسي والاقتصادي، وتدخلت بأنفها الطويل ويدها الطويلة حتى في سوق وشؤون البلاد الداخلية.. كان القناصل يدسون بأنوفهم.. وأثبتت الوثائق والملفات لذلك العهد تدخل القناصل بشتى الصور.. تارة في الخفاء.. وتارة مجاهرة.

وكانت القنصليات والسلك السياسي الأجنبي تفرح بما يدور على بساط الصحراء من إثارة وقلاقل.

ويتدخلون لاتساع الخرق. ويسكبون البترول على النار. وكلما ارتفع لهب.. ارتفعت حرارة الأمل عندهم،.. وكدليل على هذا التدخل سنقدم للقارىء صورة واضحة كاشفة عن مدى تدخل القناصل في شؤون البلاد وسياستها.. صورة تؤكد تدخل أنوفهم الطويلة وأياديهم الخفية والثقيلة.. ونواياهم الخفية والظاهرة.. في تلك الآونة.. أما الآن فلنعد إلى «محمد راغب باشا»، وماذا صنع في أعاصير هائجة... هل اكتسحته أم اكتسحها.؟؟

استمرار المعارك

لا تزال الحركات الاستقلالية مندلعة في البلاد من جهة الشرق ومن جهة الغرب.

واستمرت المعارك يقودها أنصار «غومه» سواء كان الوالي قديماً أو جديداً... لا يهم، إن تجديد «الرتوش» وتغيير «الفرمانات» لم يفد شيئاً، ما دام الهدف الذي سعت إليه المقاومة أبت الجهات المسؤولة أن تلتفت إليه.

بل إنها في أواخر سنة 1847 هـ تشتد الحركات.. وتتزايد المعارك وخاصة في المنطقة الصعبة «ككله» حيث نصب الكمين الذي سبقت الإشارة إليه، والذي ذهب فيه «أحمد أفندي» أو كما كتب في بعض الدفاتر «أحمد فاندي».

وتأرجح الميزان.

ورجحت كفة العربان.

هل أصحاب الجرود.. والعباءات يغلبون أصحاب السراويل الطويلة، والنياشين اللامعة.. والفرمانات الطويلة الذيل والهامش؟..

كيف يكون؟؟

ومن أين يستمد أنصار «غومه» صلابتهم.. أمن صلابة أرضهم؟ ووعورة جبلهم؟ وتهب هذه العواصف من أين؟ أمن كثبان الرمال؟ ما أعنف هذه الأعاصير الرملية إذا صفعت وجوهاً غريبة عن الكثبان.. وأجاد العرب أساليب القنص والكمين والتطويق.

مع أن «غومه» له سنوات بعيدة عنهم. مع أن سجن سراي القلعة بدهاليزه ومساربه وأقبيته غاص.. ممتلىء بأتباع «غومه» ومشايخ قبائله.

وأخذ «محمد راغب باشا» يدور كالملسوع في حجرته بسراي القلعة.. يروح ويجيء.. ويذرع الحجرة الواسعة بخطواته المضطربة.. ويحاول أن يمسك زمام غضبه لئلا يظهر اضطرابه أمام حجابه وخدمه فيسري الخبر في أرجاء المدينة.. المدينة الشامتة في صمت.. التي تصل إليها الأنباء، رغم بعد الشقة.. وعدم وجود صحافة آنذاك.. فإن القوافل والتجار الذين يتسللون ينقلون أخبار الصحراء ومعاركها بالتفصيل.

تارة بوجه الدقة، وتارة بوجه المبالغة.

هذه أنباء تبعث الاعتزاز بالعرب.. عند الناس.. وتبعث على الشماتة، وتبعث الغيظ عند الولاة.

يود «محمد راغب» أن تظل ثورة «ككله» خبراً مطوياً ـ وانقضاض الجبل شيئاً في طي الكتمان.

ولكن كيف ذاك؟ إن تكتم هذه الأخبار أمر مستحيل، والجنود العثمانيون الجرحى في المستشفى.. والثكنات يتحدثون عن الهول والذعر، والنار الموقودة في صخور الصحراء، والجبل الأشم.. تسربت الأخبار. وتدفقت الأنباء من أكثر من مصدر.

ونادى الوالي «محمد راغب باشا» على خلّص ضباطه ليعقد جلسة يدرس فيها خطة عاجلة للقضاء على تلك الأنحاء بأي ثمن.

كان ذلك في صبيحة يوم 22 ديسمبر 1847 م.

وجلس «راغب باشا» في وسط ضباطه من حملة الباشوية.. والبكوية. واستمرت المصاولات طويلاً... وكل واحد منهم يود أن يكون صاحبه قائد الحملة.. لئلا يكون ضحية كمين جديد.

ووقع الاختيار على ضابط تبدو على وجهه علامات الصرامة والاندفاع: «بشير بك».

وسارت الحملة في آخر النهار آخذة طريقها نحو.. جنزور.. الزاوية.. وبعد أن استراحت في الليل بمدينة «الزاوية»، استأنفت سيرها في اليوم الثاني صوب غريان.. وما إن شارفت على ككله في اليوم الثالث وبدت «الطاحونة» التي سجلها شعراء البادية في ملاحمهم.. وظهرت صخور البلدة ذات السمارب الصعبة، وحاذوا منطقة غربي قطيس.. ووضحت بعض المرتفعات كالقلاع، كما صور الشاعر الفارس:

تحت «القلاع» الملقى ولا يبين غير الرصاص وصلقه

وأخذت المدافع والبنادق تهطل بنيرانها بسرعة متواصلة، وكانت حملة «بشير بك» عنيفة شديدة، جعلت من البلدة وما حواليها قاعاً يباباً.. وحاصروها بحزام من نار.

ولعل «بشير بك» الضابط العنود في خطته الجهنمية كان يود أن يصبح نائباً للوالي في المنطقة الجبلية... كما كان «أحمد أفندي».. أو «أحمد فاندي» الذي ذهب به كمين أهل «ككله».. ولعله طمع في أن ينال لقب ـ باشا ـ بعد تهديمه للبلدة التي ظلت بعض أطلالها زهاء قرن وربع ماثلة للعيان.

البلدة التي ـ في معركة سابقة ـ اتخذ الضباط من مأذنتها قاعدة لإطلاق النار، ولسنا نتزيد أو نفتئت فالمصادر العثمانية نفسها تشير إلى قصة المأذنة، وإلى عنف معركة «ككله» سواء أيام حملة «أحمد باشا» أو أيام حملة «بشير بك».. عنف في أيام الوالي السابق، وأيضاً في عهد «محمد راغب».. وتوالت الأنباء.

وأخذ الوالي «محمد راغب باشا» يذرع حجرته وفي رأسه تدور أفكار متلاطمة، تارة ينقض بعضها بعضاً فلا يكاد يثبت على فكرة ولا يستقر على رأي.

هل استعمال أشد وسائل العنف يفيد؟

وإذا استسلمت بلدة «ككله» هل تسارع المناطق الأخرى إلى المهادنة.؟

وأصحاب الدفاتر يرهقون البلاد في كل ناحية بالضرائب والأعشار والتنافس في جلب أكثر ما يمكن من الأتاوة؟..

وهل يأمن عندما يضع «بشير بك» قائد الحملة التأديبية نائباً عنه في المنطقة الجبلية، هل هذا يضع أمناً ويصنع أماناً؟؟

إن ذاك كمن يدفع بالرجل في فوهة بركان.

كمن يقذف به في وجه التيار.

كل الناس في المنطقة يحمل في صدره غصة.. وفي ذهنه صورة تبعث الغيظ.. وتدفع إلى الحنق على قائد الحملة.

فخير له أن يبتعد.

بل خير للوالي أن يجرب في هذه المرة تجربة ـ ولو يسيرة، وأن يقدم على خطوة ـ ولو صغيرة.

في هذه المرة حاول «راغب باشا» أن يقترب من الحقيقة ولو خطوة، فأصدر أمره أن يعين نائباً عنه في المنطقة الجبلية.. قاسم.. الشيخ «قاسم المحمودي».. فهو عربي.. مواطن.. غير عسكري.

بل هو من أقارب «غومه».

فكرة قد تكون صائبة.

وقد تطرأ الأفكار في لهب الأزمات.. مواطن يشترك في الإدارة.. واطمأنت بعض القلوب هناك بعض الاطمئنان.. فقد كانت محاولة وخطوة ذات أثر لا بأس به، لو استمرت على منهاج سديد ولو لم تستغل هذه المسألة فيها بعد.. فقد أرادوا أن يجعلوا منه أداة. وأن يتخذوا منه وسيلة لشق صفوف «غومه» وصحبه، كما سترى في صفحات قادمات.

على كل حال، استتب الأمن نسبياً. . وعامان وأكثر والجو يبدو هادئاً، وبأسلوب البلاغات ـ كل شيء هادئ ـ لا جديد يستحق الذكر ـ.

ليتهم يعيدون «غومه» الذي طالت غيبته عن أرض وطنه، ولكنه. . ما زال في الأفق أشياء. وجاء عام 1848. . وذهب والٍ. . وجاء والٍ.

فرض الإعانة والإحصاء

في اليوم الخامس من المحرم 1265 هـ 1848 م.

جاء «أحمد عزت باشا» أو «الحاج أحمد عزت».

والبلاد رغم الهدوء المؤقت تعاني من عوامل الهزات والنكبات ومؤثراتها.. من عوامل الطبيعة القاسية..

من فساد الإدارة.. وإرهاق كاهل الشعب.. يلهبه السوط، سوط الحاكم. وهذا «أحمد عزت» والٍ عثماني جديد.. ولكن من غير منهاج أو تجديد، ففي عهده لم يستطع أن يلجم حركة المقاومة الشعبية التي كانت تبدو هادئة قليلاً.. ثم تظهر مرة أخرى قيود عنيفة، كأعاصير الرمال.. كغضبة البحر.. كبركان مفاجىء.

وأطل عام 1850 وانتصف القرن التاسع عشر.. وتفشى الوباء، وتساقط كثير من أبناء الشعب صرعى هذا الوباء الفتاك. والأطباء قلة. قلة لا يمكن أن تتجاوز تعداد اليد الواحدة.. والأدوية ووسائل العلاج والوقاية نادرة. وسوء التغذية متفش. والحالة الاقتصادية على أسوأ ما يكون، وتشير الإحصائيات الرسمية في تلك الآونة أن عدد المواطنين في طرابلس أخذ في التناقص حتى «كش» إلى خمسين ألفاً «50,000» وبلغ عدد الموتى من جراء الوباء في إحصائية واحدة من إحدى القوائم ألف شخص..

وهرب من البلاد ناجياً بجلده كثير من الناس، أقلعوا صوب جزيرة مالطه أو هربوا عن طريق الصحراء الغربية إلى تونس.

ولم يستطع عمك الحاج «أحمد عزت باشا» أن يعالج المشاكل بل تفاقم الحال.. وما زال «غومه» شيخ الصحراء في منفاه.. بدار السعادة.. يعاني شقاء الغربة. وعناء المنفى.. وأتباعه في الصحراء يعانون شدة الضيق والضنك.. والكارثة المهولة. ورغم هذا! ضرائب.. جبايات أو سوط وضرب. والمناوشات ـ بعد هدوء مؤقت.. عادت.. هنا وهناك بين القوات النظامية وأتباع غومه في الجهة الغربية، ومناوشات أخرى في الجهات الشرقية.

في هذا الجو العكر المضطرب أراد «الحاج الباشا» أن يحدث إحصاء للنفوس؛ هذه النفوس التي أكلت منها الأحداث والهجرة كثيراً..

الشعب الذي قد يصعب على الخبير الإحصائي إحصاء شهدائه في ميادين القتال.

الشعب الذي يساق منه جنود للدفاع عن راية ـ بني عثمان ـ وأطراف الأمبراطورية ـ في حقب سوالف.

والحق أن الشعب كان يهرع للدفاع عن الأمبراطورية.. بشعور إسلامي صادق وذوداً عن كيان الخلافة.

الشعب الذي انضم إلى قوات المناضلين في الدواخل أيام أن سرت عوامل الفساد في جهاز الإدارة والذي عانى من ويلات الضرائب أهوالاً، والذي تساقط الكثير منه بين الصخور والكثبان.. والشطآن يطلب منه الحاج أحمد عزت باشا...

ماذا يطلب؟

إحصاء وتعداد.. ليس هذا.. قد يكون من التنظيم الإداري إجراء إحصاء إنما يطلب بجانب هذا.. وهنا مكمن الداء وأس المعضلة..

يطلب الباشا الجديد إعانة مالية جديدة.

شيئان أو مطلبان جاءا في آونة واحدة.. ولكن يظهر أن الجو كان غير ملائم..

قد تكون فكرة الإحصاء والتعداد من حيث التنظيمات الإدارية شيئاً معقولاً، بل أحياناً تكون شيئاً واجباً. ولكن حضرات المسؤولين آنذاك لم يحسنوا اختيار الوقت ولم يستطيعوا أن يمهدوا له.. حتى يتفهم الشعب - آنذاك - هذه الفكرة، بل أحبوا تنفيذه خبطة واحدة.

أخذ المسؤولون ينفذون الفكرة، وطفق الموظفون يسألون النـاس في مزارعهم، ومضارب عشائرهم، وخيامهم، عن الأسماء والألقاب والكنية.. وعدد أفراد الأسرة.. وبناتك وأولادك.

وجاءت فكرة الإحصاء والتعداد - كما أشرنا آنفاً - مقرونة بشيء آخر.. إن الدولة أخذت تطلب الإعانة.. وإمداد الدولة العلية بالمال..

هكذا في آنٍ واحد.

وظن النـاس أن هذا التسجيـل.. والتدقيق.. والتحقيق.. وطلب الأسماء إنما المقصود به تجنيد إجباري.

وهذه الإعانة المطلوبة المفروضة.. وطلب «الإحسان» للدولة إنما هي وسيلة لجلب الجبايات.. وفرض الضرائب الجديدة.. أتاوة.. تارة في شكل استجداء وتارة بأسلوب «القبضايات».

أما كفى ما يعانيه الشعب من إثارات!؟

سؤال يظهر أنه لم يخطر ببال المسؤولين آنذاك، ولهذا استمروا في تنفيذ فكرتهم الجديدة، ورفض الناس هذه الأوامر ورفضوا أيضاً الإحصاء والتعداد ورفضوا إعطاء وتقديم الإعانات الجديدة..

إعانات بالأمر.. بالقوة.. بالجبر.. بالسخرية العقلية!!

وبدأت مشاغبات وتظاهرات لم يستطع أن يتغلب عليها - الحاج أحمد عزت باشا - فلجأ إلى استعمال الشدة والقوة - وبعد جهد جهيد رأى أن يعالج تفاقم الأزمات والمشاكل بمحاولات جديدة.

ولكن هذه المحاولات كلها كانت صورة من العلاجات المؤقتة وما هي إلا نوع من المسكنات التي لا تشخص الداء.

وعزل الحاج أحمد عزت باشا ولم يستطع أن ينجح في جلب - إعانات - مالية من الشعب، ولا أن ينفذ حتى مشروع الإحصاء والتعداد.

ذهب إلى «استانبول» بعد أن مكث زهاء ثلاثة أعوام.

صورة من تدخل القناصل السافر

في عهد الحاج أحمد عزت باشا وقعت حادثة.. تعطي صورة عن مدى تدخل القنصليات الأجنبية ـ وقد سبق أن وعدنا القارىء بإعطاء فكرة وتقديم هذه الصورة وقد أشارت إليها المراجع العربية والتركية والأجنبية.

في عهد «عزت» قدم مدينة طرابلس من أرض الجزائر جنديان من قوات فرنسا وطلبا مقابلة الوالي ـ وادعيا أنهما يريدان الدخول في دين الإسلام.

لقد شرح الله صدرهما، وهبطت عليهما الهداية.

ونطقا بالشهادتين.

والنطق بالشهادتين أمر ميسورـ لكن ترى ما الدافع الحقيقي إلى فرارهما، وكيف درسا الإسلام حتى هربا من أجل اعتناقه؟..

قد تجيب عن هذا السؤال سطور وسطور.. سطور من الأيام ماضيات وسطور في هذه الصفحات.

اتصل أحمد عزت بقنصل فرنسا بطرابلس واستوضح منه أمر هذين الجنديين الهاربين.

وزعم القنصل ـ في براءة وطهارة ـ وفي هدوء مصطنع، أنه لا علم له بهذه المسألة ـ إنه يجهل قصتهما.

وهنا وجد المسؤولون في الإدارة أنه ليس لهما إلا أن يقبلا «إسلام»

هذين.. ولقنا كلمة التوحيد، واحتفل بدخولهما الإسلام؛ وبعد نطق الشهادتين.. أقيم حفل تبريك بهيج بهذين «المسلمين الجديدين».

لا عجب أن يرى الشرق كثيراً من أدعياء الإسلام.

ألم يزعم «نابليون بونابرت» ذات مرة وهو يغزو الشرق أنه سيعلن إسلامه، وصدقه مشايخ الأزهر هناك.. الشرق طيب هكذا كان أيام زمان في نظرهم.. بل إن طيبة الولاية وسذاجة الحاج «أحمد عزت» جعلت التكريم والثقة تبلغ حدهما إزاء هذين «المسلمين» الجديدين.

فسجل اسميهما في سلك الجنود النظاميين.

ومرت أيام وليالٍ.

وكان هذان الجنديان الفرنسيان يتظاهران بالصلاة. وإطالة الصلاة.. والتسبيح والدعاء للسلطان.. وأعوان السلطان. بينما كانا يبذلان في المعسكر.. وخارج المعسكر نشاطاً وهمة متزايدة، هل هي حرارة الإيمان أو حرارة الإخلاص للوطن الجديد..

أم ماذا؟

ومر شهران. ستون يوماً..

وعلى حين غفلة تلمس الضباط في المعسكر هذين «المسلمين» الجديدين فما عثر لهما على أثر.

ولعل القارىء يذكر بيتاً قديماً كان شائعاً ومتداولاً على الألسن ويطابق هذا الحال:

صلى وصام لأمر كان يطلبه لما انقضى الأمر لا صلى ولا صاما

فقد فر أحدهما إلى الكنيسة.

وفر الآخر إلى بيت القنصل.

ـ الأول يحتمي ببيت العبادة الذي له حرمة وحصانة باسم العرف والقانون.

والثاني يحتمي ببيت الدبلوماسي، الذي له حصانة باسم القانون والعرف الدبلوماسي الذي زعم أنه لا يعرف من أمرهما شيئاً.

من يستطيع أن يقبض عليهما، ليجر مشكلة ويحدث أزمة.

لقد أتقنا دورهما وأديا مهمة كانت منوطة بهما من طرف مكاتب المخابرات الفرنسية.. بعد أن فتحت لهما الأبواب... ومهدت السبل.

وبعد أيام.. استطاعت الإدارة بطرابلس أن تقبض عليهما خارج الكنيسة.. وخارج بيت القنصل. وسيقا إلى السجن عند سراي القلعة.

وهنا قامت قائمة القنصل الفرنسي، وبدا واضحاً مكشوفاً ما كان يخفيه، وانتشر ما كان يطويه، وحدثت مشكلة وبرزت أزمة.

فقد اعتبرت الولاية هذين فارين من الخدمة العسكرية، ثم هما جاسوسان. واعتبر القنصل الفرنسي «الهمام» هذا القبض اعتداء على كرامة فرنسا وزعزعة لمركز فرنسا.. وإهانة لرعايا فرنسا التي يحميها القنصل «الهمام».. حاولت الولاية أن توضح أن طلب القنصل الفرنسي بتسليم هذين الرجلين فيه مخالفة للعهود.. ولا يتفق مع النظام.. والقوانين الدولية.

واشتد القنصل الفرنسي واحتد.. وتمطى وامتد.. وتطاول وعربد وهاج.. بل هدد وأنذر. فتفاقم الموقف وبدت أزمة خطيرة في الأفق بين قنصلية فرنسا وولاية طرابلس الغرب.

ثم تطورت حتى أن فرنسا، اتخذت هذه الحادثة ذريعة وطريقة للتدخل، وهي تعلم ما آلت إليه أحوال الولاية من الاضطرابات الداخلية بعد نفي «غومه» وفرسان الصحراء.

وذهب «الحاج أحمد عزت» إلى بنغازي لتفقد أحوالها وأوكل شؤون الولاية أثناء غيابه في جولته إلى «خالد باشا».

ومر شهر رمضان بسلام.

وجاء عيد الفطر.. وفي ثامن يوم من شوّال.. شاهد شاطىء طرابلس باخرة حربية.. تأتي من بعيد.. وظلت تمرح في مياه البحر أياماً ولا تقترب. وفي العشرين من شوّال.. قدمت إلى مرسى طرابلس.. تسعة بواخر حربية أخرى.. كلها من قوات فرنسا، وأحاطت هذه البواخر بطرابلس من ناحية البحر، وأرسل أمير لاي الأسطول البحري الراسي في المياه الطرابلسية إلى وكيل الوالي «خالد باشا» طلباً عجيباً، مفاجئاً، طلب تسليم الرجلين الفرنسيين أو.. الحرب.

وأعطاه شأن الإنذارات الحربية.. مهلة.. كم؟ أربع وعشرين ساعة،

إنذار شديد اللهجة.

وتهديد صفيق الوجه.

وهكذا أمبراطورية فرنسا تحرك أسطولها الحربي وتتحرش بولاية طرابلس مهددة بنسف العاصمة واحتلال البلاد.. ألم يسلم هذين الرجلين (الجاسوسين): لعل هذا يعطي دليلاً على مقدار ما وصلت إليه الولاية من «مكانة» في نظر هؤلاء القناصل الأجانب الذين كانوا يتدخلون في شؤون البلاد بصورة سافرة، وإذا أبدلت الراء لاماً.. لا يكون من الأخطاء الطباعية.

وسرت الأنباء في الأوساط الشعبية:

فرنسا تحاصر طرابلس.. وتضمر العداء.. إنذار تهديد.

ودفعت الغيرة على الوطن أبناء الشعب ـ رغم ما كانوا يعانون من الإدارة ـ دفعتهم إلى التجمع والتظاهر والمناداة بالدفاع وصد الهجوم مهما كلف الحال، وأبدت العساكر في ثكناتها رغبة في صد الاعتداء.

واحتشدت جموع الأهالي أو بتعبير الوثائق العثمانية ـ الرعية ـ في ضواحي المنشية، والساحل، وتاجوراء وهرعوا إلى المدينة، فمهما لقوا من عناء

العثمانيين ـ فهم إسلام وليسوا أجانب وليسوا كفاراً ـ، ولكن أصحاب هذا الأسطول الرابض مهدداً شاطىء البلاد مصوباً مدافعه. . حقاً أصحاب هذا الأسطول مغيرون أجانب.

وأبدى ـ خالد باشا ـ وكيل الوالي رغبة رفض الإنذار وصد الهجوم. . ولن يرضخ لعنجهية أمير لاي الأسطول الفرنسي، ورأى أن تسليمه لجواسيس فرنسا يعتبر مذلة وإهانة.

وباعتباره وكيلاً للوالي أرسل إليه بتطورات الموقف الحرج، بعث برسالة ضافية إلى «الحاج أحمد عزت» الذي كان في زيارة لبنغازي. . واستعد للطوارىء. . والتحصينات.

وتجمهر الشعب منادياً بالقتال وصد العدوان وخطب أئمة المساجد وتحمس الشباب. . واستعد لجولة جديدة، ليريهم كيف يقاتل أبناء البلاد عن أرضهم.

لكن غومه مطوح به في المنفى ـ غومه الشجاع، المواطن الجريء في سجنه بعيداً، وكانت تستطيع الدولة في مثل هذه الحالات والطوارىء النازلات أن تستفيد من مكانة «غومه» وشجاعته وإقدامه.

دعنا من هذا الآن. . لا لوم ولا عتاب.

وعقد اجتماع عاجل في قصر الولاية حضره أهل الرأي والمشورة من كبار الضباط والوجهاء والعلماء والأعيان.

أرأيت؟ إنهم يحتاجون إليهم في الأزمات والملمات ولو كانت هناك مشاريع إصلاح ولين في المعاملة لكان التجاوب والتقارب أكثر والتآزر أشد. .

وأيضاً دعنا الآن. . لا لوم ولا عتاب. . رغم ما في النفوس من جراحات. وقفوا جميعاً موقفاً مشرفاً وتحمسوا لصد الاعتداء الفرنسي. . ورفض الإنذار الذي يجرح كرامة البلاد.

من أجل كرامة الوطن العزيز تآزر الجميع. في كلمة واحدة في الشارع.. وفي الاجتماعات.. في كل مكان.. ولكن الوالي - أحمد عزت - صاحب الكلمة النهائية ضرب برأي هؤلاء جميعاً عرض الحائط.. وطول الحائط.. وعمق الحائط..

وآثر ألا يخوض مغامرة يتوجس نهايتها.

وفضل أن يجنح للمسالمة.. ويستسلم لمطالب الأمير لاي قائد الأسطول الفرنسي الرابض الهابط في مياه طرابلس.

ومن ناحية أخرى هناك خوف.. وتخوف، وخشي أن يجتمع الأهالي والجنود في صف واحد.. احتمالات.. وتخوفات.. قد يذهب هو.. وقد تحتل الأساطيل البلاد.. وقد، ورفض الوالي «الحاج أحمد» عزت.. فكرة المقاومة وأصر على تسليم الجاسوسين وأرسل أمره بالخضوع لطلب الأمير لاي الفرنسي.

وكان قرار الوالي صدمة ولطمة معنوية.. وفرقت وشتت جماهير الشعب الهارعة بسلاحها.. عاد أهل المدينة إلى بيوتهم، وذهب أهل الضواحي والساحل والقرى المجاورة إلى قراهم.

والأمير لاي الفرنسي رابض في عنجهية على سطح إحدى السفن ينتظر القرار النهائي من الوالي.. ومدد الإنذار ساعات أخرى..

وينظر بمنظاره المكبر المقرب إلى الشاطىء الجميل ويسيل لعابه ككلب يشاهد عظمة يود قضمها.

والأساطيل ترسل دخانها لتملأ الشاطىء بدخان كثيف. وتبعث أصواتاً مزعجة بين الفينة والفينة، حتى تبعث بهذه الحركات الرعب والفزع في قلب الحاكم العثماني.

ووافق الوالي على التسليم والرضوخ.. ولكن كيف تتم مسألة التسليم؟

وكان هناك من الموظفين بالولاية رجل وجيه المنظر.. وسيم الشكل

يجيد اللغة الفرنسية، ويتقن أسلوب المقابلات ويشغل منصب كاتب المال بالولاية؛ إنه «أمين أفندي».

وليكن الواسطة بين الأمير لاي في أسطوله وبين وكيل الوالي في مكتبه، وقام «أمين أفندي» بدور الوساطة بين الجانبين.

وأبحر لنش صغير إلى الأسطول. . وسلم إلى الأمير لاي الفرنسي رسالة صغيرة تتضمن الرد على طلبه والموافقة على تسليم الجاسوسين.

وكفى الله البلاد شر القتال.

واعتبرها الأمير لاي انتصاراً وهو ينفخ في غليونه الضائع دخانه في ضباب المدخنة. . وإن كانت نفسه تتحرق إلى ضرب المدينة بالمدافع، وانتزاع هذه الأرض وضمها إلى حوزة الأمبراطورية الفرنسية. .

وفي جنح الليل، تسلل الجاسوسان في حراسة وأمان إلى الأسطول. . وقفل راجعاً.

وكانت صدمة تحدث بها الناس. . وسجلها المؤرخون. . حتى الذين كانوا في ظلال العثمانيين، أشاروا إلى الحادثة التي تحمل أكثر من مغزى.

وأرخ الناس بها في أحداثهم.

وأين «غومه». . هل بعد بنا الشوط عنه؟

لو كان حاضراً لما رضي بالاستسلام السهل. . ولجعلها غارة شعواء.

بعد خمسة أيام من إبحار الأسطول الفرنسي قدم الوالي «أحمد عزت» من جولته في بنغازي.

في الخامس والعشرين من شوّال. . قدم مطمئناً بزوال الأسطول ولو كان ذلك على حساب سمعة الدولة. . وكرامة الكلمة، وخرق القوانين. . ولو. .

«علقة ساخنة»

في أوائل ذي الحجة 1268 هـ 16 سبتمبر 1852م.

جاء والٍ جديد ـ مصطفى نوري ـ بعد أن فشل سابقه في استتباب الأمن وكسب قلوب الشعب..

وكسابق الولاة حذره المسؤولون.. وأهل الحل والعقد والربط. حذروه.. من توتر الحالة وازدياد القلاقل، ونصحوه مؤكدين عدم الأطمئنان إلى شيوخ الصحراء.. وقادة الحركة التحررية المنادين بحق المواطن في الإسهام في الإدارة.

اضرب بيد من حديد!. ومن هنا كان خطأهم..

فاليد من حديد تعبت، ولم يلن لها شيء.. لا ولم ينصهر شيء، بل ظلت حركات المقاومة والثورة على الإدارة هنا.. وهناك.

و «مصطفى نوري باشا» كأي صاحب منصب جديد يحاول أن يرسم خططاً ويخطط مشاريع.. ويهيىء حلولاً للمشاكل التي يجدها أمامه.

وقالوا له إن حظك حسن حيث أن «غومه» غول الصحراء في المنفى بعيداً، وهذه المشاغبات يسيرة يمكن القضاء عليها.

فلو كان «غومه» موجوداً لكانت متاعبك أكثر.. وزادت شيبتك شيبات. أقبض بيد من حديد على أهالي الساحل والضواحي.. تهدأ المدينة وتستقر الأحوال.

وعزل مدير المنشية.

وقبض على نحو خمسة عشر رجلاً من «المنشية» و«الساحل» وأبعدهم... وسجن بعضاً من الناس، حتى تهدأ الأحوال ويمهد السبيل. وأصدر أمره للموظفين بأن يستمروا في عملية الإحصاء والتعداد.. وأن يفرضوا أخذ الإعانة المالية من الشعب بالقوة.

تلك المحاولة التي أقدم عليها سلفه ـ الحاج أحمد عزت ـ الويل لمن لا يقدم ـ الإعانة ـ لحكومة السلطان، فالخزينة تكاد تفرغ... على الشعب أن يدفع، ومن عصى وامتنع فالسجن فيه متسع وسراديب ما زالت تطلب مزيداً.

وليس هناك أسهل من النفي وتطويح الرجال خارج بلادهم، وتحت لهب السوط المسلط، أخذت الإعانات وقدم الأهالي الإتاوة على مضض. وهمسات تدور في المجالس والأكمام.. إلى متى؟ وتعود قصة المقاومة.. مقاومة «غومه» إلى الأذهان والألسنة.. له حق أن يقاوم هذا الضغط، وله حق عندما رفض الاتاوة عندما فرضوها جبراً على من لا يستطيع.

وعندما فرغ «مصطفى نوري» من فرض الإتاوة وجلب ـ الإعانات ـ المالية بالقوة على الساحل والضواحي والبلدان القريبة..

عند ذاك.. وجه.. مأمورية لجلب الأعشار والضرائب.. أعشار الزيتون والضرائب المفروضة على رؤوس الآدميين.. كل رأس يدفع.. يسمونها.

ضريبة «الطاقية»..

رؤوس الحيوانات.

ورؤوس الناس.

سواء في الدفع والعطاء.

وجه «مصطفى نوري» الموظفين بأقلامهم.. وسياطهم إلى الصحراء

والجبل، وفي «فساطو» بدت من هؤلاء المأمورين أساليب العنف والشدة. .
وشيوخ الصحراء والجبل يهمهمون. .

أين «غومه» ليرى هذا السيل الطامي؟

وزأَروا بعد أن أذاقوهم «طريحة» و «علقة» ساخنة أوجعت ظهورهم. .
وكانت تحية لاهبة. . وهرب الموظفون. . ناجين بجلودهم وإن فقدوا طرابيشهم. .

فزحف «أحمد باشا» الصغير. . وهو ـ غير أحمد باشا ـ الذي أشرنا إليه سابقاً والذي هزمه «غومه» والذي طلب إبعاده محمد أمين باشا.

وعسكر «أحمد باشا» الصغير هناك أياماً وثار للمأمورين المنهزمين الذين أوجعتهم «طريحة» الجبل وأهل «فساطو».

ومضى عامان ونيف.

لا جديد إلا فرض الإعانات المالية. . وجلب الأعشار والضرائب بالقوة.

نحن الآن في سنة 1271 هـ.

عودة غومه

كان غومه الذي أسر في عهد «محمد أمين باشا» 1842 م استطاع الإفلات من المنفى وتجول في تركية.. وسافر إلى أوروبا وبعض الجزر والشواطىء في البحر الأبيض.. ثم وصل الجزائر. وخفية تسلل إلى تونس.

رحلة شاقة.. وجولان خطير، عام 1854.. بعد أن مكث في الآستانة و «طربزين» وعدة أماكن منفياً إثني عشر عاماً.

منها سنتان في التجول بأوروبا وبعض جزر الشواطىء وشمال إفريقيا.

كيف استطاع الإفلات من حراسه...

هل كان حراً في تنقلاته بتركية حتى تمكن من الإفلات.. كيف أفلت الأسد من قفصه، وأين عيون الدولة المنتشرة في كل رقعة.

للهروب خطة محكمة.. خطة جهنمية، وقد يكون للرشوة أثر في تمهيد وسائل الهروب حيث كانت الرشوة متفشية هناك.

وقد يكون وجد مساعدة على الهرب والإفلات من بعض الأحرار الذين كانت تموج بهم الآستانة من الساسة المنفيين هناك، والمغضوب عليهم من العرب أو الأتراك على السواء؛ وقد سبق أن أفلت من زملائه «ميلود بن سعيد» الذي عاد بعد عامين من منفاه وقاد حركة الجبل ـ كما سبق أن أشرنا ـ وهرب من المنفى أيضاً ـ عبد الهادي الترهوني ـ وغيرهما.

ليس من الصعب الإفلات من المنفى ـ ولكن كيف طالت مدة نفيه،

«غومه» مكث أطول مدة مكثها عربي في المنفى - في تلك الآونة.

قد يكون لذلك سببان.

طمعه في أن يأتي عفو من السلطان أو الصدر الأعظم فيعود لوطنه عن طريق أسهل.. وقد طرق هذا الباب عدة مرات.. بل حاول أن يحظى بمقابلة السلطان وأن يعرض مطالبه وقدمها مكتوبة مراراً.

وتوسط أيضاً بقنصل فرنسا وبغيره من القناصل راجياً أن تحل المشكلة عن طريق المسالمة، ولكن مساعي الوساطات والطلبات فشلت.

هذا سبب.

ثم كان التضييق عليه أكثر من أصحابه؛ لهذا طالت مدته.

ثم أرسلت له عائلته هناك.

وقبض على ابنه عندما عاد من المنفى وأخذت منه استجوابات.. نقدم بعد صفحات منها صورة كما عثرنا عليها ضمن وثائق ذلك العهد.

فإذا هو يئس من العفو.

ويئس من سماع شكواه.. والنظر في طلباته.. بعد انتظار طويل ونفي مرير في ساحل البحر الأسود.. وحدود القوقاز.. آثر العودة.

ومع أن أوصافه كانت معروفة لدى دوائر البوليس العثماني.. وطيرت أوامر بالقبض عليه إلا أنه في خفة تسلل في سفينة.. ثم أخذ ينتقل بوسائل أخرى من وسائل النقل.

كيف كان يعيش.. ويصرف في رحلته العسيرة الشاقة وهو مقدم على بلد أجنبي.. لا بدّ أنه صحب معه صرة صغيرة من العملة الذهبية التي وجد فيها لغة تفهم في كل بلد.. ولهجة يفهمها الناس جميعاً.

ثم هناك إعجاب به، وساعده كثير من أعيان العرب والكبراء في البلدان التي كان يحل بها.. في الجزائر.. في صحرائها. في تونس وأطرافها.

ونلقاه في تونس العربية ينزل عند بعض القبائل من رجالات الحدود تارة في الخيام.. وتارة يذهب للعاصمة.. أو صفاقس.. وقابس.

مكث في تونس، أمداً غير قصير يترقب الأحداث وتصله أنباء الوطن.. ولا عجب.. كانت تصله وهو في حدود القفقاز في ساحل البحر الأسود فكيف لا تصله وهو الآن في تونس.. في حدود بلاده.. وعلى مقربة من مناخ عشائره.

وبين الفينة والفينة يصله أحد الشيوخ من أقاربه، فيما كانت الحدود صعبة الاجتياز ولا كانت المراقبة تستطيع القبض، بسهولة، على أبناء الصحراء.

هؤلاء عرب أدرى بمسارب بلادهم.. أدرى بالدروب والمسالك ومنعرجات الفجاج، إنهم خبراء الحدود.. حقاً.. لا هؤلاء الضباط الآتون من ضفاف الدردنيل.. وشواطىء البسفور.

وبقاء «غومه» في أرض تونس حراً طليقاً أقلق من غير شك مضاجع الحكام في طرابلس ـ ولكنهم لا يستطيعون صنع شيء وهو على الأرض التونسية، وهو بعيد عنهم.. يكفي أن يقيهم شره فلا يعكر عليهم في صولاته العنيفة في الميدان.

ورغم تحنان «غومه» الشديد للعودة إلى وطنه.

رغم تلهفه إلى حصانه وبندقيته، وشوقه إلى نجوعه ومضارب عشيرته فقد وجد في تونس إكراماً وإعزازاً.. وخاصة في أهل البادية وقبائل ـ المرازيق ـ والجريد، والعرب الأقحاح الذين تجري في عروقهم دماء عربية مهما تطاولت السنون وتباعدت الآفاق ـ واتسعت البلدان فلا يزالون يحافظون على الفطرة العربية والتقاليد العربية والاعتزاز بأبناء العروبة.. وإكرام الحمى.. والإعجاب بالبطولة والفروسية... فالشيخ «غومه المحمودي» وجد هناك راحة نفس أحسن من تجولاته في شواطىء البندقية أو جبال سويسرا أو النمسا..

بلاد شاهدها ومر بها سريعاً. . مروق السهم لا يودّ أن يستقر بها، شاهد شوارع أوروبا. . ولكنه بدوي توّاق إلى الحرية والقباء. . اتذكر بيت «ميسون» البدوية عندما رفضت حياة القصور والدور!. .

لبيت تخفق الأرياح فيه أحب إليّ من قصر منيف

وجد ترحاباً في باديّة تونس وخاصة أن معاركه وقصة بطولته سرت في مضارب البادية عندهم سريان قصة أبي زيد الهلالي وبطولات الأدب الشعبي القديم، يطلب التحرر لوطنه من الاستبداد ويدافع عن حمى البلاد.

يصيد الأساطيل. . يهزم الجحافل. . ويكر على فرسه.

من لا يرحب بغومه. . حتى النساء من وراء حجاب وبراقع يتلهفن على مشاهدة «غومه» بطل الصحراء. .

ومكث في تونس زهاء عامين.

ولم ينسه ترحاب تونس الخضراء والإعزاز من أبناء عمومته وطنه وصحراء طرابلس.

ما زال يترقب الأحداث ويقيس.

لا بدّ أن يعود إلى أول أرض مسّ جلده ترابها.

وهل يسلم نفسه بضاعة رخيصة. .؟

أيدخل البلاد على حين غفلة؟

ولكنه إن رضي أن يبقى فرداً عادياً ويعيش هادئاً في تونس والجزائر فلا يستطيع أن يعيش منعزلاً. . ويبقى فرداً عادياً في بلاده.

وبدأ يفكر في العودة. . ويرسم خطوطاً.

وهؤلاء مشايخ المحاميد يجبذون له العودة،

وهؤلاء مشايخ من كرماء تونس يجبذون له البقاء عندهم هادئاً، وهذه

مشاعر تحيط به تدفعه إلى العودة.

طال سكوته.

والحالة في البلاد كما هي.. ضرائب باهظة.. وأسواط لاهبة.. ويد من حديد تواصل الضربات ليلين لها كل شيء.

وإدارة مختلفة.. وغطرسة.. وأبناء العرب في شؤون بلادهم لا يسهمون.. «غومه» على الحدود.. يسمع.. وينقل إليه كل شيء.. هل يطول به السكوت ويستمرىء الراحة؟.

ومضت سنتان، من ساعة أن انفلت من المنفى..

كان ذلك الذي مكث فيه عشر سنوات نفياً بالإكراه والقوة.

فهل يبقى بعد انفلاته ساكتاً ويحكم على نفسه بالإبعاد.. وهو على قيد خطوات من بلاده؟؟ مسيرة ليلة.. ليلة هادئة فيطلع الصباح فيكون في أرضه.. أرضه الحبيبة.. ومحبة الوطن عالقة في الفؤاد..

ثم ما نهاية الشوط وإلى أي مدى يستمر التعيين والعزل في الولاة بطرابلس.. هكذا من غير أن تبدر بادرة إصلاح.. ولا تفهم للمطالب التي قدمها «غومه»... هناك مثل عامي يردده أبناء الصحراء «تبديل السروج فيه راحة»..

وقد وصلت الأنباء إلى غومه بإبدال والٍ جديد.

إنه «مصطفى نوري».

فليحاول معه.. ولتكن المحاولة سلمية.. وحرر «غومه» طلباً مدعماً بالأدلة.. طالباً السماح بالعودة إلى أرض آبائه وأجداده.. والرجوع إلى مناخ عشيرته.. ومراح طفولته.

ولكنه ليس فيه الرجاء المحض والتزلف فقط.. بل هو يرجو أن يعير الوالي أذناً صاغية لمطالب الإصلاحات.. وإراحة الشعب.. ووضع حد

للزعازع التي أهلكت الحرث والنسل.. وأتت على الأخضر واليابس، إن بقي في البلاد حرث.. وإن بقي فيها من الخضرة ظلال..

وهذه الرسائل التي حررها غومه سواء في منفاه أو في سجنه أو في عزلته وهجرته.. بالجزائر وتونس أم حررها أثناء المصاولات كلها تشهد بأنه كان صاحب هدف ورجل يسعى لتحقيق مطالب إصلاحية وأنه يود من صميم قلبه خالصاً أن يصل إلى مطالبه عن طريق المفاوضة والمسالمة..

ولكن هذه العريضة أو هذا الطلب وصل إلى «مصطفى نوري».. وقرىء في مجلسه مراراً.. وأطبق الورق.. ثم وضع على الرف.. أو في الدرج.. أطبق ولف.. ورأيناه بعد مرور مائة وعشرين عاماً مطبقاً.. مطوياً في ملفات وأوراق ذلك العهد، لا جواب. لا رد.. لا صدى..

وبالتالي لا أمان.. لا نافذة يدخل منها ضوء الأمل.

وقدم غومه طلباً إثر طلب، وانتظر وطال به الانتظار ولم ييأس، وحاول أن يفتح باباً للمفاوضة وأرسل مندوباً عنه ليقابل الوالي.. ليحدثه عن رغبة «غومه» في العودة.. وليكن الالتقاء في منتصف الطريق بتنفيذ بعض المطالب إن لم تكن كلها.. فالبلاد ما عادت تتحمل كل هذا الضغط.

إن «غومه» عندما قبض عليه كان في مركزه.. كان في إدارته، فليعد إلى مكتبه وليعد حقه المسلوب منه ومقعده المغتصب إليه. ولكن هذا المندوب الذي أرسل من طرف غومه.. كل كلامه في نظر حضرة الوالي إنما هو مجرد طمع من غومه.. طمع في أن ينال وظيفة في وطنه، هكذا فسر مطلبه وكان الجواب:

وظيفة يوك!

أي لا وظيفة.

وحضرة الوالي لو كان يود التفاهم ويرغب في الانصاف وأقدم على هذه الخطوة لكان في جولته السياسية رابحاً فما يضيره لو عين «غومه».. في وظيفة.. بل الأصح لو أعاد «غومه» إلى مركزه.. فقد ألقي القبض عليه وهو

يشغل منصباً.. لو أعاده لبرهن مصطفى نوري على أن العثمانيين يتقربون إلى العرب. وبالتالي لاستطاع أن يكسب القبائل التي تقدر «غومه» وتكبر شأنه.

ومرة أخرى ماذا يضيره لو حاول أن يعقد صلحاً ونفذ بعض المطالب الإصلاحية التي قدمها وطالب بها «غومه».

ولكن «مصطفى نوري» كان شأنه شأن كل مسؤول: يغلب الشكليات الإدارية على الناحية السياسية.

فكان لا ينظر إلى طلبات غومه.. بل ينظر إلى التقارير المرسلة من طرف رجال الإدارة.

وكان أيضاً ينظر بمنظار الحاكم العسكري..

ولا يحاول أن يبدل النظرة.. أو يغير المنظار ولو قليلاً.. وأن يجعل للمداراة وأسلوب المسايرة والملاينة سبيلاً.

ولم يحاول ـ مصطفى نوري ـ ولا أسلافه الذين توالوا على الولاية أن يعالجوا قضية المطالب الشعبية بالحكمة والرفق.. ونسي هؤلاء حكمة مجرب قديم.. وما أحرى الحكام أن يضعوها على مكاتبهم بجانب التقارير والقوانين..

كلمة صغيرة في سطر:

تكتسب القلوب بالرقة والسياسة لا بالقسوة والصلابة.

رفض الوالي طلب غومه... واعتبره خارجاً على القانون، وطبق حرفية الأوامر الصادرة إليه من الدار العلية.. أو الباب العالي، والصدر الأعظم.. وتكدست مطالب «غومه» وطلباته.

ومن هنا.. وجد «غومه» نفسه في حل من الدخول من أبواب أخرى.. باب الصحراء أوسع من باب الطلبات.

وطريق القوافل ليلاً.. أسهل من طريق ود سلوكه.

وجهز نفسه.. وحشى بندقيته، وأعد سرجه وعليقه.

وودع الخاصة من صحبه في تونس.

وليبدأ الكرة، فقد ذاق طعم الأسر والسجن وعانى مرارة النفي في بلاد بعيدة، وذاق الهجرة.. ومكايد الغربة، وليالي أرقات وراء قضبان السجن، ما عسى أن يكون أشر من هذا؟

واشتد به الغضب.. وتملكه الحماس، ولا عجب، لم يجد مركباً إلا هذا وقديماً قال الشاعر:

إذا لم تكن إلا الأسنة مركبا فما على المضطر إلا ركوبها

وركب الليل.

وامتطى الجواد.

ويمم «غومه» نحو الجبل مرة أخرى وملأ رئتيه من هوائه النقي.. وعيناه تدوران في محجرهما بحذر.. إثنا عشر عاماً.. هل يذكره أصحابه، وأنشد شعره عندما ظهرت بعض المعالم التي شهدت ملاحم ومعارك:

بان القلاع وبانت الطاحونه زعم ناسنا بعد الغياب نسونا
يا بجاه من رزقه أكثر من خلقه لم بينا في يوم هابي عونا

* * *

الأسد يعود إلى مسارحه

كان دخول غومه إلى بلاده في رمضان 1271 هـ ـ 1856 م.

وبدأت الحركات من جديد.. والتفت حوله القبائل.. وكان لعودة «غومه» أثر في اشتداد المقاومة، ونادى نفسه «محرر الجبل» ولم يكن متردداً في إعلان مطالبه بصورة أوضح في هذه المرة.. تلك المطالب التي وجدت في نفوس الناس أكثر قابلية من ذي قبل، وخاصة أن قصة بطولته... وتحمله للمشاق وأسره.. وافتكاكه من المنفى بأسلوب عجيب وجرأة نادرة.. كل هذا أضفى عليه صفات تكاد تجعله أسطورة خارقة للعادة.

التفت القبائل حول غومه أكثر من ذي قبل فإنهم لم يجدوا بعد إبعاده ونفيه شيئاً جديداً يبعث في نفوسهم الاطمئنان والأمان. وفي الجولة استطاع «غومه» أن يسيطر على الموقف، ومضى في خطته كالصاعقة.. مندفعاً كالموج.

وأخذ «مصطفى نوري» يحاول أن يصد بكل قوته هذا التيار الذي ما كان يحسب أنه سيجرفه بهذه الصورة.

وساورته شكوك وانتابته أوهام..

أما كان خيراً له لو أصغى لمطالب «غومه» وأعطاه كلمة الأمان.. لوفّر على الإدارة هذه الكتائب المسيرة.. والفرسان المجهزة التي هزمها البدوي الثائر..

والهجمات تتوالى بسرعة ـ وسرت أنباء عودة غومه في شتى أنحاء البلاد ـ

وخشي الوالي أن يفلت زمام الأمر من يديه.

.. و «غومه» بعد أن أتى ناحية «بني يزيد» ـ ومطماطه سنة 1271 هـ. أخذ يدخل البلدان دخول الظافرين بعد غيبة إثني عشر عاماً.. يلاقي الشعب جحافله وخيوله بالزغاريد.. وأناشيد الشعر الملحون ودق الطبول.

ويكر الفارس بسرعة.

يدق أبواب العاصمة.

ويكاد يزعج «مصطفى نوري باشا» في مكتبه الفخم.. وداره الوثيرة.. وهدوئه المصطنع.. فقد استولى على القوات النظامية وبعض من الضباط انضم إلى صفوف العرب.

وشاهد الأهالي «غومه» وهو يستعرض ما غنم من قوات.. مدافع.. بنادق.. سيوف.. ثم يرقصون رقصة الفروسية.. وتدق الطبول طبول الميدان.

ويستمر النفير في حركة انتحارية.

رغم الجفاف.. والجدب.. مشكلة الصحراء الدائمة قبل تفجر البترول الذهب الأسود. رغم الجفاف اللعين.. والحصار المضروب على الأسواق.. كانت القبائل تسرع بتموين قوات «غومه»، وكان جنوده يجدون القوت والذخائر وكل مؤازرة.

كان الشعب يفر من دفع الضرائب والجزية للعثمانيين.

ولكنهم عن طيب خاطر ـ وتقديراً لـ «غومه» وحركات «غومه» كانوا يسارعون بإمداده بالمال.. والطعام.. والرجال والسلاح، فهي حركة أثبتت أنها تعتمد على الشعب.

بينما كانت قوات الوالي العثماني حائرة في هذا السيل الجارف الذي لا يعرف أهله إلا رقصة الطبل.. والطبل كان موسيقاهم والشعر الحماسي ينطلق أهازيج نارية من حناجرهم.

وهلعت قوات «مصطفى نوري» وهي ترى أودية الصحراء تسيل بهذه الآلاف من العرب أصحاب العباءات والجرد والطواقي الحمراء ذات الزر الأسود الطويل.. أو الملثمين بعمائمهم البيضاء.

والوالي في مأزق إزاء هذه الهجمات واللطمات.

مأزق سياسي.

مأزق عسكري.

إذا هزم فهو بين شرين.

شر في الداخل.. وشر في الخارج.

فإذا قدر لغومه أن ينتصر ويقبض على الوالي سيغدو عند ذاك أمثولة أو أضحوكة بين طبقات الشعب.. وكرامته ومركزه تداس في الطين.. تدوسها سنابك الخيل.

وشر من الخارج لو انتصر «غومه» ورضخ لمطالبه كيف يكون مصير «مصطفى نوري؟» عند الباب العالي.. وأعتاب الباب العالي، وحلقات الباب العالي ـ وساءت الحالة الاقتصادية، وحاصر الوالي هذه المناطق المتحركة، حاصرها وضيق عليها من ناحية الإمداد.. ضيق الخناق على الأسواق.. والمزروعات.. والبضائع، فلا يخرج شيء من «المدينة» ولا من الجهة الشرقية نحو المناطق التي يعسكر فيها جيش «غومه». ورغم هذا.. صمدت قوات الفارس البدوي لهذا الحصار الاقتصادي والنقص في المؤونة، ورغم ذاك تكاثرت جنوده واشتد الحماس..

وسير جموعه إلى متصرفية الجبل.. وحاصر المتصرف حاكم الجبل ودارت المناوشات.. وكاد أن يستسلم ـ المتصرف ـ واستنجد بالوالي ليمده بنجدة تفك حصاره.. وتنقذ ما تبقى من سمعة الإدارة... وهيأ «مصطفى نوري» كتيبة أخرى مجهزة بالعتاد، وأكد لهم أن رأس «غومه» هو الهدف مهما كلف الثمن.

كان على رأس الكتيبة ـ أمير لاي ـ وقائم مقام ـ وقومندان ـ قوة فيها

خيالة.. وطوبجية.. وفرسان من الأتراك والعرب.. الأمير لاي إسماعيل بك ـ وقائم مقام الطوبجية ـ مصطفى بك ـ واختار معهم في هذه الحملة عربياً حتى لا تكون ذات صبغة تركية محضة.

اختار معهم قومندان خيالة العرب «محمد آغا أنديشه» الذي كان من وجهاء البلاد.

وعسكروا في مداخل الجبل.. وكل منهم صور في نفسه مصيره المؤلم لو واجه «غومه».. ولكنهم تظاهروا برباطة الجأش.. والرغبة في لقائه، وفجأة في الهزيع الأخير من الليل بدل أن يفاجئوا قوات «غومه» بالهجوم ويباغتوه بالمحاصرة.. إذ بجلبة في معسكرهم.. وذعر فرسانهم، فقد أشرف عليهم «غومه» من رابية وهو يصرخ بنداءاته التي تلهب جحافل أتباعه.. وتفزع جحافل أعدائه.

ويك.

هو «غومه» البادي بالزحف عليهم، يطوقهم في هذا المنخفض في مكان يسمى بالرومية وهو من أودية الجبل، وفي الطريق المؤدي إلى يفرن.

وهلك كثير من عساكر الحملة.. رغم أن بها كثيراً من الضباط المدربين وفرسان الخيالة ـ ولكن تعطش العرب إلى خوض المعركة وتلهفهم إلى اللقاء وشفاء غليلهم بدىء في هذه الجولة التي كانت من أولى الجولات التي قادها «غومه».. بعد عودته من المنفى، ومسيره من بني «يزيد» و«مطماطه» التي ارتاح فيها قليلاً. وقائم مقام ـ الطوبجية ـ لم يرعب أتباع «غومه» لأنهم بفطرتهم «بنادقة» يصوبون أكثر منه. وقومندان الخيالة ـ لم يفزعهم لأنهم خيالة وفرسان.. خيالة وطول عمرهم على صهوات الخيل.. ومنعطفات الجبل ومسارب الصحراء وفجوجها يعرفونها أكثر من ضباط الحملة الذين يعرفونها على الخريطة. فر «مصطفى بك» قائد الحملة منهزماً.. وقوات «غومه» تطارده، وقدم «غومه» مركز متصرفية الجبل... واقتحم مبنى الحكومة وضبط ما كان فيه

من الأوراق والمهمات والمال. . واستولى على المدافع والعساكر. . وسيطر على الموقف بحزم وإدراك. .

وهنا نقطة يجب أن تلاحظ. . وموقف يجب ألا ينسى في تحـركات «غومه». . موقف أشارت إليه حتى تقارير الإدارة العثمانية، وأشاد به حتى خصومه الذين شاهدوا التحركات والمناورات. .

مع إن «غومه» أصبح مسيطراً على كافة المنطقة. . والهازم لقوات الحملة المجهزة المنظمة، إلا أنه ضبط هذه الأسلحة التي استولى عليها. . والأوراق الرسمية والسجلات. بل وحتى المال الموجود بمركز الحكومة بالجبل. . خزينة المتصرفية.

جمع كل هذا وضمه.

قبل أن تعبث به يد أخرى،

لم يحرق الأوراق.

لم يعبث بالأدوات. . لم يمد يده للمال.

كان يستطيع ذلك، وخاصة في مثل هذه الساعة التي هلل فيها أتباعه يرقصون رقصة الفروسية بدافع من نشوة الانتصار.

إنما صنع ما لا يخطر بالبال.

ضبط كل الأوراق.

أتدري ما فعل به، مال. . وسلاح. . وأوراق رسمية؟

جمع مشايخ القبائل وأطلعهم على رغبته في أنه سيرسل كل الغنائم والأسلحة والذخائر. . والمال الموجود في المبنى الحكومي يرسل كل ذلك كاملاً غير منقوص. . إلى. . الوالي مصطفى نوري. . القابع في مكتبه بمدينة طرابلس منتظراً رأس «غومه».

كيف أقدم الفارس العربي على هذه الفعلة؟ أهي حماقة؟ أم تردد وهم الذين خاضوا معركة الصحراء وانتصروا؟.

وكانت تساؤلات،

وعجبوا أن يتصرف «غومه» هذا التصرف المفاجىء.

وأبان لهم عن مقصده.. إنه صاحب مطالب.. إنه يود أن يبرهن أن حركته للدفاع عن حق المواطنين. وليست حركة نهب وسلب وغنائم - كما تحاول أن تزعم الإدارة العثمانية.

يريد «غومه» أن يبرهن بدليل عملي على خلق العربي الكريم وشهامة المقاومين.. يريد أن يمحو فكرة علقت بأذهان العثمانيين الذين عملوا جهدهم لتشويه حركة العرب.

ولم يحاولوا أن يتفهموا مقصده.

قالوا إنه قاطع طريق.

وزعموا أنه لص جريء.

وأشاعوا أنه شقي متمرد.

وأذاعوا أنه متصل بدولة أجنبية ويلعب دوراً مع القنصليات.

إشاعات.. ومزاعم.. وصور وألوان من الاتهامات والادعاءات طويلة عريضة.. ولكن ها هو «غومه» يقدم على خطوة تقطع عليهم الأراجيف.. وتضع النقط فوق الحروف.. كما يقولون في الأساليب الحديثة وإن كانت الحروف أرادوا طمسها.

ها هو يعيد كل ما استولى عليه في المعركة.. ليقدم دليلاً على أنه صاحب مطالب وأهداف... ويريد لموطنه أمناً.. وسلاماً.. ورخاءً وتفهماً لما سبق أن طالب به.

موقف من ناحية التدبير يدل على بعد نظر.

ومن ناحية الخلق.. أقل ما يوصف به أنه فروسية.. ورجولة. وحرر «غومه» طلباً سجل فيه رغبته في أن يحل الأمن مكان القلاقل ـ وأن يأخذ أبناء البلاد أماكنهم الجديرة بهم، ووصلت المهمات والغنائم.. والذخائر والأوراق الرسمية.. والأموال.. إلى قصر الوالي «مصطفى نوري باشا..».

كان أقل ما يكون.. رسالة شكر وتقدير إلى الرجل الكريم «الجنتلمان» ولكن مهاميز السوء.. الوشاة.. وقصار النظر.. أخذوا يؤوّلون هذه الفعلة الصادرة من «غومه» كل تأويل.. وأوغروا صدر الحاكم على الفارس العربي.

كان أن قبلوا ما أرسله من ذخائر ومهمات وأوراق رسمية وأموال، ثم ماذا؟

رفضوا طلبه.. وهزئوا من فكرته ساخرين.. وألقوا برسالته في ركن قصي.

وماذا يصنع «غومه» إزاء هذا بعد أن قدم الدليل الملموس على سلامة نواياه وهدفه؟ ماذا عساه أن يفعل وهو في موقف المنتصر القابض على زمام الأمر، استمر في مقاومته.

واستمرت الولاية تنعت غومه وتغدق عليه هذه الألقاب التي ننقلها من الأوراق الرسمية لتلك الفترة:

شقي، عاص، طريد، مجرم، ملعون، أفاق.. الخ..

وهذا الرفض وإغلاق الباب الذي فتحه «غومه» للمسالمة والمفاهمة وتضييع الفرصة التي قدمها للتفاوض.. كل هذا من طرف الإدارة كان آنذاك. غلطة شنيعة من غلطات العهد العثماني. ومن أخطاء «مصطفى نوري باشا» وصحبه..

ونذكر هنا بالتقدير موقف «محمد أمين باشا» الذي مد يده لمصافحة «غومه» ونقارنه بموقف مصطفى نوري الذي زاد النار لهيباً والسيل تدفقاً، ليظهر الفرق بين الرجلين. وبين الموقفين.

عندما أغلق مصطفى نوري الباب.. وأصم أذنيه.. كان غومه في هذه الحالة مضطراً عندما استأنف حركته أو واصل السير في خطتها.. فقد أصبح -آنذاك- في موقف الدفاع عن الجماعة.. فأخذ ينظم ويضبط شؤون الجبل «وغريان» والمناطق المحيطة بذلك.. وهرعت القبائل وعربان تلك المناطق إلى لوائه فزحف صوب مدينة الزاوية الغربية وبلدان ورشفانه. العزيزية - بل لها هي طوابيره التي تتجمع وتنظم في حماس تنحدر صوب «جنزور» وأشرف على قرقارش إنها على بعد خطوات من العاصمة: وأشار غومه إلى معركة «قرقارش» في إحدى مقطوعاته الشعرية.

التفاف حول غومه

وفي كل بلدة تحل بها عساكر غومه يجد تجاوباً من الجماهير المتلهفة لرؤياه، والتي رأت فيه البطل المنقذ الذي سيرفع الظلم ويزيل الضغط، فقد ملت جماهير الشعب ضغط الإدارة وكثرة الجبايات وجلب الأعشار والضرائب بالسوط..

«غومه» غداً محرر الصحراء.. والجبل، بل حرر الضفة الغربية بكاملها.. غدت تحت إدارته وسقطت في يده البلدان بسرعة غير منتظرة.

وكان من الحكمة أن عامل الأسرى الذين كانوا في يده معاملة حسنة، كما هي عادة العرب الأكارم والمواطنين الأجاود.

كسب في جولته ذخيرة أكثر وبنادق ومدافع.. ووزعها على المقاومين أصحاب الخيول المطهمة.. فرسان البيد.

مضت أشهر وفي حوزته هذه الرقعة الممتدة من «جنزور» حتى حدود «تونس».

بل هو استعد لدخول مدينة طرابلس والقبض على الوالي «مصطفى نوري»، ووصلت الأنباء إلى دار السعادة.. وأصبحت تلك الدوائر في دهشة بالغة.. لا تكاد تصدق أن يلحق بجيشها النظامي هذه الهزيمة. هذا الجن الصحراوي الذي انفلت من قمقمه من شاطىء «الآستانة» ثم من «طربزين» بحدود القوقاز وساحل البحر الأسود.. ثم عاود الكرة بأعنف ما كان يتصور،

أنهم ضنوا عليه بكلمة الشرف والأمان فليأخذوا درساً من أبناء البلاد التي تخرج صحراؤها هذه العفاريت.. وتنبت أمثال هؤلاء الفرسان.

وأرسلت وزارة الحربية ـ أو بتعبيرهم آنذاك نظارة الحربية نجدة.. أغيثوا سمعة الخلافة.. أغيثوا «سنجق» السلطان.. سنجق الولاية يكاد يقع في قبضة الثائر العربي.

عربي يطلب التحرر. شعب يتحرك.. معركة جدٍ لا هزل فيها.

لا بدّ من القبض على «غومه» وهزيمة أتباعه وإسكات أصواتهم التي ملأت الصحراء، ثم زحفت نحو المدن، بل ها هي تدق أبواب العاصمة.

هؤلاء العربان، رعاة الإبل.. أصحاب الخيام يتجرأون على «الباب العالي».

وطرق هذا الباب الذي دونه وعليه ألف حجاب.

وضاق صدر «الصدر الأعظم».

هكذا كانوا في العهد العثماني يلقبون رئيس الوزراء.. صدر أعظم.

ولكن الصدر جاش غضباً على الوالي في طرابلس الذي لم يستطع أن يؤدب «العصاة». بدو الصحراء في طرابلس الغرب.

إنهم في نظره.. متمردون أشقياء.. لا بدّ من تأديبهم لإنقاذ سمعة الدولة العلية.. والدعاء للسلطان.. وجيوش السلطان.. خاقان البرين والبحرين.

ووصلت الإنذارات للوالي من الآستانة.

أضرب ضربتك، وأهجم هجمتك.

وأخذ الوالي يعد الخطة للهجوم الذي يصد به رمال الصحراء التي تكاد تحجب عنه رؤية الأشياء.

رمال الصحراء ستجرفه.

وتذكر أن السرية التي جهزت في العام الفائت والتي ضمت «إسماعيل بك» و«مصطفى بك» و«محمد آغا أنديشه» انهزمت شر هزيمة أمام قوات «غومه».

فليكن في السرية المجهزة الآن غير هؤلاء.

ولتكن الكتيبة أقوى ـ والحملة أعنف. .

وليبحث عن ضابط أكبر ـ أكبر رتبة وأشد صلابة ليقود الحملة من جديد.

تحركات وهجمات

لقد ذهب في هذه الأثناء الوالي «مصطفى نوري».

وجاء والٍ جديد «عثمان باشا» في يوم عشرين صفر 1272 هـ 1855 م وسارت حملة جديدة، ولنقدم سطوراً من كناش الشيخ الأزهري الذي سجل فيه شيئاً من أحداث تلك الفترة لنرى كيف كان اهتمام الوالي بالحملة، وإليك هذه السطور بنصها:

« . . أفلت «غومه» من السجن بعد لبثه فيه أعواماً . . وجاء من استانبول أتى ناحية بني يزيد . . ومطماطه سنة 1271 هـ.

وفي يوم الأربعاء الثاني من جمادي الأولى سنة 1272 هـ ظهر عثمان باشا وهو والي طرابلس بنفسه على طريق «غريان»، وظهر معه «مصطفى صدقي» الكاهية ومعه أحمد باشا الأرنؤوطي . . وعبد الله باشا التركي . . ونزل بموقع كردمين، وغومه ومن معه معتصمون بالجبل، واستولى على المناطق حتى خرجت حملة الوالي، وكان القتال بالمتاريس التي «بام الجرسان».

هذه فقرات ننقلها بنصها من كراسة كاتب سمع رواية المعارك عن الذين شاهدوها وسجل يومياته بأمانة المؤرخ.

وقد اختيار «عثمان باشا» على «عبد الله باشا» و «أحمد باشا» وتدارسوا خريطة المنطقة . . وسهروا ليلهم في تعبئة الحملة التي ستسير عند الفجر مهيأة بالمدافع والرصاص . . وملأ الصناديق والجوالق.

والمسافة التي يعسكر فيها «غومه» ليست ببعيدة، ولكن قد تطول المعركة، وقد يدفعه حماسه الناري ونشوة الانتصار إلى اقتحام المدينة.

زحفت قوات العثمانيين بعد أن استكملت معداتها.. وجهزت الثكنات والطوابير بكل ما يلزم لمثل هذه الطوارىء.

وكان سكان المدينة في طاربلس ينتظرون بين الفينة والفينة دخول «غومه»؛ ولا شك أن دخوله سيكون أقوى لطمة على خد الحاكم العثماني.

وقد علمت الإدارة أن الشعب سيستقبل «غومه» بالهتاف والترحاب والزغاريد... ربما قبض «غومه» على الباشا المذعور.. الذي حصن بيته «عفواً» بيته محصن طبيعي لأنه يقطن في القلعة المحصنة.. ذات البروج العديدة العتيدة، التي ملئت بالجنود والمدافع، حتى في الشرفات والمداخل وفوق السطوح. وبعد أن استعرض أحمد باشا الأرنؤوطي وعبد الله باشا قواتها ألقى كل منهما خطاباً على الجند يشرحان فيه المهمة التي يسيرون إليها، وأن «رأس غومه» هو الهدف.. حتى ترتاح البلاد.. ويطمئن الباب العالي.. ويهدأ الصدر الأعظم، نصر الله أمير المؤمنين، خاقان البرين والبحرين.

وفي هذه اللحظة «كان غومه» يتحرك في مناطق عسكرية قرب مشارف المدينة، والتقى الجمعان. وتواجه الخصمان وانطلقت المدافع ترسل لهيبها وفرسان الصحراء جموع «غومه» تصر على الزحف في عناد وبسالة.

واستمرت المعركة ليلتين.. تقترب الصفوف حتى تلتحم فيستعملون السلاح الأبيض.. وتهدأ الصفوف قليلاً.. ثم ينطلق الرصاص و «الكور» أي القذائف النارية.. وقنابل المدافع.

وهدأت المعركة قليلاً ـ حتى قال الباشا لصاحبه الباشا.. غومه إما سقط أو هرب.. وإذا به عند هدأة الفجر يشن هجوماً يبعث الذعر في صفوف «عبد الله باشا» وأحمد الأرنؤوطي باشا.

هل يستسلم الباشوان ـ هل يفران؟

وأرسلا بطلب نجدة جديدة من طرابلس على وجه السرعة وأسعفهم الوالي بما تبقى من عساكر الجهات الشرقية فإن الحالة بها هادئة نوعاً ما.

ودارت معارك متوالية.. كلا الجانبين يصر على سحق صاحبه.

تساقط عشرات في الميدان.

وفي حركة خفيفة وليت قوات «غومه» نحو مدينة جنزور.

وخيم بها.. واشتد الصراع.

ثم انعطفت قوات «غومه» نحو موقع «المايه» ومكثت المعارك بها والاشتباكات أياماً.. وشدد ـ الباشوان ـ الهجمات حتى اضطر «غومه» أن ينسحب إلى مدينة «الزاوية».

ودخلت القوات العسكرية التي تطارده إلى «الزاوية» وألقي القبض على شيخ قصير.. فظنوه هو صاحبهم «غومه» وهو يقسم لهم مؤكداً أنه ليس غومه.. ولكنهم ضربوه وقالوا: أنت «غومه». وهلل المعسكر العثماني.. لقد قبضنا على «غومه».

ولكنها فرحة لم تتم.. وبشرى غير صادقة.

فإن الشيخ القصير الأشيب كان رجلاً عادياً جاء ليبحث عن إبله الشاردة، أما «غومه» فقد انطلق كالبرق يأوي إلى جبل يعصمه من جحافل يأجوج ومأجوج، فما كان انتصارهم في «قرقارش» و«جنزور» و«المايه» و«الزاوية» بالشيء الكبير ـ في نظرهم ـ إنما يريدون رأس «غومه».

وما داموا قد فشلوا في القبض عليه، فإن الخطر ما زال مستفحلاً.

فقد يعود مرة أخرى ـ كما عودهم الهجوم المفاجىء والحركة المباغتة، وما دام الخطر قائماً فليلجأ ـ عثمان باشا ـ إلى الحيلة وإرسال الوفود.. وغومه ما يزال معتصماً بالأودية، والقبائل تؤازره، وهو يشرف على الجهات الغربية.

حيلة وخدعة

لم تستطع قوات «الباشوان» أي أحمد الأرنؤوطي باشا . . وعبد الله باشا ـ مطاردة غومه في المناطق الجبلية التي انسحب إليها. واكتفت بالمدن والساحل . . ثم لجأ الوالي ـ عثمان باشا ـ إلى أساليب المخادعة والتظاهر ببسط يد المصحافة والمسالمة ـ وطلب من «غومه» المسيطرعلى متصرفية الجبل أن يسمح بإرسال متصرف لواء الجبل «قاسم المحمودي»، وهذا المتصرف من أبناء عم غومه ومن مشاهير قبائل المحاميد. . ورأى «غومه» أن هذه فرصة سانحة للتفاهم ـ ولعل المتصرف العربي يكون واسطة خير ـ ولعل الوالي الجديد ـ رغم أنه سار على رأس الحملة بنفسه في طريق غريان. . لعله يود أن يضع حداً لأساليب العنف.

«وقاسم الحمودي» هذا كانت قوات «غومه» عند استيلائها على المتصرفية تريد الفتك به. . ولكنه حماه. . وكان من شيمة «غومه» ألا يقاتل إلا في الميدان. . أما موظف في مكتبه فلا يرى «غومه» من الرجولة الفتك به. . ـ ومن الجدير بالإشارة هنا، لئلا تلتبس الأسماء على القارىء وتتداخل المعلومات ـ أن «قاسم باشا المحمودي» هذا. . غير «أبو القاسم خليفة المحمودي» الذي كان في عهد ـ يوسف القره مالل، والذي ساد على إطفاء حركة كانت في الجبل مؤازراً يوسف القره مالل في نالوت وقتل في خدعة دبرتها الإدارة في عهد يوسف سنة 1236 هـ.

أما صاحبنا هذا قاسم المحمودي ـ متصرف لواء الجبل فقد آثر غومه أن

يرسله إلى مدينة طرابلس.. سالماً.. ولبى طلب الوالي.. وانتهز «غومه» الفرصة فبعث معه برسالة تتضمن رجاءات أن يدرك الوالي أن مطالب «غومه» وعرب البلاد إنما هي السلم، وإعطاء الشعب حقه.. وإراحة الناس من هذه القلاقل التي طالت.

وكان عثمان باشا كما يذكر رواة التاريخ وشيوخ البادية أرسل إلى «غومه» وفداً من علماء وأعيان البلاد. منهم أحد أسرة ظافر المدني بمصراته، ومن أسرة الشيخ الماعزي بطرابلس.

والشيخ النعاس.. بتاجوراء.

وحمل الوفد رسالة في شان إطلاق سراح «قاسم المحمودي».

وأكرم غومه الوفد.. ورجاهم إبلاغ - عثمان باشا - مطالب الشعب، وقد حاول هؤلاء العلماء الأفاضل بذل مساعٍ طيبة.

ولكن ماذا كانت نتيجة المساعي لدى الوالي الحاكم؟

كان غومه في اجتماعه مع وفد الولاية وفي إرساله قاسم المحمودي متفائلاً،.. لعل دور الوساطة يجدي.

وما يعلم «غومه» أن صاحبه هذا سيعود في شكل آخر...

فقد دبر - عثمان باشا - خدعة ولجأ إلى حيلة.. ومحاولة للإطباق على شيخ الجبل ومجابهته بابن عم له.. أضرب العربي بالعربي.. ومحمودي من المحاميد.. فما وصل «قاسم المحمودي» مدينة طرابلس حتى استدعاه الوالي ومناه بالأماني المغرية.. وأطلعه على رغبته في أن يلتحق بعساكر «الباشوان» أحمد الأرنؤوطي، وعبد الله، وليكن مع القوات في المقدمة حتى يحدث انضمامه إلى قوات الدولة ثغرة في صفوف القبائل.

ثم ماذا يضيره؟

الدولة تحمي ظهره.. وتمده بما يريد.. وستكون له رتبة... إن «لقب

الباشوية» في انتظاره، ورضا الباب العالي سيضع له مكانة.. وسيسبغ عليه ثوباً فضفاضاً..

ودغدغت الأحلام ـ قاسم المحمودي ـ ووافق على الفكرة.. وأغراه ما لقي من مظاهر التبجيل والإكرام.

ويقول رواة التاريخ من شيوخ البادية كما سمعوا من أجدادهم أن قاسم طوى عريضة «غومه» التي كانت في جيبه.. وأهمل شأن الوساطة، التي قطع عهداً لغومه أن يقوم بها.

خان الأمانة.

خان بني قومه.

ولحق «قاسم» بعسكر اللواء أحمد باشا الأرنؤوطي.. وعبد الله باشا، بموضع يعرف بـ «الكدوة»... وهناك صادفوا «غومه» بجموعه ينتظر ما تؤول إليه وساطة ابن عمه ـ قاسم ـ باشا.

وإذ به سهم في يد خصمه.. وكما عبر «غومه» في إحدى مقطوعاته الشعرية الرائعة مصوراً موقف صاحبه:

تحزمت بيكم درتكم من صفي   وصيرتكم في يدي نقبتوا كفي

أو كما قال شاعر عربي قديم مصوراً مثل هذه الحالات:

ما بال من أسعى لأجبر عظمه   حفاظاً وينوي من سفاهته كسري

لقد خانه «قاسم» وهو ابن عمه.

ونقب كفه.

وصوب السهم في ظهره.

وأسهم في الحملة عليه.. واشتدت الوقائع.. واستمرت المعركة ثمان ساعات متواليات.. في اللقاء الأول... هلك فيها الكثير من أتباع غومه.. وانسحب صوب مدينة فساطو.

ما زال «غومه» رغم انسحابه.. وتساقط الكثير من أنصاره قوياً، وأتباعه أشداء يشدون أزره، ولم تؤثر في روحهم المعنوية شدة الطعان أو المؤامرة إلا عناداً وإصراراً..

في المدينة الجبلية ذات التعاريج والنتوءات والتضاريس عسكر «غومه» بأتباعه هناك..

وأدرك ـ عثمان باشا ـ أن هذا العربي الفارس حقيقة هو من نوع غريب وطراز فريد في المقاتلة.

قد لا تجدي معه القوة.. ولا يفيد معه الصدام.

فليجرب حيلة أخرى قبل أن يستدعى من طرف الآستانة ويعزل كما عزل ولاة سابقون، عندما فشلوا في القضاء على حركة غومه.

فليلجأ إلى الطريق المسالمة.
وأعد هدية يقدمها لغومه.

إيه والله.. ما أعجب المفارقات، هكذا صنع الوالي بعد.. قتال وعساكر وذخائر يرسل إلى خصمه العنيد هدية.

عقلية أولئك الصنف من الناس.

أيسخر الوالي ـ عثمان باشا ـ أم تراه لا يدري من الحيرة.. ماذا يصنع؟

وأعدت الهدية.. برنوس محلى بالفضة وشراريب الحرير والقصب المذهب.. وحصان من جياد الخيل وأرسلها مع أعيان ووجهاء يثق فيهم «غومه».

وابتسم غومه وهو يقلب البرنوس ـ الذي فصل على قده.. مزركش.. زاهي.. جميل.. من النوع الفاخر.. وتذكر.. برنوساً سابقاً.. الذي ناله هدية من أول والٍ عثماني: الفريق نجيب باشا.

كان البرنوس ـ الأول ما زال عنده وأهدي إليه سنة 1251 هـ.

وسجن.. ونفي.. وتغرب وهو معه.

وهذا برنوس جديد يهدى إليه من عثمان باشا سنة 1272 هـ.

وبين إهداء الأول والثاني فترة تزيد على الواحد والعشرين عاماً.. ونظر إلى الحصان المهدى إليه.. وسرح به الخاطر.. وتدفقت الذكريات المريرة.. ما أطولها من فترة.

وارتدى البرنوس، وامتطى صهوة الجواد.

ماذا وراء هذه الهدية؟ أتكريم أم استسلام، أمصافحة أم أمر دبر وراءه أمور.؟

لقد كان بعد الهدية الأولى - كما رأينا - قبض.. وسجن.. ونفي.

ترى أيتفاءل «غومه» أم يتشاءم؟

أمصاولة واحد وعشرين عاماً تضم في «برنوس» وثمنها حصان؟

وكان حامل الهدية يحمل رجاء من الوالي «عثمان باشا» أن يخرج «غومه» من البلاد... حتى تهدأ الأحوال.. يرجوه أن يخرج من الجبل.

وفكر غومه وطال به ليل التفكير.

ثم اشترط أن يطلق الوالي سراح من قبض عليهم.. وأن يعفو عن الجميع وأن يعود المسجونون إلى أهليهم. وتعهد الوالي بهذا.

وفكر «غومه» وطال به ليل التفكير.

وأخيراً آثر أن يخرج حتى يرى الجو الملائم.. ثم الهجوم أو المسالمة.

لاجىء في تونس

سنة 1856 م . .

وبعد أن استشار صحبه . . ودرس الحالة رأى أن يخرج حتى يعود في الوقت المناسب. خرج «غومه» يصحبه سبعون رجلاً من أتباعه والمشايخ والأعيان.

وأعطى إشارة الأمان.

خرج آملاً في أن يفكر في طريقة للمسالمة.

في تونس نزل بأطرافها من جهة «الأعراض» . . من ضواحي «قابس» . . كان دخوله تونس في المرة الأولى متنكراً في ثياب حاج مغربي عندما هرب من المنفى، أما في هذه المرة فكان في سبعين رجلاً . . وعلانية . . بل ها هو بصورة رسمية يرسل إلى باي تونس ليقبله في بلده. أو يتوسط لدى الباب العالي لعل الطرقات تسمع من وراء الجدر والحجب.

وتشير بعض المصادر الأجنبية أن «غومه» أيضاً توسط في مطلبه بالقنصل الفرنسي كي يقوم بدور الوساطة بينه وبين الدولة العثمانية.

وقد عثرنا على وثيقة تؤيد هذا؛ فقد رأينا بخط «غومه» . . طلبه ورسالته، وتوجد ضمن وثائق ذلك العهد.

والقارىء لهذه الوثيقة الموجهة إلى الجهات الفرنسية يدرك منها أن «غومه» إنما لجأ لهذا لأجل التوسط في البقاء في تونس، أو للسعي في وساطة مع

السلطان. ولم يكن اتصاله اتصالاً يشوب حركته بشائبة معيبة، أو يفسر هذا الطلب على أنه مد يده لفرنسا، كما تحاول بعض المصادر أن تطعن في سلامة حركته، فهو لم يستمد قوته أو أفكاره من دولة أجنبية.. ولم يأخذ منهم مالاً أو سلاحاً، أو حتى فكرة مستوحاة.

إنما «غومه» رأى من باب التوسط من باب المحاولة. ولما رأى ما لفرنسا من صلات بالباي التونسي من جهة، وصلتها بالدولة العثمانية من جهة أخرى رأى أن يسعى لدى قنصل فرنسا لعل مساعيه تفيد.

وقام قنصل فرنسا بدور الوسيط في أن يكون «غومه» لاجئاً في أرض تونس، والحق أن الباي ـ رحب بغومه، وإن كان لا يود أن يسيء إلى الدولة العثمانية، فإن تونس ما زالت مرتبطة بتركيا ولها علاقات معها رغم نظام البايات، وتدخلت كثير من المساعي لعرقلة بقاء «غومه» في أرض تونس.

فتونس جارة ملاصقة.. وحدودها مشتركة مع طرابلس.. وليس أسهل من أن ينقض غومه بين يوم وليلة على قوات العثمانيين ويتسرب إلى الجبل الغربي ويكرر هجماته.

ساورهم الشك في دوائر العمثانيين.

لكن باي تونس ـ أعطى الأمان لغومه.. ورحب به مع العائلات التي صحبته.

منذ عامين كان متخفياً في صحراء تونس.. ويدخل المدن خفية. أما الآن فله أن يظهر في تونس، فقد استجار بالباي وتوسط لديه فاعتبره لاجئاً سياسياً.

لكن الباي أيضاً يكاتب الآستانة مستفسراً عن قبوله، ورجا الدولة ذات الشان والشنشان والصولجان أن تسمح لغومه بالعودة لوطنه.

وإلى متى يظل الشيخ البدوي مطارداً؟

وتشفع الباي لدى الدولة والسلطان.

أتدري ماذا كان رد الباب العالي عندما طرق الباب؟

ـ احذر «غومه» إنه من المفسدين في الأرض.

بل إن الدولة العثمانية طلبت من باي تونس إلقاء القبض على «غومه» ومساعدة والي طرابلس في إمساكه.

لكن باي تونس في هذه المرة يقف موقفاً حازماً، وأنف أن يرجع عن عهده الذي أعطاه وأن ينكث بوعده، أو يتراجع في الأمان الذي قدمه وكلمة الشرف التي قطعها.

إن غومه ضيفه ورجل نزل في حماه واستجار به.

والعربي لا يخدع العربي.
وكلمة الشرف لها ميزان.

ماذا يكون موقفه أمام الرأي العام عندما يسلم للعثمانيين «غومه» بعد أن أكرمه!..

والتفت البادية حول «غومه» واجتمع إليه العرب والفرسان.. وبدأت تتطاير في الأجواء شائعات، وظهرت في مجالس الساسة والمغرضين همسات.

ـ احذر أيها ـ الباي ـ خطر هذا الشيخ البدوي الثائر.
ـ لقد وضعت الحية في كمك.
ـ لقد جلبت الشر لأرضك...

وكان الباي يستمع لمثل هذه الأقاويل التي تأخذ صورة النصائح وتصب في قالب التحذيرات.

والوساوس عند هؤلاء تجد مسربها بسهولة.

وبدأت الشائعات والتحذيرات يقدمها للباي التونسي كثير من ذوي الأغراض.. يقولون له ـ غومه احذره... شيطان سريع التأثير في الناس، وبقاؤه قرب الحدود خطراً على الباي نفسه.

وإزاء هذه الإلحاحات المتكررة. والشائعات المتزايدة من المغرضين والتي لعبت فيها جهات كثيرة أدواراً. . وقد يكون المصدر الكبير لهذه التقولات والشائعات. . هم العثمانيين ـ أو مصدراً أجنبياً. .

المهم. . إنها أقاويل وشائعات ظلت تكبر. . وتتزايد وتطن بصورة متواصلة في أذن الباي وحاشية الباي ـ حتى توجس باي تونس خيفة. فكتب إلى «غومه» يطلب منه أن يترك جهة الحدود التونسية وليرحل إن شاء إلى دواخل البلاد إلى داخل العمالة التونسية، قرب مدينة «القيروان» أو قرب العاصمة.

ولكن «غومه» تردد في مغادرة الصحراء وآثر البقاء مع هذه القبائل التي اختلط بها والتي أكرمت وفادته والتي أجواؤها تناسبه، فهو صحراوي ربيب البراري ـ وماله ومال المدن وأجواؤها. . .

وماذا يصنع في مدينة تونس، وهو في معيشته مع أهله يحبذ الصحراء. ثم هو صاحب عائلة كبيرة من النساء والأطفال والخدم. . ولهم إبل كثيرة. وتعلل بكثرة أتباعه. . وهم سبعون رجلاً. . أو سبعون عائلة. . كثرة لا تتلاءم معهم حياة المدن بعدأن ألقت رحلها وألفت هذا الجو البدوي مع أبناء عمومتها من قبائل الأعراض. . عند «قابس».

هكذا رد «غومه» وأبدى أسباب تفضيله البقاء في الصحراء.

وهنا. . بدأ شك باي تونس يأخذ صورة أخرى، عندما رفض غومه فكرة مغادرة الحدود. توجس باي تونس أكثر. . ثم وجدها السعاة والوشاة ـ الذين لا يخلو منهم زمان ولا عهد وبلد ـ وجدوها وسيلة سهلة لإيغار صدر باي تونس على «غومه» المطارد. .

وأخذوا يحملون له مثل هذه العبارات:

ـ غومه يرفض طلبك.

ـ غومه يستعد على الحدود.

وهنا نجد الولاية في طرابلس ترسل عيونها وتبعث بتقاريرها مهولة من

شأن «غومه» ـ والرجل كما سبقت الإشارة تعلل في رفضه فكرة الانتقال بكثرة أتباعه . . وكبر أسرته «ووفرة إبله» .

ويلاحظ الدور الذي أراد أن يقوم به قنصل فرنسا بتـونس، فكان القنصل يلعب على حبلين . . ويبدي لدى الباي تارة الرغبة في بقاء «غومه» عند الحدود .

وتارة يحذر منه الباي ،

وتارة يسلط عليهم ولاية طرابلس بأساليب يجيدها القناصل في تلك الأونة . وأخذت المصادر العثمانية تشك في اتصال غومه بالجهات الفرنسية ، مع أن «غومه» في مهب الأعاصير السياسية ، وتود القضاء عليه كل هذه الجهات ، ولا نكران أن «غومه» ـ أخيراً ـ اتخذ من بقائه في حدود تونس قاعدة يرسل منها أتباعه بين الفينة والفينة غائرين على القوات العثمانية في حدود طرابلس ، ويرسل أيضاً من أتباعه من يقوم بدور تحريض الأهالي على عدم دفع الأتاوة ، أو تسليم الأعشار المفروضة ـ قسراً ـ من طرف العثمانيين .

الأمر الذي جعل ـ عثمان باشا ـ غير مطمئن الجانب .

ولم يقطع «غومه» الأمل في جولة أخرى .

فقد استجاب كثير من القبائل لتحريض «غومه» وامتنعوا عن تنفيذ طلبات الولاية .

وبدا في الأفق بين «غومه» والعثمايين لون آخر من ألوان المقاومة ، هؤلاء يرسلون الجواسيس إليه . . ويحرضون الباي عليه ، ويقومون بدور متقن للوقيعة بينه وبين الباي . . حتى يقع الصدام ويطرد ـ وهو أي غومه ـ يرسل مندوبيه إلى أطراف الجبل حاثاً على التمسك بالمطالب التي عقدوا عليها العزم . . وأقسموا من أجلها إيماناً وثيقة أن يخلصوا لها إلى آخر رمق .

وأخذ «غومه» في ملجأه وراء الحدود يلعب دوراً غير يائس من جولة أخرى . . ما دامت الدولة العثماينة تعتبره خطراً يجب الحذر منه . . وهنا زاد

تخوف باي تونس المشير «محمد باشا» - باي فجهز محلة بالفرسان من المخازنية وأمراء العروش - أي القبائل بلهجة تونس - القريبة من الناحية التي يخيم فيها «غومه» وأصحابه.. وجهز آلاياً كاملاً بالسلاح والرجال والعساكر النظامية بالساحل ومعهم المدافع والطوبجيه قوام الحملة كما تشير الوثائق.

ولم يستقدمهم لديه بتونس العاصمة بل أصدر الباي أمره إلى أمير المحلة - أي قائد الحملة - أن يقود هذه القوات المجهزة إلى مدينة «سوسه».

وسمح باي تونس لقائد الحملة بأن يستنجد ويلحق به من شاء، ويضم إليه من أراد من حكام وعساكر تلك الجهات.

وكان على رأس هذه القوات المجهزة أمير الأمراء «أبو محمد رشيد» وتوجه إلى مخيمات «غومه» في شهر ذي الحجة 1273 هـ، وهو يحمل نص ما كتبه المشير محمد باشا باي تونس.

ورغم أن الرسالة قد تكون طويلة.. ولكننا نثبتها لنلقي عليها نظرة ونرى منها أضواء على الموقف في تلك الآونة.

رسالة الباي:

نص ما كتبه الباي في 20 ذي الحجة 1273 هـ.

«من عبد الله سبحانه المتوكل عليه، المفوض جميع الأمور إليه، المشير محمد باشا باي، وفقه الله لما يرضاه وأعانه على ما أولاه، وإلى طريق الصلاح هداه، والهدى هدى الله.

إلى حماة الوطن، وأهل الغيرة على الأمرة والصولة وخاصة أولاده، ومحلهم - وأن بعد - في فؤاده، كافة الضباط والعساكر والفسيالات، المأمورين منا بالسفر إلى الأعراض - مع أمير الأمراء، وفريق الكبراء، وفخر الأركان، الوزير السيف الأمضى، والثقة المعتمد الأرضى، ابننا محمد أمير الأعراض، قرن الله بالنجاح مسعاهم، وحفظهم ورعاهم، وحمى حماهم، وثبت على قوس الطاعة مرماهم.

أما بعد،

السلام عليكم، وملازمة الدعاء إليكم، فأنتم بقوة الله أعظم قوتي، ومظهر صولتي، بغيرتكم أقتاد العصاة من نواصيها، ولا يبعد بشجاعتكم قاصيها، ويدين لأمر الله بالطاعة متعاصيها، وقد قرن الله سبحانه النجاح والظفر بطاعة المأمور للأمير، في الشاق واليسير، والقليل والكثير، ولا ينبئك مثل خبير. وطاعة الأمراء والولاة من أول واجباتكم.

ولا يخفى عنكم، وسبحان من يقول:

﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعو الرسول وأولي الأمر منكم ﴾.

والإخلال بواجباتها قطع لسلك كل جماعة، وهو السبب الأعظم والعياذ بالله في الإضاعة. وأنتم بحمد الله معتصمون فيها بحبل الله المتين، وإنما امتثلت قول الله:

﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾.

وهذا أمير محلتكم المحوطة بأمن الله وهمتكم، الذي اخترته لإعزاز رايتكم، وإظهار شجاعتكم المبنية على أساس طاعتكم، كما اخترتكم لبذل النفوس في إنفاذ ما يأمركم به وقد رعاه عني، إذ هو منكم كالجزء مني، فحسبه أن يأمركم بما هو مأمور به من الأعمال، وحسبكم المسارعة للامتثال، في أي جهة وعلى كل حال، فارفعوا إليه سائر أموركم، بما يتعلق بمفردكم وجموعكم، وقد أذنته أن يتصرف بما يراه في أميركم ومأموركم.

واعلموا أنه يباشركم بيدي، ويأمركم بلساني، وهو وإن بعد عني فهو نصب عياني، لأنه الثقة الأمين على ما يراه منكم، وينهيه إليَّ عنكم.

وأرجو الله أن يسمعني ما ينفعكم ويسرني، والله المسؤول أن يسدد منكم القول والعمل، ويبلغني من صلاحكم غاية الأمل، وقد أمرنا العمدة الثقة الأحزم الأحظى تحية الأركان، وعمدة أهل الشان، وفارس ميدان السيف والسنان، أمير الأمراء ابننا «رشيد» أن يعلن بقراءة هذا الظهير على جمعكم،

حتى يمتزج أمره ونهيه بقلبكم وسمعكم، فأنتم الأولاد البررة الطائعون وعلى الله فليتوكل المتوكلون.

ويبقى الظهير بعد قراءته في موكبكم، بيد من قلدته في هذه الوجهة أحكامكم، وجعلت بيده التي هي يدي زمامكم، وقد أمرته أن تكون قراءته بمرأى منه ومسمع، في ذلك المجمع؛ وأستودعكم الله الذي ما خاب طائعه، ولا ضاعت ودائعه، والله ولي المؤمنين.

وكتب في العشرين من ذي الحجة الحرام سنة ثلاث وسبعين ومايتين وألف. اهـ.

ملاحظات:

وكما هو الشان في مثل هذه الحالات، احتشدت أو بعبارة أدق حشدت لسماع هذا المنشور أو- الظهير- الذي أرسله باي تونس، وشاهدت القبائل هذه الكوكبة والدبدبة القادمة في شكل استعراض لتبعث في القلوب مخافة أو مهابة.

ويلاحظ أن هذا المنشور الطويل.. المرصع.. المسجع.. المليء بالدعاء الذي سطره الموظف الكاتب الذي كان يعجب بعبارات ذات ازدواج وسجع وترصيع.. يلاحظ خلوه من ذكر اسم «غومه». فالمنشور كما هو بين يدينا - لم يكن مختصاً بأمر غومه، ويدل على أن التخوف والتحذير ليس مبعثه غومه.. وحده، وإلا ما المانع من النص عليه وذكر اسمه وتثبيت ذلك..

ولكنه كان كما ترى منشوراً ذا صبغة عامة، ولو ألقينا نظرة على رسالة الباي أو- ظهيره لبدر سؤال: ما الذي دفع باي تونس إلى عدم الإشارة إلى اسم «غومه» في منشوره هذا؟؟

هنا تساؤل قد يدلنا على أن الباي رغم كل هذه الأجواء والشائعات لم يكن في الحقيقة يضمر العداء - لغومه - وهو- أي غومه - في الواقع لم تبدر منه عداوة لباي تونس.

إنما كان باي تونس دفع بعوامل أخرى، فهو لم يجد مصادمة من «غومه» فرأى أن يرسل التحذيرات والإنذارات كما رأينا في ـ المنشور ـ بصفة عامة ـ؛ ولهذا فوض باي تونس قائد الحملة، أمير جهة الأعراض الأمير لاي أبا محمد رشيد، أن يشاهد الحالة ويستطلع بنفسه، وأن يرى ما يراه، وأطلق له حرية التصرف. ولعله لهذا لم ينص على اسم «غومه» بالذات.

ثم لم يغرقه بصفات ونعوت التمرد والشقاوة والإجرام، كما كانت تصنع الإدارة العثمانية ـ ولو كان باي تونس مؤكداً من تحرشات «غومه» نحوه.. ما المانع لأن يشير لاسمه ويحذر منه في منشوره.

هذا سؤال قد يوضح الجواب عنه كثيراً من اللبس.

وبعد أن أعلن هذا المنشور أو بلغة ذلك العهد ـ الظهير ـ وقرىء في الأسواق والمحافل، وأرسل أمير الأمراء، أبو محمد رشيد إلى «غومه» كاتبه الخاص مندوباً إليه يعرض عليه الاختيار بين أن يرحل لدواخل تونس أو يبعد عن أطرافها لجهة أخرى.

وإن خاف يبعث إليه أبو رشيد من يوصله لمحله الذي يختاره. هنا أيضاً يبرز سؤال.. وتتضح نقطة أخرى.

لماذا لم يهدد الأمير لاي «غومه» ويستعمل العنف بادىء ذي بدء؟ بل نرى الأمير لاي التونسي لم يلجأ لهذا ولم يطوق على رجال غومه ولم يحاصره... فقد يدل هذا على أن باي تونس لم يكن مقتنعاً بفساد «غومه» وخطره كما حاول قنصل فرنسا أن يوهمه.. أو كما بعثت الدولة العثمانية في بعض النفوس وأشاعت، ويدل أيضاً على أنه لم يكن هناك دلائل على تحرش «غومه» بقوات الباي ـ وبعبارة أوضح: إلى هذه الساعة، وإلى حين إرسال هذه القوات لم يضمر أحدهما شراً للآخر.

ولكن بدأت اللهجة تتغير..

والنظرة تحمل شكاً من أحد الطرفين.

لكن «غومه» يرفض ما عرضه الأمير لاي «أبو رشيد».

رفض «غومه» هذه الفكرة.

قد يكون مخطئاً في هذا.. فنحن لا نقف معه على طول الخط حتى في أفكاره الخاصة.. قد يكون مخطئاً.

وقد يكون من دوافع هذا الرفض تخوف من أن يكون وراء ذلك كمين أو خطة للقضاء عليه.. قد يكون.

وسواء أكان هذا أو ذاك فهو يمتنع عن مبارحة المنطقة، ولا يريد ترك جبهة «الأعراض» في مفاوز الصحراء. مع أن تونس لم تسيء إليه.

ولكن الرجل متخوف، ويريد ـ على ما يظهر ـ أن يتخذها نقطة انطلاق وقاعدة تمركز لجولة كان يرسم خطوطها. فالخطر ليس موجهاً لباي تونس.. بل موجهاً إلى خصم «غومه» في بلده.. إلى والي طرابلس العثماني.

وتأزم الموقف،
وتطورت الأزمة،
وبعدت الشقة والمسافة بين الفكرتين.

ونحن لا نريد أن نستفيض في تحليل الموقف، إنما نرى صورة مؤلمة عندما وصلت الأزمة إلى منتهى حدودها.. وبدأت حركة المناوشة بين قوات الأمير لاي «أبو محمد رشيد» وبين قوات غومه.

ووجد «غومه» نفسه في حالة تطويق ـ وفي موقف لا يحسد عليه من جانب الحدود التي لغمت بعساكر العثمانيين. وجانب احتشدت فيه القوات التي يقودها أبو رشيد.. ولو كانت المقاومة في الجبل.. أو في مناطق نفوذه. ومحط قبائله لكانت كفة الرجحان في جانب «غومه» أكثر، ولامتدت سنوات؛ ولكن ها هو في حدود وأرض غير بلاده.

والموقف أخذ يزداد خطورة غير منتظرة.. ولم تكن في الحسبان، ولا شك أن ـ للظهير ـ أو المنشور الذي أصدره الباي أثراً كبيراً في نفوس هذه القبائل

التي كانت تدين للباي بالطاعة والولاء ـ وخاصة أن الباي فوض الأمير لاي «أبا رشيد» بأن يصنع ما يراه وأعطاه مطلق التصرف، ثم إن قوات العساكر النظامية أكثر بكثير من قوات «غومه».

كانت المعركة والصدام المسلح في غير صالحه من جميع الوجوه، منطقياً. . ومنطقة.

من ناحية المنطق ليس من الصواب أن يقاتل هؤلاء في أرضهم وقد اعتبر نفسه لاجئاً عندهم.

ثم لا يعقل أن يفتح جبهتين عند الحدود. . وقوات العثمانيين له بالمرصاد على بعد خطوات.

ومن ناحية المنطقة الاستراتيجية. . الأرض مكشوفة. . والمنطقة مسطحة. . ومحاصرة من جميع الجهات.

ورغم هذا ـ ونحن لا نريد أن نطيل التحليل. . والتعليل إنما نحكي الواقع ـ كانت مناوشات. . وصدام.

وفي مثل هذه الأزمات لا يمكن للقائد مهما كان مسيطراً على الموقف أو مالكاً لأعصابه. . أن يمنع المناوشات والصدام.

بعد أن بدأت شرارات الاحتكاك من الجانبين. . اتخذت صورة قتال وهجوم.

وعثرنا على وثيقة في صورة تقرير أرسله مخبر بعثت به الإدارة العثمانية إلى تلك الجهات التي يعسكر بها «غومه» يفيد أن قوات الأمير لاي أبي رشيد.

2000 ـ ألفان من العساكر النظامية.

4000 ـ أربعة آلاف فرسان عرب.

وقوات غومه:

130 ـ مائة وثلاثين فارس.

600 ـ ستمائة مشاة.

والمعركة الأولى استمرت ثلاث ساعات متواصلة خسر فيها الجانبان عدداً وافراً؛ وهذا التقرير مؤرخ في 26 جمادي 1274 هـ. وانهزم «غومه» بعد أن دافع عنه أتباعه دفاعاً مريراً وعزَّ عليهم أن يروه محاصراً فلا يقفوا معه.

وجرح ثم تسلل إلى «وادي سوف» بعد أن خسر الكثير من أتباعه الذين أبوا الاستسلام بسهولة.

واعتبروا محاصرة الأمير لاي «أبو رشيد» خيانة لعهد الضيافة، بينما كان الأمير لاي بدوره يعتبر عدم تلبيتهم لطلبه خيانة للعهد. وكانت مدة بقاء «غومه» وأتباعه في منطقة «الأعراض» ستة أشهر كاملة، كانت الفترة الأولى منها هادئة. . وكان فيها مكرماً. . يتحين الفرص للهجوم على طرابلس، والفترة الأخيرة ـ بعد تسيير النظامية والمخازنية ـ أمضاها في مناوشات وصدام، وفي حركة خفيفة تسلل «غومه» منسحباً بأهله. .

وحاول الأمير لاي أبو رشيد جهده أن يلقي القبض عليه فلم يستطع. . كان يراه رأي العين وعلى مقربة منه حتى يظن أنه لا محالة واقع في قبضته. . ثم كعادته في مناوراته يختفي حتى كأن أرض الصحراء ابتلعته ـ وعاد الأمير لاي بعد أن أثخن في قوات «غومه» وأجلى أتباعه عن أرض تونس.

وبعد فترة يسيرة، وما زلنا في أواخر سنة 1273 هـ، فوجئت قوات «عثمان باشا» والي طرابلس بهجمات سريعة من «غومه» الذي عاد إلى أساليب الهجمات المباغتة. .

في هذه الناحية كان من ناحية أرض فزان وفي أثناء هذه المقاومة الأخيرة عزل الوالي «عثمان باشا» واستدعي إلى «استانبول». .

وجاء الوالي الوزير الحاج أحمد عزت في شهر صفر 1274 هـ.

ودامت مصاولة «غومه» أشهراً ولكنها هجمات غير منظمة إنما هي ضربات الطائر المترنح، من كثرة الجراح. .

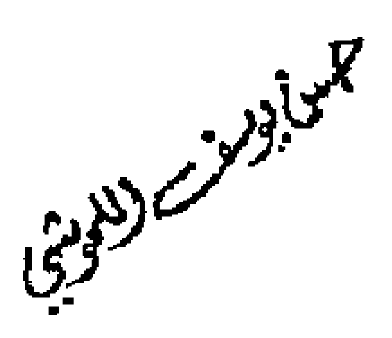
المحاولات اليائسة. . ـ الضربات التي تبرر اليمين التي أقسمها

لأصحابه، والعهد الذي أخذه على نفسه.

كانت في شكل ضربات مباغتة. ثم اختفاء سريع..

ومعه أسرته وبناته وخدمه وفرسه الوفي، وهذا البرنوس الذي يود أن يعيده لمن أهداه إليه.

ويجد سلواه في شعره الذي صب فيه تحنانه.. ويذكر أصحابه في المنفى.. في السجن.. منهم مشردون في الأرض.. ومنهم من رحل في الرحلة الأبدية..



اليوم الأخير

وتسلل مع فرسه وبندقيته وثلة من رفاقه وأهله.. وجد مسرباً في جوف الصحراء.. بعد أن تكاثرت جراحاته..

في هذه المرة كان الجو غير ملائم.. ولم تكن الأحوال في صالحه.. فقد روقبت الحدود.. وشددت الحراسة.. ثم اتصلت الإدارة العثمانية بالمسؤولين في تونس راجية أن يساعدوها في القبض على الشيخ الفارس..

وتكاثرت المآزق.

ولكنه متعود على المآزق والحرج.

واتجه صوب واحات «فزان» ينشد هدوءاً وراحة.. فقد تكاثرت الضربات عليه.. وتكاثرت الرياح من شمال وجنوب.

فرسانه في البيد بينه وبينهم آماد وأهوال.

تونس لا يستطيع الهجرة إليها.

والجبل لم يقدر أن ينفذ إليه هذه المرة.

فرأى أن يستريح.. حتى تتبدل الأجواء، ولعل رياح المستقبل تكون في صالحه أراد أن يستريح لا استراحة اليائس. بل استرواحة المتحفز الذي يفكر ماذا يرسم لمستقبله، أراد أن يهدأ قليلاً، بعد سنوات مريرة من المصاولات المستمرة، وفرسه المتعود على الانطلاق مربوط في وتد الخيمة يهمهم، وكأن هذا الصديق الأليف استشعر الملل من السكون وإطالة السكوت ذلكما السكون والسكوت المطبقين على جوف الصحراء.

في هذه الواحة الهادئة، وبندقيته محشوة لم تنطلق منذ أسابيع.

وكانت لا تفرغ حتى تملأ.. ولا تملأ حتى تفرغ..

وزوجه الوفية تهيىء لـه طعام العشاء وتسامره مع ابنته «برنية» التي تجيد قرض الشعر البدوي ـ ولها ذاكرة عجيبة في حفظ معارك والدها.. تروي المعارك.. معركة معركة.. بالتفاصيل الدقيقة والأيام العديدة.. وأهل الواحة يكرمون هذا الوافد الغريب.. ولعلهم لا يعلمون قصة بطولته، يكفي أنه شيخ من شيوخ الصحراء نزل في واحتهم.. فليجد هذا الوافد راحة.. وهدوءاً.. وإكراماً..

ويطول به التفكير.

إن هذه الواحة على اتساعها كالقفص للطائر المتعود على الجولان، ولكنه كيف يبدأ الجولان... وما زالت في جناح الطائر جراحات من كثرة الجولان.

وانطلق واش يحمل نبأ إقامة الشيخ «غومه» في هذه الواحة الهادئة البعيدة.. إنه هناك مع أهله.

من غير جحفل ولا جيش.
أسرعوا قبل أن يطير الصقر.
قبل أن ينفلت العفريت من قمقمه.

وأسرعت الولاية بحملة عسكرية اختير لها اللواء «مصطفى باشا» بعساكر عديدة.. ومعه «علي بك رئيس الأرنابودي».. ومن العرب «الحاج أحمد الأدغم» و«القيش» و«الغالي» و«التلوع» و«موسى بن صوله» و«العكاري» وآخرون من فرسان العرب والعثمانيين.

جلس الثلاثة «مصطفى باشا» و«علي رئيس» و«أحمد الأدغم» في شبه مؤتمر عسكري يدرسون مواقع «غدامس» الواحة الجميلة.. ومداخل منطقة «وان» ويضعون خطة الإطباق على الشيخ «غومه». لقد تعب الفارس من الجولان.. لقد بقي الصقر وحده، فليضعوا له «حبيلة».

في شهر يونيو 1856 م في شهر شعبان بنواحي «درج» في وادي «وان» أسرعوا إليه في عزلته.. وحيداً.. في حرمه ونسائه، بادروا مباغتين بحركة تطويق شملت مداخل الواحة.. ومنافذها ـ قبل أن يستأنف المصاولة.

وفزع له أهل الواحة الذين لم يتعودوا القتال.. وقفوا بجانبه، ولكنها الكثرة ـ أحياناً ـ تغلب الشجاعة.

ودارت المعركة ـ وكان رجال «غومه» وفرسانه غائبين وأبلهم كذلك، فركب إليهم «غومه» وحده.

ركب للدفاع، كان يدافع بالأمس البعيد والأمس القريب عن الجموع والوطن، واليوم.. غداً في هذا الوادي المنعزل الصامت مطوقاً يدافع عن نفسه وعن حرمه.

ربع قرن وهم يحاولون قنصه فلا يستطيعون.

ها هي الفرصة أتيحت لهم. والصقر حصلته «الحبيلة». والأسد الجريح المزمجر تنطلق عليه النيران من كل صوب...

واسمع الأزهري في كناشه يقول بالحرف:

«فركب إليهم «غومه» وحده وكان فرسانه وابله غائبين، فرد «غومه» الجيش عن حريمه خمس مرات»..

لقد أبدى الرجل شجاعة نادرة.. ودفاعاً مستميتاً. وحملت عليه القوات المهاجمة حملة شديدة.

وقتل «غومه»..

سكت الصوت الناري، هدأت العاصفة التي أزعجتهم ربع قرن ويزيد، صرع «غومه» في أواسط شعبان 1274 هـ ـ 1858 م كما تشير كراسة الأزهري وهي أصح الروايات..

أو يوم 10 رجب كما يشير النائب..

وكانت قوات مصطفى باشا طاردته زهاء خمسة أشهر في صحراء فزان... كان ذلك في صيف 1858 م. وضرب مثل: «جاب رأس غومه».

الولاة الذين عاصروه

أحد عشر والياً عاصروا حركة غومه كما رأينا، وكان ترتيبهم على الوجه الآتي:

1 — الفريق نجيب باشا 1835 م سجن «غومه».

2 — محمد رائف 1835 — 1836 م أطلق سراح «غومه».

3 — طاهر باشا 1836 — 1837 م مناورات.

4 — حسن الجشمه لي 1837 — 1838 م معارك ومصاولات.

5 — علي عشقر 1838 — 1842 م أشد الولاة قسوة وعنفاً.

6 — محمد الأمين باشا 1842 — 1847 م تحسنت علاقاته مع غومه ثم نفي في عهده.

7 — محمد راغب 1847 — 1848 م كان غومه منفياً.

8 — الحاج أحمد عزت 1848 - 1852 م كان غومه منفياً.

9 — مصطفى نوري 1852 — 1855 م في أواخر عهده رجع غومه من المنفى وبدأت المصاولات.

10 — عثمان باشا 1855 — 1857 م المعارك الأخيرة.

11 — أحمد عزت 1857 — 1860 م قتل غومه في عهده.

ملاحظة :

1251 هـ بدأت المضايقات بإلقاء القبض على غومه .

1274 هـ انتهت الحركات بمصرعه .

بقي في المنفى حوالي عشر سنوات وفي شمال إفريقيا حوالي عامين بعد انفلاته .

من رسائله

إن الرسائل التي وجهها «غومه» من أهم المصادر التي تلقي ظلالاً على حقيقة حركته.. وهي على جانب كبير من الأهمية التاريخية.

وقد حررها في فترات مختلفة، منها ما كان قبل حركته، ومنها في أثناء معاركه. منها في منفاه، أو في مهجره أو عند عودته.

مكتوبة بخط عربي واضح.. وأسلوب يفهم ليس بـه غموض ولا مشحون بغرائب التراكيب التي كانت آفة الرسائل في ذلك العصر.

ولا نزعم أن الرسائل من قلم «غومه» ولكنها من توجيهات أفكاره.. وكل رسالة بها إمضاؤه أو ختمه.

كل الرسائل التي عثرنا عليها موقعة منه، وقد طالبت بالإصلاح ورفع الظلم واستعمال اللين.. وأوضحت بصدق وصراحة أن حركته إنما هي حركة إصلاحية.

وقد أشرنا إلى هذا في موضعه من هذا الكتاب.

ولا نستطيع أن نجمع كل الرسائل. إنها كثيرة. ولعل المفقود منها كثير.

والموجود يضم مجلداً كبيراً لو حاولنا نشره.

ولكننا نكتفي هنا بإيراد فقرات من بعض الرسـائل.. كصـورة.. ونموذج، ليكون من الأدلة التي تدعم الرأي القائل.. إن «غومه» بطل حركة

إصلاحية وكان يدعو للرأي والمسالمة، كان يود المسالمة والمفاهمة ويمد يده للتفاهم.. ويقدم مطالبه دفاعاً عن حق الشعب.

رسالة بتاريخ 16 محرم 1272 هـ.

... المعروض على مولانا ولي النعم دامت معاليه، وحسنت أيامه ولياليه، موجبه أننا حررنا لسيادتكم قبل هذا عدة أجوبة ملتمسين من سيادتكم نعم الرضا والعفو فلم يحصل المقصود، ولعل المانع خير إن شاء الله. ومن العجائب عجب من كان يطلب في رضا الدولة والعفو ولم يجده. وهذه القلاقل والمصاريف وسفك الدماء الممتحنة بها المخلوقات فالله سبحانه وتعالى عالم بسببها ومطلع على الضمائر.

وقصارى المأمول من السيادة أن لك عمل وتسلمه في الأيالة فالعمالة عمالتك وتجدها من غير مقاتلة ولا مانع يمنعها منك.

وإن كان مرادك في قتال المسلمين من غير وجه حق فنظركم أعلى وأعلى وباقي ما عندنا يخبركم به الموقر المحترم أمين أفندي مشافهة.

وكما وجهنا إليكم قبله يوسف آغا مدير زوارة والسلام.

غومه

16 محرم 1272 هـ

رسالة بتاريخ 18 رجب 1272 هـ.

إلى حضرة الأسعد والهمام الأمجد ذو البصيرة النافذة والعقل التام.

سيدي كاهية باشا.

أدام الله شوكة إقباله، ولا زال بعين الله ملحوظاً وبعنايته محفوظاً.

السلام عليكم الأتم الأكرم.

إنه قدم علينا الأعز جوابكم وحل فينا محل الروح في الجسد وفهمنا

فحوى خطابكم، وما بلغ من كريم فضل إحسانكم ومنبع كرمكم وجودكم، وفيض سخائكم، ربنا يجزيكم أحسن الجزاء بالبقاء والعز في حياتكم وبالجنة في عقباكم آمين.

وبعد هذا إن شاء الله يأتيكم جواب سيدنا صحبة الإبل التي أخذوها من نواحي الجبل، وفعلنا فيها ما يكون عبرة لغيرم ولو أن القتل ممنوع في الأصول لقتلناهم، وماكثين في الحديد مسجونين عندنا.

ونعرف أن الشكاوى ستبلغ أفندينا أيده الله.

سيدي لكن سرك فارغ فحيث اقتضى نظرك في الكفالة فينا وتحملت بجنابنا فنحن لا يمسنا فتور ولا يصير تقصير منا.

واقطع الشكوك والهلواس من خاطرك يا سيدي؛ وكل من في مطراح يتهمنا ولا تصغي لقول قائل والله على ما نقول وكيل، ورجوع الناس كما عرفناكم ولا لنا سعاية إلّا في وجوه الإصلاح. ودام وجودكم لسيادتكم وبقائها إلينا ومع وجود سعادتكم وهمة سيدنا إن شاء الله تحصل المقاصد بأسرها ولا زيادة سوى الخير والسلام بداء وعوداً. من الفقير إلى ربه غرس إحسانه عبده

غومه بن خليفة

18 رجب 1272 هـ.

طلب إراحة الناس، وإجراء قوانين، وتقديم مضابط موقعة من الشعب.

رسالة بتاريخ 7 ربيع الثاني 1272 هـ.

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وسلم.

الأسعد الأرشد، الهمام الأمجد، الخلاصة الأنجد، سعادتلو كاهية بي.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بغية إعلام السيادة خير إن شاء الله تعالى هو أنه سابقاً حررنا جواباً قبل

هذا إلى حضرة ولي النعم أفندينا دامت معاليه وحسنت أيامه ولياليه وإننا في انتظار رجوع مضمونه.

وإن شاء الله تعالى على مسرة وتهدئة الشر وراحة الفقراء والمساكين؛ والمرغوب منكم رعاكم الله تعالى أنه إذا أمكنكم الكلام مع أفندينا المشار إليه في حق الضعفاء والمساكين وتهدئة السر وراحة العمالة من غير تعب ومشقة وكل ما يلزم الوطن من الجرايات والقوانين اللازمة والعوائد الجارية يأتيهم موصل إلى محله، ولا يلزم إخراج الأوردي - أي الجيش - المنصور ولا تغلغله، واختبرونا بالامتحان على هذا المنوال يظهر لكم الصحيح من القال، وتأتيكم مضبطتين من أهالي الوطن مذكورين على متين قصدهم وإيضاح مطلوبهم. كما يطلع حضرة مولانا المشار إليه وربنا سبحانه يوفق الجميع لما فيه السداد بجاه شفيع العباد، وكما يأتيكم صحبة الحامل «حرامان» لفرش منامكم على وجه البركة وطال عمركم في رعاية الله وحفظه والسلام.

عبد ربه
غومه بن خليفه
في 27 ثاني الربيعين

يرجع الإبل ويحافظ على النظام

رسالة بتاريخ 28 و . . 1271هـ

حضرة الجناب الأفخم والملاذ الأفحم مولانا المشير سيدنا دامت معاليه وحسنت أيامه ولياليه آمين.

المعروض على أعتاب بابكم العالي أنه صدرت الكلمة في تهوين العمالة وقلة الفساد وكما أنه لا يخلو أمر. . .

يوجدون إلى الآن لم بان علينا رضا عفوكم، والعامة منتظرة ومرادها الإفلات وعدم الراحة كالسارق المارق وخصيص العقل ومن لا يقر العواقب مما

لا إدراك له، ومن ذلك أنهم طرفوا فارسان أهلهم في ساحة الجبل ولهم مدة قبل وصولنا خارجين من عرب «ورشفانه» فأخذوا إبلاً من قرب سوايح الشاطىء وقولهم أنها من إبل - باشاغه - وأتوا بها إلينا، فلما سمعنا ذلك عرضنا لهم فرسانك وأخذوا منهم الإبل المذكورة وقدرها ثمان وعشرون زاملة بحيرانها.

وكان مرادنا توجيهها مع حامل الجواب إلا أننا وجدناها تاعبة وربما فيها الذي لم يصل فأبقيناها طرفنا لأجل الحفظ والاستراحة.

وها أنا أعلمناكم بذلك حضرة السيادة، وهي باقية عندنا على ما يأتي إذن السيادة لأي موضع نوجهها.

ويكون في شريف علمكم أننا ليس نقبل فساداً ولا خارجاً عن الطاعة وها نحن منتظرون الحاضر لأجوبة التي قبل هذا.

إن شاء الله تعالى يأتونك بما فيه الرضا وهذا ما عندنا عرفناكم وطال عمركم في رعاية الله وحفظه.

غومه بن خليفه

28 و 1271 هـ

من أشعاره

غومه يحن للفروسية ويصف جواداً أصيلاً.

عندما قدم «غومه» متنكراً إلى تونس هارباً من منفاه بتركيا تاركاً «طربزين» وتجول في أوروبا.. والجزائر.. وتونس، وكان آنذاك متنكراً في ثياب «زعلوك» كما يقولون؛ وفي شكل متجول مغربي من حجاج المغرب الذين كانوا يجوبون الصحراء.. ببرنوس ولثام وبلغة وهو يتكلف اللهجة المراكشية..

وفي مدينة «صفاقس» وجد أحد أنصاره من قبيلة العلالقه في دكان اكتراه يصلح فيه الأسلحة ويضع الأخشاب للبنادق ويطلقون على صاحب هذه الصناعة «سرار».. وكان هذا الرجل العلاقي من ضمن صفوف «غومه» ولجأ إلى تونس بعد بطش «أحمد باشا» في حملته العنيفة على بلدة ككله والجبل.

قصد «غومه» دكان الرجل وهو منهمك في عمله.. مكب على تسوية الأخشاب وتصليح الأسلحة.. وحياه «غومه».. فلم يعره الرجل التفاتاً كبيراً إذ لم يعرفه في هيئته المغربية، وظنه من السابلة.. أبناء السبيل العابرين، وسمح له أن يجلس أمام الدكان ليستريح من وعثاء السفر.

وبينما «غومه» جالس أمام الدكان.. مر حصان من جيد الأنواع ويصحب الحصان خديم أحد الأعيان.. وكان الجواد يثب ويقفز.. ويمشي مشية الخيلاء..

وتذكر «غومه» حصانه.. وصولاته.. وأيام ركوبه لجياد الخيل

فهمهم.. ثم دندن.. وقال مرتجلاً هذه القصيدة التي تعتبر من عيون الشعر البدوي في وصف الخيل:

هَـني بـال من راكـب جـواد مـنْـقّـى
وسَـلّك ديُـونـه قـبـل مـا يـتـقّـا
ربـاع وجـاهـل
وين مـا دعس خـلا الأوعـار سـواهـل
ديمـه المـنـاهـل مـا تـزال مـنـاهـل
والأوزاغ تـقـعـد لـلديـاب مـلقـى

* * *

هَـني بَـال من راكب جـواد ميـصًـلْ
امـكـمـل عـلوق المنـدره ومـقـصَـلْ
والسـرج من سـوق الـرّبَـاع مْفَصّـلْ
مِـتـينْ بـوطـيـره مـكَـلفْ حَـقَـه

* * *

هَـني بَـالْ مـن راكبْ ربَـاع مـصـفـى
يجي منْـحـدِر كيـف العَـقَـابْ مـهـفّـى
مـلايـين تـغـشـم والسـيـوف تـسـفـى
والـلـي بـقـالـه دِيـنْ يَمْـلكْ حَـقَـه
كِـيـفْ السَّـلـوقـي زُورَه[1]
وَيَـطْعِنْ كـمَا صَـقـر الـلحم في الـدُورَه
ويسقط عـلى الـطابُـور كِيفْ الكُـورَه[2]
مِـنْ وَسَطْ مَـدْفَـع والـغْـمَـاره وقَّـه

* * *

(1) رفيع رقيق.
(2) القنبلة.

شُـــورَه الْـكِـــرِيـــدْ[1] مْـــعَّـــاوِى[2]
كثـير الْعَتَـاتِي[3] سِمَـحْ وَجْهَــه ضَــاوي

لُــونَــه كــمَا مَلفِنْ جَــدِيــد ســمــاوِي
وبـــوه مـن جبـــال التَّـــلْ وامـــه زرقـــه

* * *

ايْجِي في الْفَــزْع سِيــدَه نهار الــداوي[4]
لا صـــار يـــوم الـــكـــرب مَـــا يِـتَـــقَّـــا

فنظر إليه الرجل وعرفه.. ورمى بالآلة التي كان يصلحها وكان حديثاً ذا شجون وأرسل رسائل سرية إلى أنصاره وقومه وبدأت تجمعات للحركة كما أشرنا في فصول سابقة، وتروى هذه القصيدة على هذا المنوال:

هَــنِي بــالْ مِنْ راكـبْ ربَــاعْ وجِـقَّــه
وخَلصْ حقـوقـه قبــلْ مــا يِـتَـقَّي

ربّــاعْ وجــاهــلْ
دَبّــك حــافــر يخلّي الــوعــر ســواهــل
اتعُــود المنــاهِــل كيفْ قبــل منــاهــل
والأقــحْــاف تقــعــد لــلكــلابْ مْـلقَّـى

* * *

ربـــاع وطَـــايِـــر
في عـــقـــد مصَـــلّبْ يجّـــي بــشــايـــر
أيجَيبـــه يَســار الـــدّفّ شــرقي الـــزايـــر
طــراريـح خِيلَة الـــدُّل شـــوشتـــه نقـــه

(1) الحصان.
(2) معاوي: خيل معروفة بالجودة نسبة إلى المعاويين على الساحل في تونس.
(3) شعر العنق.
(4) الهجوم.

خطاب لفرسه:

وعندما زج بغومه في سجن القلعة هو وجماعته كان أعضاء مجلس الإدارة من العرب معه.. وعندما سمعته فرسه يتحدث همهمت وصهلت فقال يخاطبها:

ما يُوجعك هم الزمان وكَدَّه	لَوْ تُقْعدي ستينْ حُول ومُدَّه
مَا يُوْجعكْ تخْميمِك	ولا يُشْغلْك غزلكْ ولا تصريمك
ولو تُصْدقي مع الله في تِسليمك	سَاهِلْ عليه اليسر بعد الشدَّة
ما توجعكش الكربه	ولا تنفعك عند الممات الهربه
أجلك ومكتوبك وملح الغربه	حَسابْهُم بطّال ما يتعدى

حصان ومعركة:

كان عند «غومه» حصان أصيل مات في موقعة يوم «جنزور» البلدة التي تشرف على طرابلس، وقد غامر الحصان ودخل المعمعة حتى أصابته شظايا وطلقات فقال مخاطباً له على عادة شعراء البادية:

لُولا مَناقِد[1] للتك[2] من سِيدك
مَا لْهمك سَامر[3] شديّد يكيدك
لولا حشم للاتك[4]
ما لهمك طابور فيه أماتك
ولا ياكلوا الأدياب من دفاتك[5]
ولا ينْصَلوا طرحة انعال من أيدك

(1) نقد وسخرية.
(2) سيدتك.
(3) سوق.
(4) خجلها أمام الناس عندها يهزم فارسها الحبيب.
(5) معركة.

تحنان وفروسية:

قال «غومه» في منفاه بتركيا يصور حنانه للفروسية وانطلاقه فوق صهوات الخيل:

لي وقت مـا لُجْتْ الـوطَى يـا انـدَادِي
ولا سِــرْتهَا مـا بـين جـاي وغَـادي

* * *

لا لُجـتْـهـا عــلى جَـيِّـد
مـكـرومُ ضـهـره في الخـلا يـصـيِّـد

* * *

والـوقـت في أولاد الـرجـال يـقـيِّـد
والـفـقـر يْـغـبِـي مـنـزلـة الاجـواد

* * *

لا سِـرْتَهـا عـلى عُـوَده
ولا لاح في رجـليّ مـتـين عـمـوده

* * *

لي وقـت مـا جبـتش وسِـيقْ نقُـوده
نخـاوِيـل ذَابِـلْهـم بـنـار زنـادِي

غومه يصف رحلته في البحر وهو في طريقه إلى المنفى:

قال وهو في السفينة المتوجهة به إلى استانبول صوب المنفى يصف البحر وأهوال السفينة:

جُـزْنَـاه خَطْ بـخَطْ زي الـنـيـلَه
وَفـتْـنَـاه بـر الـعـز ومْـرَاحـيِـلَه
جُـزُنْـاه في الـشـرَّاقـه
قـطعْـنَـاه خَطْ بخَطْ قَـلْبِـي طـاقـه

دمــوعـي عــلى روس اللحى دفَــاقــه
اشــابيب من بعض الـسحــايـب سيـله

* * *

جُـــزْنَــاه مــالَــه جُــرَّه
والـكَــافْ يِتبْــاعِــد والبـحــرْ يـتْـعَـرا
غــابــوا الأبَــايــرْ كــامْــلَة فيَ مــرَّه
والـصـقــر دِيمَــه تْحَـضْـلَّه الْحبـيــلَه

* * *

جُــزْنَــاه غِـيــمْ تْـقَــاصَــا
في وسط مــركــبِ عــانــدو وريــاسَــه
لا فــيــه لا لايِــجْ ولا قَــنَّــاصَــه
ولا نَــجَــعْ مْـطَارحْ يهْــدر خِـيــلَه
قــطعـنــاه غِـيـمْ يمـوَّجْ
في وسط مــركـب في الغــرِيـقْ يَبـوج
وبَــيَّــه تِــرْيَــتــا الــزمــان يْحَــوْج
لا ويــن مـكـتــوبـك تِبـي تمْـشِـيله

* * *

جُـزْنَــاه غِـيْــم تَـقْــوّى
وهــم المـضــاجــع جَــانَــا في مــرا

إلخ . . إلخ . .

نهار قرقارش:

وعندما بلغت جحافل «غومه» قرقارش الواقعة على بعد ثلاثة كيلو مترات من مدينة طرابلس وكاد أن يدخل العاصمة وصف المعركة بقصيدة مطلعها:

هــزمــنــاه في «قــرقــارش»

ناض عسكره مكسور ما يكارش

الخ..

وفي إحدى المعارك استطاع «غومه» أن يرجع الطبل بعد أن أخذه منه خصومه وسجل هذا الانتصار في قطعة، منها:

جِبْنَاه طبل العز بعد رفوعه
شبُوشَات دارتها العرب مبدوعه
جِبْنَاهَ منهم جايبْ
نهار ارْبَعا واتَه شمُوسَه كايبْ
يا ريت عمي الحاج زيه غايب
راكب على شَهْبا تسير هلوعه

بان القلاع:

وقال «غومه» عندما رجع من تونس بعد افتكاكه من المفنى، وعند «قارة» الطاحونة تظهر «قلاع» غربي قطيس:

بان القلاع وبانت الطاحونه
زعم ناسنا بعد الغياب نسونا؟

* * *

تحت القلاع الملقّى
ولا يبين غير الرصاص وصَلْقه
يَا ابْجَاه من رزقه أكثر من خلقه
لم بينا في يوم هابي عُونَه
بَانُو نَاسَه
وبان السَرايا دايره عَسَّاسَه
وكل من تكُولفْ لَوْ حوله راسه
وقاعد ملَوحه مشَخْصاتْ عيونَه

* * *

تـتـفـكـرشْ يـوم الـصـلقًـه
واهـل الـسـرايـا طـالـبـين المـلقى

(الصلقه) مكان في قطيس دون غريان واد يزرعه بعض العربان.

من غزل غومه

تفاحَة!

في عهد ولاية «محمد الأمين» كان يزور السراي بالقلعة.. وكان يخرج مع أصحابه أعضاء مجلس الإدارة في فنائها الواسع.. وكان بالقلعة والسراي مساكن كثير من العائلات الحاكمة وكبار المسؤولين... وفروسية غومه ملء الأسماع.. ملء الفؤاد.. وأراد نسوة في السراي أن يشاهدن غومه ـ ويعرفن وجهه.. سمعن به كثيراً.. ترى كيف هو، ومن هو، ودفع حب الاستطلاع.. أو إعجاب المرأة بالفروسية والبطولة أن يسألن إحدى الخادمات: هل تعرف «غومه»!.. هل تستطيع أن تميزه من بين الرجال وترشد عليه؟..

قالت الخادمة: نعم!

وسلمتها السيدة ساكنة السراي تفاحة لترميها على «غومه».. حتى تميزه من بين أصحابه وترى وجهه.

وفي إحدى صباحات يوم الأربعاء.. نفذت الخادمة الخطة ورمت التفاحة من النافذة فسقطت على «غومه»، فنظر إلى أعلى.. وشاهد وجوهاً مليحة وراء الشباك الحديدي فقال مرتجلاً متفائلاً:

نهار الاربعاء مبرك عَليّ صباحَه
سقطت عَليْ من السما تفاحَه
مبرك عَليْ يومه
ومبرك عليْ مشيته وخطُوَمه

يـوم الاربـعـا اكـان نِغْـرسْ تُـومَـه
تَـطلع قـرنـفـل رِيحَـتـه فـوَّاحـه

عتاب وملام:

وقال غومه حين تخلى عنه بعضهم في أحد المواقف وخاطب صاحبه الشيخ محمد بن مدلل:

تحـزمـت بـيـكـم درْتـكُـم فِي صَـفِّـي
وصـيـرتكـم في أيـدي نقبتـوا كـفـي

وهذا عتاب في محله وتصوير من رائعات التصوير. . ولكنه الشيخ محمد بن مدلل كان قد آثر الانسلاخ من المعركة والانضمام إلى خصـوم غومه، وأجاب يرد على غومه يحاول أو يثني عزمه ويثبط همته:

أنت شيـخ مـا تضـرب عليـك النُـوبَـه
لـكْ طبـل صَـادِي وعشتـك منصُـوبَـه

* * *

مـا تْـقِـدْ تـدبَّـرْ
تقـطع بـلا مفـاصـل غـليظْ تهبَّـر
والـكسـر تبـغـيله طـبـيـب يجَبَّـرْ
والحـر يـاكـل لقـمتـه عـلى دُوَيَّـه

* * *

مـا تـقـد دبـايـر
تـعـانـد ولـد سلطان فـيـه تكـايـر
ومن عـانـد السلطان نـومـه حـايـر
زي من خـدى عـذرة نسي مغصـوبـه

ولكن «غومه» رغم هذا. . ورغم شعر صاحبه فقد رد عليه. . رد شعراً. . ورد عليه بالاستمرار في معاركه. .

ولد غومه:

وقال غومه حين بشر بولده الذي سماه «خليفه شومه» وكان آنذاك بقلب الصحراء:

من يـوجعـه غـومـه بـدى شـيبـاني
زاده ولـد سـمـاه «شـومـه» ثـاني

* * *

وكان يقصد بتلقيب ابنه هذا عادة العرب أن يختاروا لأبنائهم أسماء تفزع خصومهم. ومن الاستطراد المناسب أن نشير أن أحد سادة العرب القدامى سُئل: لماذا تطلقون على خدمائكم وعبيدكم مثل أسماء.. ريحان.. وزهر.. وعنبر.. وتطلقون على أبنائكم مثل.. صخر.. وشديد.. وعنود.. وصعب.. ومتعب؟.. فأجاب: لأن عبيدنا للفراش.. وأبناءنا للمعارك والقتال:

* * *

غومه بعد أن شاهد الجبل في عودته قال:

ظهـر مـزن من عـنـد الأبْحـار
في وِيـنْ عـود كـانَ بـالي
يـا سعـدكم يـا عـرب الاجبـال
ويـتـعـسـكـم يـا رمـالي

خادمة غومه تندبه يوم مصرعه:

عندما صرع «غومه» في الواحة وكانت خادمته معه فقالت:

يـا طـار غـومـه طـار نـقـلوه في مـشـوار
يـا طـار بـابـا خـليفـه في الـنجـع لا مـن كـيـفـه
بـعـده قـعـدنـا عـيـفـه قـعـاد الحـطب في الـدار

* * *

يا طارِ بابا رقيه في النجع لا من زيّه
شمّاته قطعيه كافوه على ما دار

* * *

يطار طار بابا خدوج مولى الجحاف العوج
سكان كل فجوج والنجع بعده حار

هل أنت؟

عندما وقع «غومه» صريعاً والكتيبة المهاجمة له فيها عديد من الفرسان.. فأخذ كل يزعم أنه أتى برأسه.. وسهمه الذي أرداه..

من هؤلاء القيش.. والتلوع.. وابن صوله.. والعكاري وغيرهم، كانت مفخرة بين الفرسان من أتى برأس «غومه».

وذات مرة كان مجلس يضم فرساناً وشعراء.. يذكرون غومه وبطولاته وصولاته فانبرى «القيش» قائلاً:

أنا جبت راس غومه.

فقال الشاعر: «الصرار» على البديهة موجهاً الخطاب «للقيش» هازئاً بدعواه العريضة:

قالونا يا «قِيشْ» قاتل «غومه»
عليك بالعدالة كَاتِبين رْسُومه
كَانْكْ قَتْلتَه قِلّه
وكَانْكْ نكرته اتمْ عِنْدك دَلّه

* * *

يا قيش ماكَ وحدك معاك محله
وهن غايبات مقويات عزومه
وقت النظر فَهْقر سِبيْبك.. وَلَّى
ودم المليح عند الاجواد دمومه

* * *

كــاتــب رســومُــه قــاعــد
ولا يـونسـك عقلك تقـول تبـاعــد
كـانْ هَبهَبت رِيحه وعُـونه سَـاعـد
يْجيـك من أفـكَ التَـاربيش تلوُعَـه؟
وفي ايــده سقيمـه للرواح تســاعــد
وعـين سيدهـا بَخْش الحـاق تْـروعُـهَ
عِـينْ سيِـدهـا بَخْش اللَّحـاق دوُاهـا
الخ . . .

* * *

رثاء «غومه»

وقال شاعر بدوي يرثي غومه ويصف مصرعه ويومه الأخير وهي قطعة على وزن «الطبيلة» وهي تستعمل مع الإيقاع وضرب أنواع الآلات:

يـا مشيـة غـومـه حتى واحـد مَـا مَــاشِيهَـا
دِرْجَـاح النمشَّه تِـرْخِي في البيت طَـراحِيَهـا
والــليِّ بِـنْــدقْتَــه بِـنصـفْ الميَّــه شَــاريهــا
والسـايق سِمْحَـه

* * *

والســرْج مكلفْ والكِيــطانْ حــريــر امّـلف
لاجِي يِتْحَلَّف.. في مــولا الكنْبُـوط مغَلِف
مـولاَ الكنْبوط، يضَـل يَولـع فيكم بالسُـوط
لــو كــانَ حيَ راهَــو نَـازِل في نــالــوت
نــازل بِـبيُـوت، وبـيـتــه للزَوُالي قُــوت
بيت الزوالِي
هُــو عُــز المــير الــغــالي
تلقــاه يضيــع في الجــود مــالــوش مثــالي

غـالب بـوزيـد اللي مْسَمّي قبـل هـلالي
إلـي صيته ظَاهـر بـدل دَرْنـه بـالمِشْـراق
سـلم مـا دار
نهار بَـخْشْ الـيـوم الـغـبَّـار
يوم التبخِيشْ
خـلا الاتـراكْ مْـبَـاطـيشْ
مـا بـطش مـنهـم في ردًّا عَـرْقُـوب
جـيش تـقـولـيـشي دبـيـون
يحـوش في امـعـازه تحـويش
والـوطن الفـوقي، هـداك لغـومـه تخصيص
ركـاب الـفِلوة هـللي مـسـمـوتـه قِـسِّيسْ
لاجِـتْ تَقـمْـزْ
مـا بـين أعـداهـا تـسـتـمـر
فـارسهـا فـارس في خيـار المشـوار يعَمـرْ
يطلق في الكالـح، يطلق في البـرقوق مجمـر
تشبـح برقوقـه
زي الـنـار الـلي مـطلوقـه
هـداك «غومـه» شايش وسخـونـات عـروقـه
لا عـرى راسه، والشـوشه وففت مـرشُـوقَـه
لاقَعْمـز لصحـابـه، والي يمـد عليـه يعُـوقـه
نـاسَهِ بنـداقَه وأهـل المِشْطه الـلي طِـرشـاقـه
لا صـارت عاقـه، ومعيط في النجع يتـوقـه

* * *

جـت بنتـه تغسله في حـوايـج عـيـده
قـالت له سيـدي جـانـا التـركي بِـطراريـدَه
ركبَ ولاقـاهـم، ضـرب واحـد خلاه تـريـده

عــمــر بــيــزده شــوى خــلوه تــرِيــدَهْ

* * *

واختـه «بـرنيـه» مـا بــين النســون تِضَمَّــارْ
قـالت يـا «هــوه» عـلي، لا منــه بي دَبَّار
كــان نسـاوين وضــراري قـاعــدين صغـار

* * *

نوادر... وأمثال عن غومه

غومه اسم كان يتردد كثيراً على الألسن.. وشخصية أثرت في الأدب الشعبي من نواحٍ عدة في الأمثال:

☆ القصص.
☆ النوادر.
☆ الشعر.

أثرت في تاريخ الشعب.. والحياة السياسية في تلك الآونة.. وكبطل، فارس كان الناس، وإلى عهد قريب، يذكرون الكثير من الوقائع.. والحقائق.. ويذكرون كثيراً من القصص والنوادر ـ وقد أثر في الأمثال.. فجرى على لسان الشعب عديد من الأمثال عن غومه.. وفي القصص ومنها أكوام وأكوام.. شأن أي بطل يعجبون به.. وأي فارس يجد مجالاً في النوادر.. والشعر..

وعن هذه الصفحة الموجزة نذكر شيئاً من الأمثال.. والنوادر المضافة لغومه والجواب السريع أو الجواب المسكت من شيمة الذكي اللبق، به يقنع في مجال المناقشة والمحاجة.. وبه يتخلص في مجال الورطات والمآزق.

وغومه كان ذكياً سريع الجواب حاضر البديهة والنكتة..

وهاتان نادرتان من حياة غومه فيها جواب وسرعة بديهة.

عندما أطلق عليه أحد المحققين معه أيام اعتقاله كلباً فارهاً لنهش لحم

غومه.. فأخذ غومه بزمام الرجل والتصق به ليتقي صولة الكلب المسعور، فقال الرجل هازئاً شامتاً به:

كيف تخاف وأنت ترعب الفرسان.. تخاف من كلب؟

فأجاب غومه بكلمة طريفة سريعة:

«لحمي ما يهونش علي نرميه للكلاب».

وذات مرة كان «غومه» نائماً في خيمته وجاءت خادمة وشاهدت سيدها النائم الذي تملأ معاركه الصحراء وتحمل القوافل والركبان أنباءه. وكان قصيراً جداً.. وعجبت من شدة قصره.. وخطر لها أن تقيس هذا الفارس المرعب كم شبراً طوله.

وبدأت في خفة وحذر تقيس بالشبر مبتدئة من أخمص قدمه.. وعندما وصلت متدرجة في تشبيرها إلى مكان قلبه. قفز وقال.. هنا.. وحس.. القياس بالقلب فقط فحسب.

وكان جواباً لسؤالها الدائر في خاطرها، وكانت ابتسامة وغدت نادرة ترويها البادية عن «غومه» إلى اليوم.

وذات مرة أرادوا أن يداعبوه ويهزأوا من قصره. وفي السراي علقوا كسوة في السقف.

وقالوا.. هل تستطيع أن تنالها؟

وأسعفته بديهته وجرد سيفه وضرب به الكسوة وقال «إن لم تنلها كتوفنا.. تنلها سيوفنا».

كلمة في مكانها.. وحركة بارعة.. وإن كانت هذه النادرة تضاف إلى قصير غيره في عصر القره مانلي..

الأمثال وغومه

من الأمثال التي نشأت وسرت وكانت من آثار حركة غومه ولا تزال سارية إلى اليوم في الأدب الشعبي بليبيا:

ـ جاب راس غومه.

يضرب للشيء الكبير الهام.. ويسخر الإنسان من صاحبه فيقول: امال جاب راس غومه. ويذكرنا في الأدب العربي القديم:

«جاب رأس كليب».

ـ الضرب للمحاميد والثناء لغومه.

يضرب لمن يحوز صيتاً ويطوي صيت من قام معه. فالمحاميد كانت تبلي مع «غومه» وظل اسم «غومه» شائعاً دليلاً على الحركة.

ـ اللي طرالكم يا محاميد يطرالكم يا جواري.

وكما سبقت الإشارة، الجواري والمحاميد قبيلتان عريقتان، وفي حركة غومه المحمودي كان طبيعي أن يطارد المحاميد.. ثم تسري المطاردة إلى جيرانهم ومؤازريهم الجواري. والمثل يضرب لمن سيأتي دوره أو لمن يتوقعون له شيئاً بعد حدوثه لزملائه.

ـ امال وليت غومه.

يقال في سخرية لمن يظهر بطولة.. ويتساءلون في هذه الصياغة.

فقرات من رسائل غومه

«ولا لنا سعاية إلا في وجوه الإصلاح»

من رسالة موجهة إلى عثمان باشا

«وكل من هو في مطرح يتهنا.. ولا تصغي لقول قائل.. والله على ما نقول وكيل ورجوع الناس كما عرفناكم ولا لنا سعاية إلا في وجوه الإصلاح».

من رسالة بتاريخ 18 رجب 1272 هـ.

«ويكون في شريف علمكم أننا لسنا نقبل فساداً، ولا خارجاً عن الطاعة وها نحن منتظرون الحاضر لأجوبة التي قبل هذا..

من رسالة بتاريخ 1271 هـ

«... وهذه القلاقل والمصاريف وسفك الدماء الممتحنة بها المخلوقات فإن الله سبحانه وتعالى عالم بسببها ومطلع على الضمائر.

... المأمول من السيادة أن لك عمل وتسلمه في الأيالة فالعمالة عمالتك وتجدها من غير مقاتلة، وإن كان مرادكم في قتال المسلمين من غير وجه حق فنظركم أعلى وباقي ما عندنا يخبركم به الموقر المحترم أمين آغا مشافهةً.

كما وجهنا إليكم قبله يوسف آغا مدير زواره..

من رسالة 16 محرم 1272 هـ

«... إذا أمكنكم الكلام مع أفندينا في حق الضعفاء والمساكين وتهدية

السر وراحة العمالة، من غير تعب ومشقة وما يلزم للوطن من الجرايات والقوانين اللازمة والعوائد الجارية. ولا يلزم إخراج «الأوردي» - الجيش ولا تغلغله واختبرونا بالامتحان على هذا المنوال يظهر لكم الصحيح ويأتيكم مضبطتين - أي عرائض بموقعة بالطلبات - من أهالي الوطن مذكورين على متين قصدهم وإيضاح مرغوبهم. . ».

من رسالة بتاريخ 7 ربيع الثاني 1272 هـ

« . . . علمنا أن عشقر سيذهب وكنا ظننا أنه سيحملك معه، لهذا السبب لم نرسل لك رسالة والآن علمنا أنك ماكث مع محمد باشا الأمين لإدارة مصالح البلاد مولانا عندما يمنح منصباً في الدنيا يكون واجب يوديه. . يساوي بالعدل بين العباد. . ويقوم بدور الناصح خاص وعام، ويحقق كل الأمور التي تقع بين الخاص والعام.

ويجب عليه أن يتخلى عن أغراضه ومآربه الخصوصية.

وأنا عندي عليك حق وأنت تشهد به وتعترف.

ونحن لا نطلب إلا الخير.

من رسالة إلى أحمد باشا

النظام الضرائبي

مشكلة من أعوص المشاكل التي كانت على المسرح السياسي والإداري في كل الفترات.

مشكلة جرت إلى مشاكل.. وولدت عديداً من القلاقل، ونشأ عنها تفاوت في النظام الاجتماعي.. وولدت زعازع يلمسها كل من ألقى نظرة على تاريخ تلك الحقبة.. وخاصة أثناء حركات المقاومة التي قادها «غومه» و «سيف النصر» وغيرهما من الحركات الاستقلالية.. مشكلة الجبايات.. وفرض الضرائب أو الأتاوة الشخصية، فكانت هذه المشكلة في مضمونها وفي طريقة سيرها من أسباب وإثارة الخواطر... وإيجاد الهوة بين الحاكم والمحكوم.

وليست المشكلة في الجبايات والضرائب والمكوس، من حيث هي.. بل في طريقة تنظيم ذلك.. وفي طريقة فرضها على الشعب بالقوة.. بالسوط.. والسجن.. والإبادة.

هنا وعلى المسرح السياسي والإداري في تلك الآونة تبرز مشكلة صبغت العهد العثماني بصبغة الشدة وطابع العنف والقسوة.. حتى حفرت الهوة السحيقة بين الإدارة والرعية.. على حد تعبير ذلك العهد.

ولا شك أن الضرائب ضرورة لازمة.

لا بدّ من نظام إداري.. لا شك في هذا.

فلا بدّ إذاً من ضرائب وجبايات ونظام للميزان النقدي، في كل إدارة ودولة حتى في العهود البدائية.

ولكن المشكلة.. أن السوط لا يجلب مالاً.. وإن جلبه حيناً.. لا يجلبه أحياناً.. ولا يضمنه في كل الأحايين. وإن جلبه في بعض الأحايين فلن يجلب معه قلوباً ويكسب نفوساً.

من هنا بدأت الحفرة.

حتى أخذت تتسع.. ووقع فيها الكثير.

المشكلة مرة أخرى لا في الأخذ.. إنما في وسيلة الأخذ.. في التنظيم والصرف.. والنظر إلى المستوى المعيشي..

ثم بالتالي أين تصرف.. وكيف توضع.

وكان النظام الاقتصادي في أيام حركات «غومه» نظاماً مزعزعاً. فرغم الجدب وإمساك السماء في بلد كان يعيش على دموع السماء أو مطر السماء.. ورغم كل الشدائد والهزات.. والأزمات الاقتصادية فقد ثبت من الوثائق الرسمية.. والرسائل الرسمية.. والإحصائيات المعتمد عليها أن حكومة تركيا أثناء استيلائها الثاني على طرابلس الغرب - أي بعد انقراض الحكم القره مانلي - كانت الولاية ترسل في كل عام للباب العالي مبالغ لا يستهان بها من المال..

هذا المال الذي كان فائضاً من الضرائب المفروضة على الشعب.

وكانت الإدارة - آنذاك - تسدد من أموال الشعب المصاريف الإدارية وتدفع منها مرتبات الموظفين والقضاة.. بل ورواتب الإدارة العسكرية.. نفقات الجنود والضباط.. ومصاريف للثكنات والقلاع والكشلات التي تملأ الوديان والبقاع.

كل هذا.. ثم بعد هذا.. يفضل طائل من المال فيرسل.. إلى أين؟ يرسل ليكون عربوناً على المودة.

ليكون دليلاً في نظر الحكام على المقدرة والموهبة وعبقرية الإدارة، ليكون دليلاً على الكفاءة.

فلينزل السوط على الشعب ليلهب ظهره في الصحاري والقفار والسواحل والمدن.

فلتكن المطاردة للمطالبين بالإصلاح. فليملأ سجن القلعة.

فليرسل كل تواق إلى التحرر إلى المنافي، بعيدة في شاطىء البحر الأسود وحدود القفقاز.

لا يهم، ما دامت الضرائب.. والجبايات.. والأوتاوة يفرضها الحاكم العثماني على الشعب المسكين.

لا يهم.

ما دام هذا الفائض يرسله الوالي إلى أعتاب الباب العالي ليضمن الاستمرار في إدارته. ولينتفخ الصدر الأعظم.

تؤخذ الضرائب والجبايات ثم لا يصرف منها شيء على مناهج الإصلاح، بل أين تخطيط مناهج الإصلاح ومشاريع العمران.

ولو كان عند هؤلاء ـ غفر الله لهم ـ حباً للإصلاح لجعلوا الفائض والزائد في مشاريع ليكسبوا قلوباً.. ويطمئنوا نفوساً.. ويقتربوا إلى الشعب خطوات.

ولكن هذا هو الواقع.

الواقع المرير الذي كان يلمسه الشعب أيام أن قامت حركات في الصحراء تطالب بحق الشعب، وتتمنع بعض القبائل من دفع الرسوم والجبايات.

هذا هو الواقع المرير.. المؤلم.. الذي نحكي عنه.. والذي شهدت به وأيدته أرقام.. أرقام كبيرة.. وأسماء عديدة.. ووقائع.. وقائع كثيرة.. كلها

تنطق بالمرارة.. إنها سجلات الإدارة لذلك العهد.

لسنا نتحامل.

كل دولة فيها ما يقوله الشعراء وما يقوله الهجاؤون منهم. لسنا نبالغ، فليس بيننا وبين أولئك الناس إحن أو أغراض خاصة، إنما قد يسأل الناس.. ما سبب تلك القلاقل.. وما دافع تحركات الصحراء منذ قرن ونيف؟

لقد كان هناك ضغط.. وكان هناك عدم توازن بين الأخذ والعطاء. يأخذ الحاكم بالسوط مالاً، ولا يعطي إصلاحاً ومشاريع.

وتكونت حفرة ثم نشأت هوة.

ووجد خرق حتى غدا خروقاً ثم تهلهل الثوب حتى تمزق وراح.. وقد أشرنا في فصل سابق إلى دوافع وأسباب التحركات والمقاومة، ولكن هنا نود أن نلقي نظرة.. مجرد نظرة عابرة من ناحية النظام الاقتصادي وشكل الضرائب.

كان الدخل الحكومي في العهد العثماني الذي يمون الخزينة في طرابلس وبنغازي يمثل هذه الأشكال من الضرائب:

1 — ضرائب متحصلة من طرابلس وبنغازي وتصرف على شؤون الإدارة.
2 — ضرائب كانت تحصل وتؤخذ من الشعب نيابة عن الحكومة العثمانية والتي كانت تكدس وترسل رأساً إلى ضفاف البسفور إلى خزينة الصدر الأعظم وأعتاب الباب العالي.
3 — ضرائب كانت تجمع من المؤسسات المستقلة غير دوائر الحكومة ومن النوع الأول من الضرائب تندرج هذه الأشكال.

ضريبة الويركو:

ضريبة «الويركو» وهي عبارة عن ضريبة سنوية ـ تشمل الشخصية، مقدارها 40 أربعون قرشاً عن كل ذكر بالغ ـ إنها تشبه الجزية ـ مع ملاحظة أن قرش زمان أضعاف أضعاف ما عليه الآن من القيمة.

كما أن هناك ضريبة على كل رأس من الحيوانات.. غنم.. بقر.. الخ.

كذلك فرضوا ضريبة على كل رأسٍ - بني آدم - يسمونها ضريبة الطاقية - مفروضة على كل ذكر بالغ سواء كان عاملاً أو عاطلاً. ومن السخرية في الميزان والتقدير أن يساوي رأس الإنسان البالغ برأس حيوان من الجمال والإبل والبغال والحمير.

فضريبة الحيوان كضريبة الإنسان.. سواء بسواء.. أليس هذا عدل،
40 قرشاً سنوياً على كل جمل وقعود.

20 قرشاً سنوياً على كل ثور أو بقرة - ولعلهم استثنوا الثور الذي زعمت كتب الأساطير أنه يحمل الدنيا على قرنه.

4 أربعة قروش على كل رأس غنم من الضان.
2 قرشان على كل رأس من الماعز.

وبجانب الضرائب التي كانت تجبى على رأس الآدمي ورؤوس الحيوانات هناك ضريبة الأشجار.

$2\frac{1}{2}$ قرشان ونصف عن كل شجرة.. تدفع عن كل نخلة وزيتونة النخل والزيتون.. لأنه الأكثر الغالب، إذ كان في طرابلس ما يبلغ عشرات الملايين من النخلات باستثناء الواحات وشواطىء فزان.

أما باقي الأشجار فكانت معفاة من الضرائب.. ولعل ذلك لندرة الأشجار الأخرى.. أو لأن والياً منصفاً أراد أن يحسن ويشجع غرس الأشجار المنوعة.. فأعفاها من الضرائب..

ولم يعف رأس الآدمي من الضريبة.
على كل حال نقرر هنا أموراً كانت واقعة.

والآبار ما أكثر أهميتها في بلد لا أنهر به.. وصحراء يحتاج أهلها للماء.. وكانت عليها ضرائب.. بدل أن يشجعوا حفر المياه وجلبها، كانت نفوس الحكام متعطشة إلى ضرائب.. لا إلى تفجير المياه.

25 خمسة وعشرين قرشاً عن كل بئر خاصة تستعمل للريّ أو السقاية.

المتوجات الزراعية:

وتختلف الضرائب الزراعية حسب موسم الحصاد وأوقات الاستثمار، وإن كانت لم تزد على أربعة أعشار من المحصول إن كان جيداً، الضرائب المفروضة على أنواع الحبوب تجبى من نوع المحصول وجاءت فترة كانت هناك ضرائب على الأشجار وتؤخذ نقداً بمعدل «مجيدي» عن كل قنطار وظلت في تدرجها التصاعدي حتى وصلت في إحدى الفترات مبلغ أربع مجيديات، وحتى الحلفا ـ النبات الصحراوي الذي وهبه الله لأبناء الصحراء بلا سقي ولا زراعة، لم يعف هذا النبات من الضريبة.. وكانت تجبى الضنريبة عنه بعد المناقصة بين المتعهدين. وكانت من أهم ثروات تلك البلاد لو عرفوا كيف يستغلونها.

الجواهر وفحصها:

كل شيء عليه ضريبة
لا بأس

فهل تترك الجواهر، لم يتركوا رأس الآدمي.. في الضروريات شددوا الجبايات، فما بالك بالحلي والكماليات. كانت ضريبة الجواهر بمعدل 16 ست عشرة «باره» عن كل أوقية من الفضة و16 ست عشرة «باره» عن كل مثقال من الذهب.

والضرائب على تعريف وتثمين المعادن هي 8 ثماني «بارات» على كل أوقية من الفضة.

8 ثماني «بارات» على كل مثقال من الذهب.
ويقوم بهذه الإجراءات أمين السوق.

ضرائب العقارات:

عقارات البيوت والأراضي التي تؤجر تدفع الضريبة 10 % من الدخل على كل عشرين ألف قرش.

و5 % إذا كان تقدير الإيجار بأكثر من عشرين ألف فرنك وبجانبها

ضريبة إضافية تدفع لصالح دائرة التعليم مقدارها 5 % من الضريبة الإضافية - مع ملاحظة أن ضريبة التعليم جاءت في فترة متأخرة وبعد المطالبة بالإصلاح . . وبعد حركة غومه بأمد غير قصير وهي من حسنات الضرائب التي لا يجحد أثرها فيها بعد.

وهناك من أنواع الضرائب ضريبة إضافية تدفع لمدير مخازن الجيش العام مقدارها 6 % من الضريبة الإضافية.

ونوع آخر من التقسيم الضرائبي والتوزيع الجبائي . . ضريبة إضافية مقدارها 10 % من الضريبة الإضافية تدفع إلى دائرة تسجيل الأملاك.

حسن أبو سيف الليبي

صور من وثائق ورسائل غومة

نقدم للقارئ صورة من الرسائل المتعلقة
بحركة غومة والتي كان يوجهها
إلى الولاة والمسؤولين



[illegible]

الحمد لله وحده — صلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

[illegible]

وصار لنا اعلامكم بذلك حقوق السيادة وهي باقية عندنا على ما يأتي اخذ السيادة

لا في موضع [illegible] ويكون من [illegible] علمكم [illegible]

[illegible] الله تعالى [illegible]

وهذا ما عندنا [illegible] [illegible]

٨

فهرس

الإهداء	5
غومة في سطور	7
مقدمة	9
حركة غومة	15
ظلال دولة	38
المحاميد: أصلهم، منازلهم	45
نشأة غومه	50
أعاصير في الأفق	53
القبض على غومه	59
بوادر وبوارق	62
مسالمة ومصادمة	65
غومه في الميدان	72
مواصلة المعارك	78
خطة وأساليب	86
معارك لاهبة	89
حدة وشدة	93
مسالمة غومه	96
حياة مستقرة	103
نظرات حاقدة	108
اعتقال ونفي	110

غضبة وموقف 114
تحركات ومقامات 118
الصباح العنيف 122
حركة ميلود 129
محاولات 133
محاباة في الضرائب 138
استمرار المعارك 140
فرض الإعانة والإحصاء 145
صورة من تدخل القناصل السافر 149
«علقة ساخنة» 156
عودة غومه 159
الأسد يعود إلى مسارحه 167
التفاف حول غومه 175
تحركات وهجمات 178
حيلة وخدعة 181
لاجئ في تونس 186
اليوم الأخير 199
الولاة الذين عاصروه 203
من رسائله 205
من أشعاره 210
من غزل غومه 218
نوادر . . . وأمثال عن غومه 225
الأمثال وغومه 227
فقرات من رسائل غومه 228
النظام الضرائبي 230
صور من وثائق ورسائل غومه 237

هذا الكتاب يتنـاول حياة فارس من فـرسان ليبيا ولد حـوالي سنة 1795م وانتهت حياتـه سنة 1856م .

عاش حياتـه في الميدان بين كر وفر . . ونصر وهـزيمة . . فـارس غذتـه الأحـداث . . وعلمتـه الصحراء وألهمتـه النظـرة ووخـزة الظلم . فـأحس وثـار وغضب لقـومـه وناضـل من أجل وطنه ، دفعـه الواجـب فاندفـع وقاوم ودافع .

ذاق سراديب السجن وآلام النفي ومشاق الغربة . وطالب بالإصلاح في القرن التاسع عشر . .

غـومـة ـ فـارس جـرىء ومـواطن ذكـي يقظ . . وبطل مـن أبطـال الصحراء ؛ وهـو رغـم بعض المآخـذ والهنات لبنة في تاريخ الحركات التحررية التي يتكون منها تاريخنا الشامخ . .

ومع أن شخصية هذا الفارس متعددة الجوانب إلا أن الدارسين أهملوه ، والخصـوم شوهوا حركتـه . وتكاد رمال النسيان أن تجرفه . . ويكاد غومة يغدو أسطورة من الأساطير . .



الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان
مصراتة الجماهيرية العظمى